أثير عبد الله النشمي



# فلتغفري...

رواية



سألتك يوم ذاك إن كنتِ مسترجلة. أذكر كيف رفعتِ رأسكِ، وكيف سددتِ نظرتكِ الحادة تلك كقذيفة من لهب... كانت نظراتكِ شهية رغم حدتها ورغم تحديها.
لا أعرف كيف سلبتني بتلك السرعة يا جمان. لا أفهم كيف خلبتِ لبي من أول مرة وقعت فيها عيناي عليكِ.
استفززتكِ كثيراً يومها. كنت ازداد عطشاً لاستفزازكِ بعد كل كلمة وبعد كل جملة. عصبيتكِ كانت لذيذة. احمرار أذنيكِ كان مثيراً. كنتِ (المنشودة) باختصار ولم أكن لأفرط بكِ بعدما وجدتكِ.
حينما غادرتِ المقهى يا جمان، قررت أن تكوني لي. لم أكن لأسمح بأن تكوني لغيري أبداً!

أثير عبد الله النشمي، من مواليد يونيو 1984م.
سعودية، مقيمة في الرياض.
صدر لها عن دار الفارابي روايتين:
أحببتك أكثر مما ينبغي، ط1، 2009، ط10، 2013.
في ديسمبر تنتهي كل الأحلام، ط1، 2011، ط7، 2013.

RAYAHEEN


ISBN 978-614-432-064-8

تصميم الغلاف: رذاذ اليحيى
صورة الغلاف: فيصل الكعيد

أثير عبد الله النشمي

# فلتغفري...

(رواية)

دار الفارابي

الكتاب: فلتغفري...
المؤلف: أثير عبد الله النشمي
لوحة الغلاف: بعدسة المصور فيصل الكعيد
تصميم الغلاف: رذاذ اليحيى

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) – فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 – الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: تشرين الأول 2013
ISBN: 978-614-432-064-8

# الإهداء

إلى عينيّ، عبد الله وعبدالله، عبدالله الذي خلقني الله منه، وعبدالله الذي خلقه الله مني.

إلى نوارة قلبي، نورة الكعيد.

إلى سعود، الصديق دائماً.

تجلسين ساكنة بجواري، تعبثين بخصلاتِ شعرك المجعد، مرتخية فوق مقعد السيارة كطفل منهك، خائر ومريض.

أعرف بماذا تفكرين، تفكرين بي! تفكرين في مدى حقارتي، وتبحثين عن أسباب خذلاني إياكِ.

خذلتكِ، أعرف أنني خذلتكِ، قسوت عليكِ على الرغم من أنكِ أحنّ البشر عليّ، ولا أعرف كيف قدرت على فعل هذا!

تركتِ خصلة شعركِ، وأمسكتِ بالدبلة المتدلية من سلسلة الذهب الأبيض والتي تنام على نحركِ الرقيق كنجمة مضيئة، أخذتِ تعبثين بها بشرود، وكأنكِ في أرض بعيدة، أرضٍ أضعت طريقها وأخاف أن لا أستدلّ دروبها بعد اليوم.

غارقة أنتِ في خيبتكِ، وغارق أنا في معصيتي، لكنني أحبكِ يا جمانة، فاغفري!

****

تثرثر جاكلين كثيراً، جاكلين نادلة المقهى، حيث التقينا للمرّة الأولى.

كنت أقرأ كتاباً عن تاريخ الدولة السعودية، لأكتب إحدى المقالات الوطنية والتي لا تمتعني كتابتها بكل الحالات؛ سألتني جاكلين عمّا أقرأ،

فأخبرتها بأنني أحاول قراءة التاريخ السعودي لأكتب مقالة بمناسبة عيدنا الوطني، أعلم بأن جاكلين تراني نموذجاً للفارس الشرقي الذي قرأتْ عنه في حكاياتِ ألف ليلة وليلة، لذا هي تثرثر دوماً عليَّ ومعي.

هكذا هنّ الكنديات، يرين في الشباب العربي أحد نموذجين، فإما أن يكونوا إرهابيين وإما أن يكونوا كفرسان الأساطير، وأدرك جيداً بأن شاباً مثلي لا يمثل إلا النموذج الأخير بالنسبة إليهن.

تنصلت من جاكلين بصعوبة، لم أكن بمزاج يسمح بالمغازلة، يكدرنني اللواتي يأتين في الأوقاتِ غير المناسبة ليفرضن أنفسهن عليّ.

كنت أقرأ الكتاب بملل وأنا أبحث فيه عن طرف خيط أو بداية فكرة، لا أعرف كيف أكتب عن وطن لا أحبه وتاريخ لا يغريني، لكم عكّرت مزاجي المحاولة!

حينئذ دخلتِ أنت، جئتِ فجعلتِ كل الأوقات تناسب استقبالك، دخلتِ كفرس جامحة، بخطواتٍ واثقة، بعنق ماجد، بجبين شامخ، وشعر ثائر.

دلفتِ يوم ذاك كوطن حر لطالما حلمت به، وطن لطالما أغراني بثورته وجموحه وجنونه.

جلستِ بخفة قطة، وضعتِ إحدى رجليكِ فوق الأخرى بدلال عفوي و(شماغ) بنّاتي يحيط رقبتكِ بأناقة.

أغراني اقتحامكِ الناعم ذاك! أغراني حتى ارتعشت أطرافي توتراً.

تحرشت بكِ على طريقتي، تحرشت بكِ بقدر ما استطعت، فأجبتني باقتضاب مغرور أثار قلبي وعقلي وجوارحي.

سألتكِ يوم ذاك إن كنتِ مسترجلة، أذكر كيف رفعتِ رأسكِ، وكيف

سدّدتِ نظرتكِ الحادة تلك كقذيفة من لهب... كانت نظراتكِ شهية رغم حدتها ورغم تحديها.

لا أعرف كيف سلبتني بتلك السرعة يا جمان، لا أفهم كيف خلبتِ لبي من أول مرة وقعت فيها عيناي عليكِ.

استفززتكِ كثيراً يومها، كنت ازداد عطشاً لاستفزازكِ بعد كل كلمة وبعد كل جملة، عصبيتكِ كانت لذيذة، احمرار أذنيكِ كان مثيراً، كنتِ (المنشودة) باختصار ولم أكن لأفرط بكِ بعدما وجدتكِ.

حينما غادرتِ المقهى يا جمان، قررت أن تكوني لي، لم أكن لأسمح بأن تكوني لغيري أبداً!

****

أتدركين ما تفعله رسائلكِ بي؟! ترسلين لي يومياً عشرات الرسائل، تكتبين لي فيها وتخبرينني ماذا شربتِ وماذا أكلتِ، وما قرأتِ وبماذا حلمتِ، تكتبين عن كل ما تقومين به، وتنقلين إليّ كل شيء، تسطرين يومكِ برسالة هاتفية لأعيش حياتكِ وكأنني معكِ طوال الوقت.

تشعرني رسائلكِ غالباً بالضجر، تفرطين بالكتابة، ورجل مثلي لا يحب أن يحاصر بكل تلك التفاصيل والحكايات.

حينما نتشاجر وتقاطعينني، وعندما أعاقبكِ بالغياب، أعود إلى رسائلك القديمة فيمزقني الفقد، عودتني على رسائلكِ، فبتّ كطفل رضيع يعيش بكِ، ويصيبه الجفاف حينما تفطمينه الرسائل.

تركتني أعطش بلا تفاصيل لأكثر من أسبوع، كنا قد تشاجرنا من أجلها،

من أجل رسائلكِ الكثيرة وتفاصيلكِ المبالغ فيها، قلتَ لكِ يومها بأنكِ امرأة ثرثارة، فغضبتِ وقررتِ المكابرة، وحرمتني من رسائلكِ لأيام كثيرة وطويلة.

كنت أنتظر أن تملي فترسلين، لكنكِ عاندتِ كعادتكِ ولم ترسلي لي شيئاً.

هكذا أنتِ، تعودينني على الأشياء لتحرميني منها حينما تغضبين!، تعاملينني كطفل صغير، تعاقبينه بالحرمان من الأشياء التي يحبها، ومن الأشياء التي لا يدرك كم تعني له وكم يحبها (أحياناً) لتلقنينه درساً في قيمة الأشياء!

كنت أبتسم في كل مرة يعلو فيها صوت رسالة هاتفية، وفي أعماقي يدوي صوت الانتصار، فتصدمني رسائل غيركِ وتصمت المدافع في داخلي بانتظار استسلامكِ.

كنتِ عنيدة، وامرأة مثلكِ حينما تعاند لا تتنازل إلا باعتذار مذل وتضرع طويل، لذا لم أكن لأعتذر عمّا تفوهت به أبداً.

عدت يومها إلى رسائلكِ القديمة، كتبتِ برسائلكِ الأربع الأخيرة: (حبيبي أنا في المقهى مع هيفاء، لن أتأخر في العودة إلى البيت.. أحبك)، (أنا في طريقي إلى البيت، ليتك كنت معي)، (حبيبي، أنا في البيت، نظفت أسناني، لبست ملابس النوم ودخلت فراشي، أيقظني عندما تصل إلى بيتك، اشتقتك اليوم كثيراً).

كنت أرى بأنك تفصلين يومكِ أكثر مما يجب، واضحة أنتِ إلى أبعد حد، موجودة أنتِ في كل الأوقات، تشعرينني دوماً بأنك حولي ومعي، لم أشعر منذ أن عرفتكِ بأني سيد قراري، تجبرينني على أن أناقش خياراتي معك لنقرر معاً كل ما يخص حياتي وكأنها ملككِ! كنت أدرك أنكِ تقحمينني بتفاصيلكِ رغبة منك باقتحام تفاصيلي، ولم أكن لأقبل بهذا يا جمان.

حينما قرأت رسائلكِ، هزني الشوق، اشتقت عفويتها وعشوائيتها، اشتقت الفواصل الكثيرة التي تفصل بين كلماتك، والنقطتين اللتين تنهين بهما الرسائل، وكأنكِ توقعين بها باسمكِ في نهاية كل رسالة.

اشتقت هذه التفاصيل التافهة والصغيرة، لكنني لا أقدر أن أعتذر كما يعتذر الناس، ولا أعرف كيف أنهم يجرؤون على ذلك.

أرسلت إليكِ رسالة، كتبت (قلت بأنكِ ثرثارة، لكني لم أخبركِ كم تجيدين الثرثرة!).

أجبتني - وهل من المفترض أن أفرح؟

- «لا تطولينها وهي قصيرة»!

- هل أفهم أنك تعتذر بهذا الأسلوب؟

- لا، أردت أن أوضح الأمور لكِ فقط.

- ستتفاهم حينما أعود إلى البيت، أنا مع البنات، سأكون في البيت بعد حوالى الساعة.

أرسلتِ لي بعد عشر دقائق :

- لم يعجبني عصير البرتقال، كان حامضاً للغاية، سيتعب قولوني الليلة!

فعرفت بأنكِ عدت لممارسة عاداتك، ولم يكن هناك داع لأن نتفاهم!

****

قد لا تدركين يا جمان كم من الصعب مجاراة امرأة فاحشة الأنوثة مثلكِ، امرأة متطرفة الأنوثة مثلكِ ترهق رجولتي، تنهكها، تشعرني بالعجز.

لا أدري كيف تشعرينني بالعجز، لكني أعرف أن بعثرتكِ لي تتعبني أحياناً مثلما تسعدني أحياناً كثيرة.

دلفتِ مرة إلى باحة الجامعة، كنتِ ترتدين سروالاً من الجينز، وقميصاً أسود اللون وفي قدمكِ خلخال ناعم.

أخذت أتأملكِ من بعيد، أتأمل امرأة لا يسعني القول أمام أنوثتها الجارفة إلا أنها امرأة جميلة، فاتنة وخصبة!

امرأة تضاهي إيزيس وأفروديت وفينوس وعشتار في كل ما كنّ يعبدن لأجله.

أنتِ لا تعلمين كم أعشق مراقبتكِ من بعيد، أراكِ تبتسمين في وجه كل من يقابلكِ، فأغبطكِ على لطفكِ في صباحات لا يقدر الكثيرون على الابتسامة فيها.

تبتسمين فأحسد الجميع على ابتسامة تمنحينهم إياها، ابتسامة أدرك جيداً بأنها أثمن من أن يستحقها العابرون.

دلفتِ ذلك اليوم ككل يوم، منحتِ كل الموجودين ابتسامة تلون النهار، وتلقح الأزهار، كنتِ تومئين برأسكِ برقة أمام كل من يقابلكِ فينهار كل صلب في داخلي، وتحل مكانه مشاعر من حرير.

كنت أجلس في ركن قصي لم تلحظي وجودي فيه، جلستِ مع هيفاء ومجموعة من صديقاتكِ، وفي يدكِ علبة عصير صغيرة.

تهزين رجلكِ دوماً حينما تكونين جالسة، تهزينها بهدوء فيهتز قلبي معها و أتأرجح وأنا أشعر بروحي ترقص مع صوتِ خلخالك البعيد الذي لم أكن أسمعه فعلاً.

كنت أتأمل عظمتَيْ نحركِ البارزتين، فيتهيأ إلي بأن كل رجال الدنيا يراقبونهما فيشتعل في داخلي فتيل الغيرة ويلتهب.

أخذت هاتفي وأرسلت إليكِ رسالة، كتبت لكِ (قبليني يا حلوة!)

شاهدتك وأنتِ تقرأين رسالتي، ابتسمتِ نصف ابتسامة وقد أحمر وجهكِ، رفعتِ أحد حاجبيكِ بتحدٍّ وكتبتِ :

- قليل أدب!

- فلتعتبريني أخاً لكِ.

أذكر كيف ضحكتِ، وضعتِ يدكِ على فمكِ وضحكتِ، لا أعرف لماذا تخفين البلور، ولماذا تبخلين على الدنيا بضحكتك.

أمسكتِ بخصلة من شعركِ البني الطويل، تعبثين دوماً بخصلات شعركِ حينما تتحدثين، تلفينها بإصبعكِ من دون أن تشعري، فيدور رأسي مع كل خصلة تلفينها، وكأنكِ تلفين بي الكون فأنهار في زخم اللفائف.

أتدرين جمان، عرفت كثيرات خلال حياتي، لكن كل امرأة منهن لم تشكل لي في نهاية المطاف سوى نصف امرأة، بينما تظلين أنتِ في كلّ حالاتكِ امرأة وصلت إلى آخر مراحل الاستواء، ولم تبارح حدود النضج قطّ، امرأة تظل شهيّة في كلّ حالاتها.

اتصلت بكِ قلت: ألم أمنعكِ من الخلاخل؟

- سألتني باستغراب: وكيف عرفت بأنني أرتدي خلخالاً؟

- أخبرتني العصفورة!، ألم أقل لك يوماً بأنني أشعر بكِ حينما تعصينني؟

ضحكتِ وأنت تجوبين بعينيكِ في الأرجاء - ذكرتني بأمي!

- ماذا عنها؟

قمتِ من مكانك وأنتِ تبحثين عني، قلتِ: خدعتني في طفولتي، أقنعتني بأن الأم تشعر بابنتها حينما تعصيها.

- وصدقتها؟
- طبعاً!
- لِمَ تصدقين أمكِ دوماً ولا تصدقينني؟!
- دافع أمي الأمومة، ماذا عن دافعك أنت؟!

قلت لكِ بسخرية: الأبوبة!

- الأبوة يا شاعر.
- بل الأبوبة!

أعطيتكِ ظهري وخرجت مسرعاً خوفاً من أن ترينني، وأدرك أنكِ لا تعرفين حتى الآن كيف عرفت أنك كنتِ ترتدين خلخالاً بدوياً لا ترتديه فتاة سواكِ.

لو تدرين لكم أحب مزيجك هذا ياجمان!، لكم أحب مزيج البداوة والحضارة الذي لا تمثله امرأة غيرك.

أنتِ التي تجمع كل المتضادات رغم ثباتها، الثابتة رغم اختلافها، أنتِ الجميلة الثبات والمتناقضة بأناقة، أنتِ المرأة التي تحرقني بأشعتها نهاراً كشمس ماجنة، وتضيء أمسياتي كقمر ناسك زاهد.

أنتِ التي لا تشبهها امرأة، رغم أنها تمثل كل النساء، أنتِ السهلة الصعبة، القريبة البعيدة، ما أخاف منها وما أبتغيها.

أنتِ التي اقتحمت حياتي عنوة، فقلبت حياتي وغيرت أولوياتي وعلقتني في خيط رفيع متأرجح قد يهوي بي في أي وقت وفي أية لحظة.

أنتِ أقوى مما تدعين، أكثر صلابة مما تظهرين، فبرغم نعومتكِ ورقّتكِ وسهولة خدشك إلا أنكِ فتاة شامخة، قوية، ذات جذور عميقة وعتيقة، فتاة

أصيلة، تزأر حينما تهان، وتكبر حينما يحاول كائن من كان تحجيمها أو تهميشها.

أنتِ تدركين جيداً مثلما أدرك تماماً بأنني لست برجل مثالي، أنا أبعد الرجال عن المثالية، لكني لست بأسوئهم حتى وإن أصررتِ على أني كذلك.

أدرك بأنكِ ترين بي وحشاً مسعوراً يفترس النساء ليرميهن بعد افتراسهن من دون أي إحساس بالذنب، لكنني لست كذلك يا جمان، لست إلا رجلاً، رجلاً بكل ما في الرجال من مساوئ ومن مزايا، رجلاً تملأه العيوب مثلما يتحلى بالكثير من المحاسن التي لا أعرف لماذا لا تبصرينها، لا ببصركِ ولا حتى ببصيرتك.

ما لا تفهمينه يا جمانة هو أنني رجل غارق في البحث، تظنين أنتِ بأنها ذريعة اللعوب، لكنها الحقيقة التي لم تدركيها يوماً.

لطالما كانت لدي أسئلة، لطالما عشت في تردد وتوجس وحيرة، فلِمَ تلومينني على بحثي!، لِمَ تقحمين نفسكِ في هذه الحالة بلا جدوى ولا فائدة؟!

قلت لكِ ذات مرة بأنكِ الحقيقة الوحيدة التي أدركها وأحبها فلا تشتتي تلك الحقيقة من خلال تشككي بها، لكنكِ أصررتِ على ذلك! أنتِ من أبعدني عن الحقيقة بإصراركِ على أن أتشكّك بما وصلت إليه وما أرغب به.

كنت أحتاج لأن تزيدي إيماني فيها، لأن تجعلي يقيني أكثر ثباتاً، لكنكِ لم تفعلي، فلا تلوميني على بحثي في ماهيتها، وأنتِ من جعلني أتشكّك في تلك الماهية.

لا أفهم كيف أنّ النساء يفعلن هذا! ولماذا يبعدننا عن الحقيقة ويلومننا بعد ذلك على شكنا فيها!

لم يكن من المفروض أن تفعلي هذا، أنتِ بالذات لا يليق بكِ أن تفعلي

بي هذا، أنتِ الاستثنائية، المختلفة، النادرة والفريدة، فلِمَ تشكّكين في روعتكِ وتأثيركِ عليّ قبل أن تشكّكي بي؟

حينما عرفتكِ يا جمانة، كنتِ الفتاة الأكثر ثقة، كنتِ امرأة لا تضاهيها بإيمانها بنفسها امرأة، فلِمَ تزعزع إيمانكِ بنفسك؟! لِمَ فقدتِ ذاك اليقين؟!

أرجوكِ، لا تدعي بأني من فعل بكِ كل هذا، أنتِ فتاة لا يقدر عليها رجل، فتاة لا يقدر إنسان على سلبها شيئاً لا تمنحه طواعية، فلا تدعي بأني من سلبكِ الثقة بذاتكِ، أنتِ من فعلت هذا يا جمانة، صدقيني أنتِ من فعلت.

*****

كانت ليلة قاسية جداً!

كنت أقضي إحدى سهرات السكر في بيتِ صديقي محمد، وقد كان بمعيتنا زياد الذي لا يشرب الخمر لاعتبارات «فلسفية ودينية»، ليلتها كان كل واحد منا مثخناً بجراح الحياة والغربة، الجراح التي تتشابه وتختلف في حالات كثيرة وصور كثيرة، لم نتحدث تلك الليلة كثيراً، توسط كل منا إحدى الأرائك، وغرق في خيبته الخاصة بصمتٍ لا يليق بسكارى وفيلسوف يصلي الصمت كزياد!

لم يكن هناك سوى صوت طلال مداح، وتنهدات الخيبة التي جمعتنا، كان طلال مداح يبكي غناءً حينئذٍ وكأنه يشاركنا العزاء.

ما أوعدك من يضمن ظروف الزمان
لا تصدقي من قال لك الدنيا أمان
ميعادنا خليه بكف الظروف

لا تحرجيني بالزمان وبالمكان
ما أوعدك!

كثر الليالي أشتاق لك كثر السنين
أنتِ حنان العمر ما غيرك حنان

لم أشعر إلا بكفّي زياد تهزانني بقوة، ومحمد ينظر إليّ بقلق!

كنت أشهق بقوة، لم أكن أبكي، ما جرى في تلك الليلة لم يكن بكاءً، كنت أشهق، كنت أشعر بروحي تتفاقم وكأنها تناضل لتفارق جسدي المتعب.

لا أعرف ما الذي أصابني تلك الليلة، لكنني أعرف بأنني قد أفرغت بعضاً من أكوام الحزن المتراكمة في أعماقي، كنت أشعر بأن طلال مداح يعاتبني! يعاتبني على وعود قد قطعتها ولا أعرف إن كنت سأفي بها يوماً.

لم أتمكن وقتذاك من أن أرد عليكِ، أنتِ التي كدتِ أن تهشمي هاتفي بمكالماتك المتواصلة طوال الليل، لم أكن قادراً على التحدث، فظللت أبكي في بيتِ محمد حتى بزغ الفجر.

أوصلني زياد إلى البيت بعد أن غادرت بيت محمد منهكاً، شبه ميت.

كنت جثة ثقيلة ومتثاقلة، لم أكن قادراً على المشي، كانت هذه آثار الخيبة، صدقيني لم أكن ثملاً إلى ذلك الحد، كنت متعباً يا جمان، لم أكن غارقاً في السكر مثلما ظننتِ!

حينما دخلت البيت، وقعتْ عيناي عليكِ، كنتِ تجلسين مع باتي وروبرت بوجه ممتقع.

أذكر بأن بوب قد قال لي شيئاً، لكنني فعلاً لم أفهم شيئاً مما قاله، مشيت

حتى وصلت إليكِ، وسقطت عند قدميكِ، وضعت رأسي على ركبتيكِ وقلت لك بأني أريد أن أنام!

أذكر أنكِ سألتني بصوتٍ مخمر بالشك: أين كنت؟!

صحت فيك وأنا أبكي: أحبكِ، أرجوكِ!

أسندتني بجسدك وأخذتني إلى الفراش، بقيتِ بجواري حتى نمت وأنتِ تمسكين بيدي بحنان لا أفهم كيف تغدقين عليّ فيه!

لم يكن ينقصني يا جمانة سوى أن تحشري جسدكِ الصغير بجواري، صدقيني لم أكن لأمسّكِ، أقسم بأني لم أكن لأفعل، كنت أحتاج لأن تضميني فقط، لأن تحميني من حزني، من خوفي ومن نفسي.

لكنكِ لم تفعلي، ولم أجرؤ على أن أطلب شيئاً كهذا، ظللتِ ممسكة بيدي حتى غرقت في النوم، فنمت ليلتها كما لم أنم في أية ليلة!

*****

قلتِ لي يوماً بأن الأحلام تبتدئ فجأة! تخلق في لمحة عين، تولد في لحظة لا نتوقع أن يولد فيها شيء.

قلتِ إنك مليئة بالأحلام وبأني أجمل أحلامكِ، لكنني أبحث عني في أركانكِ في كل مرة أجلس أمامكِ فيها، فتبهرني هذه الطاقة النابضة المنبعثة منكِ والتي تمدين بها الحياة.

أنتِ التي تجعلين للحياة رونقاً يا جمانة، تتفتح من أجلكِ الأزهار، وتشرق لأجلكِ الشمس في مدينة شمسها لا تشرق إلا لأجل امرأة حالمة مثلك.

أندهش كثيراً من أحلامكِ التي تلامس النجوم يا جمان، أحلامكِ التي تجعلني أقف أمامها بخوف من أن لا يكون لي مكان بينها.

تظنين أنتِ بأني أحاول قمع أحلامكِ، ولا تفهمين لما أفعل هذا !

تعتقدين أني أحاول تقنينها لمجرد السيطرة، ولا تفهمين أني أفعل هذا لأكون الحلم الواحد، لأصبح المبتغى الأوحد حتى لا يكون لكِ مراد غيري ومبتغى سواي.

أخاف عليكِ يا جمان، أخاف أن أفقد جاذبية الأحلام، أن تنصرفي عني إلى حلم جذاب آخر، وما أكثر الأحلام!

النساء لا يفهمن بأن المرأة الباذخة الأنوثة ليست سوى عبء ثقيل على الرجل.

هذه النوعية من النساءِ تشعر الرجل بالخطر طوال الوقت، تقلقه دوماً، تبقيه في حالة ترقب دائمة وتجعله في حالة توجس مستمرة.

كم تمنيت لو كانت أنوثتكِ أخف حدة يا جمان، كم تمنيت لو كنتِ أقل تأثيراً عليّ وفيّ.

لا تلوميني على مقاومتي إياكِ، لا تعتبي على ثوراتي، صدقيني ما مقاومتي لكِ إلا محاولة يائسة للنجاة منكِ، كنت أحاول أن أوقف توغلكِ فيّ، أن أحدّ من سبركِ لأغواري.

أثور عليكِ لأنني أكره إذعاني لهذا الحب، أنتفض على حبكِ لأني أخشى التورط بكِ أكثر مما أنا متورط به.

لكن النضال والمقاومة والثورة لم تتمكن جميعها من أن تحدّ من تورطي

فيكِ، ولم تمنعني من أن أغرق بكِ أكثر، أنا الذي ازداد سقوطاً فيكِ يوماً بعد يوم، لحظة تلو أخرى.

مذ عرفتكِ وأنا أفكر كثيراً، يعمل عقلي بكدّ منذ أن أحببتك!

تتزاحم الأفكار في رأسي وتتداخل إلى درجة تنهكني، تجعلني ألهث، لتطرحني بعيداً من دون إجابة أو نتيجة.

أذكر بأنكِ قد قلت لي يوماً بأني رجل تحليلي، أحلل المواقف والمشاعر والرغبات لدرجة تجعل من الصعب عليّ أن أستمتع بشيء.

قلتِ بأن تحليلي المبالغ فيه يفقد الأشياء قيمتها، ولا أدري لِمَ ظننتِ هذا! أنتِ التي وقعت في غرامي من أجل كتاب تاريخي كنت أحمله في يدي يوم التقينا مصادفة في مقهى صغير!

أنتِ التي لولا البحث، والكتابة والتحليل والقراءة لما أغرمت بي يوماً.

قد لا تدركين يا جمانة كم بت أعول على هذه الأمور منذ أن عرفتك، كم أصبحت أكثر تعطشاً لها، كم ازددت نهماً لكل ما قد يثيركِ.

أتعرفين! سألتني مرة: لِمَ أكتب؟

أظن بأني كذبت عليكِ تلك الليلة، قلت لكِ بأني أكتب لأتوازن، لأفرغ بعضاً مما أشعر به، ولم أخبرك وقتذاك بأني أكتب لأبقى جذاباً ساحراً في نظركِ أنتِ، لم أقل لكِ بأنني أفعل هذا حتى الآن لأبهركِ، أنتِ الفتاة التي لا يبهرها رجل لا يكتب!

لست أفهم، لِمَ أنتِ متطلبة بهذا الشكل!، لِمَ لا تحلمين كما تحلم الفتيات بشاب وسيم، غني، متعلم وينحدر من عائلة عريقة ونسب يعتد به، لِمَ تطلبين ما يستصعب على أحد توفيره لكِ؟!

أنتِ لا تفهمين، صدقيني لا تفهمين! لا تفهمين كم من الصعب أن يحافظ عليكِ رجل، لا تفهمين كم من المتعب أن يحاول أحد إبهاركِ طوال الوقت.

تعبت كثيراً يا جمانة، أنهكتني المحاولات المستمرة لأكثر من أربعة أعوام، لا قدرة لي على أن أبقيكِ مشدوهة، فأنا في آخر الأمر لست سوى رجل عادي ذي قدراتٍ طبيعية.

رجل يحاول جاهداً لأن يكون أسطورياً من أجل أن يرضيكِ أنتِ، لكنه لن يقدر على هذا لأنه لم يولد خارقاً بكل أسف.

لو تدرين لكم تحزنني محاولات إثبات تفردي أمامك!، لكم يحزنني خوفي من خسارتك وتعبي من محاولات السعي إليكِ.

أتعرفين ما الفرق بين حزني وحزنكِ يا جمان؟

حزنكِ مترف ومدلل، تنهارين أمام أول بوادر الرفض، فيثور كبرياؤك على جسدكِ وتقعين في غيبوبة حزن من الصعب أن ينتشلكِ أحد منها.

أما أنا فحزني حكاية طويلة، حكاية لا يعرفها غيري ولن يفهمها يوماً أحد، أنا رجل لا ينهار حينما يحزن، رجل يزداد صلابة، يزداد قسوة مع كل وعكة حزن، يزداد خشونة وجفافاً وأنتِ تعرفين بأن مصير كل عود يابس هو الكسر.

ليتكِ تعلمينني كيف أحافظ على ليونتي ومرونتي يا جمانة، أحتاج لأن أكون مثلكِ، أنتِ الشديدة الاخضرار كغصن طريّ نابض وحي.

ليتكِ تعلمينني كيف أضحك مثلكِ من الأعماق، كيف أنهار حينما أحزن، كيف أبكي عندما أحتاج، وكيف أعبر حينما أفتقد ولحظة أخاف وأشتاق.

أتدرين يا جمانة، أحتاج كثيراً لأن أبكي، أكبر حاجاتي في الحياة هي حاجتي إلى البكاء الآن.

قد لا تدركين كم من المؤلم أن تستجدي البكاء فلا تقدرين على ذلك، تخيلي بأني بت لا أقدر على البكاء!

أعرف أيضاً بأنكِ لن تصدقيني إن قلت لكِ بأني على استعداد لأن أقايض أي شيء في سبيل أن أسترد قدرتي على أن أبكي.

أتعبني الجفاف يا جمانة، أنهكني الجفاف، وامرأة ناضجة مثلكِ لن تفهم يوماً معنى أن يعيش الرجل طوال حياته في حالة جفاف!

أنا يائس اليوم، يائس جداً!

ترمقني تلك العلبة القابعة بجواري على المنضدة، ألتفت إليها بين الحين والآخر ورغبة عارمة تدعوني لأن أنهي حياتي بشريط من الدواء.

قلتِ لي يوماً بأنني لن أخسركِ إن تمسكت بكِ، لكني أدرك جيداً بأنني لن أكسبكِ إذا ما تخلى الله عني، صدقيني يا جمان، مهما تمسكت بكِ لن أقدر يوماً على أن أحصل عليكِ إن تخلى الله عنا، فلِمَ لا تقتنعين بهذا؟!

ألستِ المؤمنة، الواثقة بالله والقانعة بأقداره؟!

لِمَ تصرين إذن على أن تقاومي الأقدار؟! لِمَ تصرين على أن تدخلي نفسكِ في هذه المعمعة الألوهية الجبارة؟!

صدقيني ستطحنكِ الأقدار، ستعجنكِ الحياة عجناً، وستدركين يوماً بأنني لطالما كنت على حق.

أعرف بأنني لست في نظرك، «أحياناً» سوى رجل جبار، تظنين بأنني أستمتع بإيذائكِ ولا تدركين كم أخاف عليك وكم أخشى أن يمسكِ أي سوء بسببي ومن دوني.

في كل مرة كنت أبتعد فيها عنكِ، شيء ما في أعماقي كان يصلّي لله، كان يدعوه بشدة، يرجوه بقوّة أن يتدخل ويمنعني من الابتعاد عنكِ.

في كل مرة «أسعى فيها» لأن ننفصل، كنت أنشد يد الله لتعترض طريقي، فلا أتمكن ممّا أسعى إليه.

قلتِ لي مرة وأنتِ تضحكين: فداك عمري اللي قاعد يضيع وسمعتي اللي تشوهت، ترى رأس مالها عمر وسمعة!

قلتها يومها بسخرية، لكنها أوجعتني كثيراً يا جمانة، لأنني أدركت حينئذ أنّ أشد آلامنـا ألماً هي تلك التي نسخر منها، ولقد كانت سخريتكِ من نفسكِ مريرة يوم ذاك حتى شعرت بأنني أكاد أن أتسمم من تلك المرارة المضاعفة!

أتعلمين!

أنا لا أزال غير مدركٍ كيف أحب فتاة تختلف عني في كلّ شيء، فتاة لا يجمعني بها سوى أننا قارئان، وأننا نستمتع بالكِتابة!

اليوم أشعر بأن هراقليطس يرقبنا في حياة أخرى شامتاً، ليؤكد لي بأنه لا يمكن تصور شيء من دون تصور نقيضه، أنا الذي لم أكن أؤمن يوماً بهذا، والذي لم يتصور وجود فتاة مثلك في الحياة.

اليوم، أعترف بأنكِ نقيضي الأبيض، بأنكِ ناصعة إلى درجة وهاجة، بأنكِ مضيئة، مشعة، متوهجة، مشتعلة البياض.

اليوم أعترف بأن بياضكِ حاد، وبأن نقاءكِ خام، وبأنني حالك جداً، بأن أعماقي مظلمة وأنّ قلبي أدهم.

على الرغم من أن الليل والنهار يتداخلان ويتعاقبان، إلا أننا لا نعيشهما

في الوقت ذاته، ولا أدري كيف أعيشكِ وتعيشينني رغم بياضكِ ورغم سوادي، رغم ضوئك ورغم عتمتي.

أنا ممتلئ اليوم بكل شيء، بالخوف، بالغيرة، بالحب، بالشوق، بالضعف الذي يجعلني عنيفاً وقاسياً وجافاً معكِ.

لا أدري لِمَ تبسطين كل شيء يا جمانة، لِمَ تظنين أن الحب بهذه البساطة، ولِمَ ترين أن علاقتنا لن يعكرها شيء!

أنتِ لا تعرفين كم حلم بكِ زياد!، هو أيضاً لا يعرف أنني أعرف!

وجهه الذي امتقع في ثاني لقاءٍ لنا في المقهى حيث التقينا للمرة الأولى، لقد أكد لي أن زميلتنا السعودية في الجامعة التي لطالما حدثني عنها ولأشهر طويلة لم تكن إلا أنتِ!

عندما دلفتِ إلى المقهى بصحبة هيفاء، عرفتِ من ردة فعل زياد ومن بعثرته المفاجأة ومغادرته المقهى بعد دقائق وتوقفه عن الحديث عن الفتاة، أن فتاته التي كان يصبو إليها لم تكن إلا أنتِ، أنتِ التي وقعت بها منذ أن رأتها عيناي أول مرة، لكنني لم أكن لأسمح بأن يأخذكِ مني زياد، لم أكن لأسمح له حتى لو حلم بكِ قبلي!

كل شيء كان مربكاً في ذلك اللقاء، مجيء هيفاء برفقتكِ، خيبة زياد، موت أمله في الوصول إليكِ، بداية مشاعركِ، نهاية مشاعر هيفاء نحوي، وتذبذب مشاعري المتضاربة نحوكم، وعدم معرفتي كيف أنّ الأقدار جمعتني معكم!

عندما رأيتكِ برفقةِ هيفاء ذلك اليوم، جل ما فكرت به في تلك اللحظة هو «أي قدر هذا الذي جعلكِ صديقة لهيفاء؟!».

أخذت ألعن حظي في سرّي، لعنته كثيراً!، ذاك الذي جعلكِ تتركين آلاف الطالبات الخليجيات في كل المدينة لتصادقي هيفاء فقط، بل ولتحضريها «مصادفة» في ثاني لقاء يجمعنا!

هيفاء التي تكاد عيناكِ أن تخرجا من محجريهما من شدة استنكاركِ وأنتِ تصيحين مدافعة عنها دائماً حينما أنتقد أي شيء فيها: «هيفاء!، ياويلك من الله!.. حرام عليك».

أخبركِ أنكِ لا تعرفين شيئاً، فيأتي إصراركِ محذرة: «والله ياويلك من الله!».

فأقف أمام تحذيرك الساذج وقسمكِ البريء مكتوف اليدين، غير قادر على دعم قولي بما أملك من براهين، وغير راغب في استمرار علاقتك بها.

أنا أعرف أن لدى هيفاء ما قد يجتثكِ مني، هيفاء تملك البراهين ذاتها التي تدعم قولي في أنها ليست كما تدعي، البراهين التي تدينني كما تدينها، والتي ستجعلكِ تخسرين كلينا مثلما ستجعلنا نخسركِ!، لكنني أعرف أيضاً أن هيفاء لن تجرؤ يوماً على أن تقول الحقيقة، فإن كانت الحقيقة تشوهني، فالحقيقة تعريها، ولا شيء يفزع هيفاء كعري الحقيقة!

سألتك مرة: لماذا تحلفين أنها طيبة؟!

- لأنها طيبة!

- لا أسألكِ إن كانت طيبة، أسألكِ لِمَ دائماً تحلفين؟

قلتِ ببساطة: من يحلف بالله لا بد من أنه يقول الحقيقة.

ولم أجادلكِ في هذا، ابتسمت وأنا أفكر كم أنتِ بسيطة وصادقة وحقيقية!

نقاؤكِ هذا هو ما يجلدني في كل مرة تمسكين بها بطرف حقيقة، فأنهرك

ناكراً، لتقتلني عيناكِ الدامعتان وأنت تتمسكين بأمل الصدق راجية إياي البوح به قائلة: أحلف طيب أنك لا تكذب!

لأنجو من عهري حالفاً: والله!

فتستجدينني لأكرر: أحلف حلفاً كاملاً، قلْ والله العظيم إنك لا تكذب.

فأجيب كذباً: والله العظيم!

فتهدأ نفسك، وتجن نفسي، فما أبشع أن تكذب على صادق!

*****

لم أكن أعلم أن الثقة هي أجمل ما في الحب.

الثقة التي تجعلنا ننام كل ليلة ونحن ندرك أن الحب سيظل يجمعنا، أننا سنستيقظ في الغد لنجد الطرف الآخر عاشقاً لنا وغارقاً بنا، مثلما نام وهو عاشق غارق.

أجمل ما في الحب هي تلك الثقة في أننا سنكبر معاً، سنفرح معاً، نبكي معاً، نمرض معاً، ونظل أوفياء لبعضنا بعضاً حتى لو اختطف الموت أحدنا.

قلت لكِ يوماً: سأوصيكِ شيئاً.

- أخبرني.

- لو مت قبلك!، فرضاً مت، لا تتزوجي من بعدي.

قلتِ بسخرية مريرة: يعني لا أتزوجك ولا أتزوج من بعدك، لا ترحم ولا تخلّي رحمة ربنا تنزل؟!

شعرت بالمرارة، فأشحت بوجهي بعيداً ولم أرد، أما أنتِ، فقد بدأ الندم ظاهراً على ملامحك، فأخذتِ ترسمين بإصبعكِ على ظهر يدي مداعبة، قلتِ بعد صمت: حسناً أنا موافقة، ماذا أيضاً؟!

قلت: هناك أمر آخر، لو مت هنا، لا تسمحي بأن أدفن وحيداً، أعيديني إلى الوطن، ادفنيني حيث أكون قريباً من والديّ!

لمع الدمع في عينيكِ تأثراً: أعدك بذلك، هل لي أن أوصيك أيضاً بأمر تفعله إذا متُّ؟

قلتَ بسخرية: أنتِ موتي بس وفكيني وأبشري بالخير!

ضربتِ يدي بيدك: بسم الله عليّ، المهم بوصيك!

أشرت بإصبعي الصغير في وجهك: أشيري بإصبعكِ فقط.

- لدي طلب واحد، لو مت أنا، أريدك أن تكون سعيداً، لا تحزن أرجوك!

شعرت حينئذ بالغصة تتكور في حلقي، غضبت جداً، غضبت لأن الله جعل في حياتي فتاة تعذبني طيبتها، فتاة مفرطة الرقة لدرجة تصهر المشاعر وتخنقها، فتاة أدرك تماماً أنها تحبني لدرجة لا أستحقها.

شعرت حينئذ بالرغبة في أن أدخلكِ داخل قميصي، أخبئكِ تحته، أن أحتضنكِ حتى تلامسين عظامي، وتمتزجين مع أوردتي، شعرت أنني أريدك كثيراً، لا رغبة بكِ، بل حاجة إليكِ.

شعرت بالحب والخوف والحزن، والعجز أمامكِ، قلت لك بصوتٍ مختنق: لا قدرة لي على أن أعدكِ بهذا!

ابتسمتِ بدلال من يعرف الإجابة: لماذا؟

- لأنني لن أسعد بدونك يوماً.

- هل ستتزوج غيري؟

- أظن بأنني سأفعل!

عقدتِ حاجبيكِ مستنكرة: أتمزح؟

- لا، ألن تتزوجي غيري لو مت؟

- لا طبعاً لن أتزوج، أرأيت الفرق بيننا؟، أنت من اعترف توّاً بأنه سيتزوج لو فارقت الحياة!

قلت مازحاً: إذا متِ إن شاء الله، يحلها الحلال!

ضربتِ يدي مرة أخرى، وقضينا يومنا بأكمله وأنتِ تدعين الله بلسان لاهج أن لا تموتي حتى لا أتزوج من أخرى!

كنت أرقب غضبكِ مبتسماً وأنا أفكر، ألم يخطر ببالكِ أنني من دونكِ قد أموت فعلاً؟!

*****

علاقتي بهيفاء لم تكن علاقة حب ولا حتى تشبه علاقات الحب.

عرفت هيفاء قبل مجيئكِ بسنة، كانت قد جاءت توّاً من الكويت، لكنها لم تكن كأي طالبة خليجية مستجدة، لم تكن خجولة ولا ضعيفة ولا حتى متوجسة من زملائها الذكور من الخليجيين، رغم أن العادة جرت على أن الزميلات يجئن بعقليات متشربة بالحذر من زملائهن الذكور، وبنصائح وتوصيات تلح على ضرورة الابتعاد عنهم قدر الإمكان، وبعد فترة بسيطة، وبعد أن يندمجن بالمجتمع الجديد، نجد أنهن قد أصبحن أقلّ حذراً، فيخرجن من حالة التوجس تلك، لكن هيفاء لم تعش تلك الحالة قطعاً.

عندما دلفت هيفاء إلى مجتمع الطلبة الخليجيين، دلفت بضجيج صاخب وبعنفوان وقوة لا قدرة لأحد على إنكارهما؛ كانت صارمة، تأخذ كل ما تريده من دون مراعاة لأي أحد، لم تكن تخنع لأحد، ولم تكن تضعف أمام شيء، كانت ملحة، عنيفة الأفعال، حادة المزاج وسليطة اللسان.

لذا كان يخشاها الجميع، ويتنازلون عن كل ما ترغب به لها طواعية خوفاً

من أن يدخلوا معها في جدال، لكنني لم أكن مثلهم، كنت أعاندها في كل شيء، أجادلها في كل قرار، وأتحداها في كل ما ترغب الحصول عليه، ربما لأن قوتها وعنادها كانا يستفزانني أو ربما لأن سلاطة لسانها كانت تروق لي!

لا أعرف حقيقة بماذا شعرت وقتذاك، وكيف شعرت به، لكنني أعرف أنني أردت أن أخضعها لي وقتذاك، أن أجذب انتباهها إلي، أن أوقعها بي لأن شيئاً ما لم أفهمه كان يشدني إليها.

شيئاً فشيئاً وجدتها تتخذ السياسة ذاتها تجاهي، كانت تفعل معي الأمر عينه، وقد كان من حولنا يسخرون من كراهيتنا العلانية لبعضنا بعضاً.

لم يفهم أحد سواي وإياها أنها كانت طريقتنا الخاصة لتأجيج رغباتِ بعضنا تجاه بعض، كنت أعرف أن هيفاء قد وقعت بي، وكنت أدرك تمام الإدراك أنها باتت تعرف أنني أريدها، ولم يكن يقف بيننا سوى عنادي وكبريائها، وخطوة أولى تنتظر أن يقدم أحدٌ منا عليها.

اتصلت بها في إحدى نهايات الأسبوع لأبلغها بعقد نشاط اجتماعي خليجي في الغد، كان الاجتماع ملحاً ومبكراً للتنسيق لإحدى الفعاليات، فعرضت عليها مجازفاً أن أعرج عليها لأقلّها في الصباح، فوافقت على مضض، وأملتني العنوان متفقين على الساعة التاسعة والنصف، لكنني وقفت أمام عمارتها في التاسعة صباحاً، فأجابتني على الهاتف بأنها انتهت توّاً من الاستحمام، وبحاجتها لبعض الوقت لتنتهي من استعداداتها، قلت لها: لا بأس، خذي وقتك!

طلبت مني أن أصعد لتناول القهوة بينما تنتهي من الاستعداد، عجبت لجرأتها وصعدت بقلب يرتعش وأنا أعرف أن خروجي من هناك لن يكون كخروجي منه لاحقاً.

عندما فتحت لي الباب، باب الشقة عينها التي تسكنينها الآن، كانت ترتدي منامة طويلة، ولم تكن تضع أية زينة، كان شعرها مبللاً فقط، وملامحها في غاية البساطة، كنت أنظر إليها لأول مرة بلا مساحيق تجميل، لكنها رغم ذلك كانت في أجمل حالاتها، ولا أدري حتى الآن إن كانت فعلاً جميلة أم أن الشيطان قد زينها لي وقتذاك!

قلت لها: ليه تحطين مكياج؟! كذا أحلى.

أغلقت الباب خلفي مرتبكة: تدري شكثر أحب «كذا» مالت السعوديين؟ مع أني كلش ما أحب حجيهم.

أجبتها وأنا أجلس: يعني ما يعجبك بالسعوديين إلا «كذا»؟

قالت وهي تضع القهوة أمامي: همّ أحب «مرة» و«كمان».

قلت لها مبتسماً: طيب أنتِ مرة حلوة بدون مكياج.

ابتسمت: مشكور.

– وشكلك مثير كمان!

– أحمر وجهها قائلة لتداري ارتباكها: يعني عشان قلت لك أحب مرة وكمان قاعد تقولهم؟!

مددت يدي واحتضنت يدها، سحبتها كالمقروصة، وقفزت واقفة وهي تصرخ: جنيت أنت؟

قلت لها: شفيك هيفاء؟ وش صار؟

أشارت بإصبعها إلى الباب وهي تصرخ: قدامي، أطلع برّا.

قلت لها واقفاً: أهدي شوي، ما صار شيء.

صاحت: كل هذا وما صار؟! أطلع قدامي قبل أن أطلب لك الشرطة الحين.

قلت لها: وليش تطلبين لي الشرطة؟ أنتِ اللي مناديتني بيتك.

- صرت الحين اللي مناديتك بيتي؟

- تبين تنكرين بعد؟ وإلا بتسوين فيها محترمة؟

- محترمة غصباً عنك.

- لو محترمة ما قلتِ لي أطلع شقتي وأنتِ بنية لحالك.

مسكت هيفاء كوب القهوة وصاحت: بتطلع قدامي وإلا أحرقك بالقهوة؟

وضعت إصبعي على فمي وقلت لها: خلاص أسكتي، ولا كلمة أنا طالع.

خرجت من عندها ولم أبادلها بعد ذلك كلمة واحدة، ظننت أنني سأموت قبل أن أحدثها.. حتى جئتِ!

*****

سافرت إلى كندا قبل إقرار برامج الابتعاث، والدي هو من تكفل بمصاريف دراستي لعدة سنوات قبل أن تبتعث الدولة طلابها إلى أنحاء العالم، وتضمني إلى كنفها بعد ذلك.

أن تبتعث على حساب والدك يختلف تماماً عن أن تبتعث على حساب الدولة؛ فالفشل على حساب الدولة لن يكلفك غضب العائلة ولا لومها، بينما فشلك الذي يكلف والدك مئات الآلاف سيبقى كوشم في جبينك لا يمحى، ولن يغفره لك أحد من العائلة.

لذا، وعلى الرغم من أن راتب الابتعاث لم يكن يعادل نصف المصروف الذي كان يرسله إلي والدي شهرياً، إلا أن الضائقة المادية التي كنت أعانيها في

نهاية كل شهر كانت أرقّ وأحبّ إلي بكثير من «منة» الرغد الذي كنت أعيشه أثناء تكفّل والدي بمصاريفي.

شعرت أن إلحاقي ببعثة الدولة قد هطل عليَّ من السماء وأحياني، فتغيرت ملامح الغربة في عيني، وتلونت بعد فترة رمادية شاحبة وطويلة.

الغربة لا تفسير لها ولا هي حالة محددة، في الغربة نرتفع كثيراً بفعل الحرية والانعتاق من كل القيود التي تربطنا بالمجتمع والعائلة والوطن، وفي الغربة نسقط كثيراً بفعل الشوق والحنين والحاجة للذين يحبوننا ويخافون علينا.

عندما جئت إلى هنا، قررت أن لا أعود إلى الرياض إلا زائراً، لذا كان الزواج من فتاة كندية أمراً لا بد منه بعد تخرجي، وهذا ما قررته حينما تعرفت على ياسمين التي كانت تكبرني بستِ سنوات كاملة!

كانت ياسمين خطتي المثالية للحصول على الجنسية والبقاء في الغربة اختياراً، لكنّ خطتي تبعثرت، وتشتتت رغباتي حينما التقيتكِ أنتِ يا جمانة.

اختلت موازين المصالح ومكاييل الحب حينما التقيتكِ، لكنني، وعلى الرغم من شغفي بكِ لم أقطع علاقتي بياسمين، كانت علاقتنا متقطعة، أغيب عنها في أيام رضاكِ وأهرع إليها عندما تغضبين مني أو تغضبينني منك، وهي لم تكن تمانع في ذلك، على العكس تماماً، ناسبت علاقتنا المزاجية ياسمين وتعايشت معها.

كانت تسألني أحياناً بسخرية إن كانت هناك من تشغلني عنها، كنت أجيبها بأن الكثيرات يشغلنني عنها، وعلى الرغم من أن ظاهر كلامي كان مداعباً لها، إلا أنها كانت تدرك في قرارة نفسها بأن في حياتي امرأة أخرى، لكنها لم تكن تكترث لأمر كهذا، ربما لأن في حياتها غيري أيضاً، وربما لأنها لم تحبني

أساساً، لذا اتفقنا من دون أن نصرّح على أن لا نزعج بعضنا بالخوض في تفاصيل سخيفة كهذه، وهكذا عشت معكِ ومعها لأربع سنواتٍ متتالية من دون أن تعرفي وبدون أن تعارض!

*****

حسناً..

أعترف بأنني لست بقادر على أن أحب ذلك الوطن، الوطن الذي بات بعيداً جداً، ليس بعيداً بالمسافة فقط بل عن قلبي أيضاً.

كانت فرصة إكمال تعليمي بعيداً عنه، ليست مجرد فرصة للحصول على تعليم أفضل، بل كانت تعني أن أتحرر من كل قيوده التي لطالما كبلت عنقي قبل معصمي وقدمي.

أفكر أحياناً، لِمَ أكره ذلك الوطن، بل أفكر لِمَ تحبينه أنتِ؟! ومن أين لكِ كل هذه القدرة على أن تحبيه بكل هذا الصدق؟!

غالباً الفتيات هنَّ أكثر من يكره بلادنا، ففيه يحرم عليهن كل شيء، ويمنع عنهن فيه أي شيء، لكنكِ تحبينه ببساطة وسذاجة وتسامح لا يفهم!

قلت لكِ مرة: أشعر أحياناً، وكأنكِ كنتِ تعيشين في وطن غير الذي كنا نعيش فيه!

قلتِ: بل هو الوطن ذاته، لكنني أراه من الزاوية الأخرى.

سألتكِ: كيف تحبينه؟!

- ولِمَ لا أفعل؟!

- لأنه قاس!

- ألا يقسو عليك أبوك أحياناً؟!

ابتسمت بسخرية: أحياناً؟!

ضحكتِ: وعلى الرغم من ذلك تحبه كثيراً.

ابتسمتُ فاسترسلتِ: إن كنت لا تعترف ببنوتك له، لِمَ تقبل أن يتكفّل بمصاريف تعليمك ومعيشتك هنا آلاف الدولارات سنوياً؟!

- هو حقي!

- لا حق لك على أب الآخرين!، قبولك لأمواله تعني قبولك لأبوته عليك، فلا تكن عاقاً ولا جاحداً.

قلت: أتدرين!.. لدي إحساس قوي جداً.

عقدتِ حاجبيك باهتمام: تحس بأيش؟

- أحس أنك دبوسة وجاسوسة!

ضحكتِ فضحكت روحي معكِ!

*****

كنت في طريقي إلى مونتريال، إلحاح ياسمين ومشاكلي معكِ في الفترة الأخيرة أغرتني بالذهاب إليها.

كنت بحاجة لأن أستريح من ضوضاء غيرتك وضجيج شكوك، لذا حجزت إلى مونتريال في إجازة عيد الفصح، كنت غاضبة جداً، تراقبينني وأنا أعد حقيبة سفري الصغيرة بوجه محتقن استطعتُ أن أتجاهله عمداً.

مددت لي بظرف مغلق بعدما انتهيت من إعداد الحقيبة، قلتِ: ضعها في حقيبتك، أقرأها في الطائرة!

أمسكت بالظرف: ماهذا؟!، منشور توعوي عن الأيدز؟

- ماذا!؟

- من عادة السيدات السعوديات، عندما يسافر أزواجهنّ أن يضعن في حقائبهم كتيّباً عن الإيدز، أو يرسلن إليهم رسالة من إيميل مجهول على بريدهم، يعني عشان لو فكر أحدهم!

ضربتِ كتفي بهاتفك المحمول: سخيف! فلتقرأه بالطائرة!

أخذته منكِ مبتسماً، وأنا أفكر متى ستتخلصين من عادة الرسائل!

تحبين الرسائل كثيراً، تدسين لي الرسائل دائماً في كل مكان، في سيارتي، في معاطفي، في كتبي وفي أرجاء بيتي، تكتبينها بلهفة مراهقة، وحنان أم، وخوف زوجة.

تضحكني بساطة رسائلك أحياناً، لكنها على الرغم من سذاجتها تمس قلبي بمشاعركِ البتول، تعذبني أحياناً، تشعرني بمدى وضاعتي وبمقدار قسوتي عليكِ.

أشعر أحياناً وكأن الله يعاقبني ببراءتك، وكأنه يعذبني بكِ، أنتِ التي أخاف عليها مني وأخاف على نفسي منها، أنتِ مأزقي الكبير، الذي لا أدري كيف وقعت فيه ولماذا!

أحبكِ، لكنني لا أقدر على أن أكون نفسي معكِ، أنتِ تحبين صورتي التي لا تشبهني والتي لا يراها أحد غيركِ، صورتي التي لا توجد إلا في عينيكِ أنتِ فقط، الصورة التي خلقتها أنتِ، والتي جاهدت كثيراً لأشبهها ولأتلبسها ولأكونها فقط لأرضيكِ، لكنني لم أتمكن من الصمود، حاولت كثيراً أن أصمد لكنني انهرت كثيراً أيضاً، حاولت استجماع قواي وبقايا صورتي التي تحبينها لكنني لم أقدر على أن أفعل ذلك أكثر مما فعلت.

لطالما آمنت يا جمانة، أن علاقة الحب التي تتطلب منا أن نتغير هي علاقة مستحيلة، متهالكة، خائرة القوى، لا قدرة لها على الصمود كثيراً.

كنت مؤمناً بأن العلاقة التي تتطلب مني أن أكون شخصاً آخر هي علاقة لا تستحق الخوض فيها ولا حتى المحاولة، لكنني وعلى الرغم من كل ماكنت أؤمن به، حاولت كثيراً أن أستنسخ الصورة التي تحبينها، وأن أرتدي قناعها فقط لأرى ذلك الشغف في عينيكِ حينما تنظرين إلي!

أريد أن أكون كما ترغبين يا جمانة، ليتني كنت مثلما تحلمين، لكنني لست هكذا، ومع ذلك أحببتني فلِمَ تمارسين ضغوطكِ عليَّ بتحويلي إلى شخص لا يشبهني ولا أعرفه!

إلهي! لكم أكرهكِ عندما تفعلين بي ذلك!

أتعرفين ما الذي أحبه في ياسمين؟!

مع ياسمين أكون على سجيتي، أمارس ذنوبي وأخطائي ومعاصيّ كلها، ياسمين تحب عيوبي، ربما لا تعنيها عيوبي ولا تكترث لها، وهي لا تنتظر مني خلقاً رفيعاً ولا صلاحاً، تقبلني كما أنا، بل تحبني لمساوئي هذه! مساوئي التي تكرهينها وتجلدينني بها.

لكنني وعلى الرغم من كل هذا، وعلى الرغم من أن ياسمين تمنحني فعلياً كل شيء بلا مقابل، معها لا أشعر بما أشعره معك، أنتِ التي أشعر معها بما لم أشعر به مع أحد على الرغم من الحرمان الذي تمارسينه عليَّ.

فتحت الظرف الذي أعطيتني إياه في المطار وليس في الطائرة، كنت قد كتبتِ لي بحثاً كان يُفترض أن أسلمه إلى الجامعة بعد انتهاء الإجازة.

مسستِ قلبي برقتك، أنبني ضميري وكدت أن أعود أدراجي، كنت أنظر إلى شاشة الإعلان عن الرحلات وشيء يصرخ في داخلي مطالباً إياي بالعودة، ترددت كثيراً لكنني دست على ضميري وركبت الطائرة بضمير متوعك.

لم أهاتفكِ عند الوصول، أرسلت لكِ رسالة هاتفية، وأجبتني في صباح

اليوم التالي، قرأت رسالتكِ بينما كنت أفطر مع ياسمين في يومي الأول معها، كتبتِ لي: «صباح الخير، حمداً لله على سلامة وصولك، أظن بأنك نائمٌ، حلمت بك ليلة أمس، كنت تعصر قلباً بيدك، كان الدم يقطر من بين أصابعك، وكانت عيناك تدمع ألماً، شعرت بالحلم وكأنك تعصر قلبي!، استيقظت فزعاً، كان كابوساً مخيفاً، مخيفاً جداً!، طمئني عليك حالما تستيقظ».

أعدت قراءة رسالتك مراراً، كنت أقرأ حروفكِ حرفاً حرفاً وكلي دهشة من إحساسك بي، إحساسك بي يخيفني كثيراً! تشعرين بي بطريقة لا تعقل، وهذا يرعبني، يرعبني جداً!

سألتني ياسمين: what's wrong baby ?

قلت: لا شيء!

قالت غامزة: أشتقتلا؟

قلت مداعباً: هيك شيء!

ضحكت: دخيلك يا دون خوان!

ابتسمت: دخيلك يا دونا جاسمن!

– طيب كازنوفا السعودي!، أنا ظاهرة لشغلي.. تلفن لرفيقتك طمنّا!

– لما ترجعي صحيني!

قبلتني: أكيد بيبي أكيد، سلم ع رفيقتك هه!

– I will!

عندما خرجت ياسمين، شعرت بالمرارة جداً، وبأن معدتي تضطرب، ليس لأن تلميحات ياسمين عنكِ لم تكن لائقة فحسب، ولا لأنها كانت في غاية الاستخفاف بكِ، بل لأنني شاركت بالحديث عنكِ بهذه الطريقة، أشعر أن وجودي مع ياسمين ومعاشرتي لها لا تعد خيانة لكِ بقدر ما يعد قبولي بالحديث عنكِ بهذه الطريقة التي تحدثنا أنا وياسمين عنكِ بها.

تلك المحادثة السريعة والجمل غير المباشرة بيني وبينها لم تعكر عليَّ مزاجي فحسب، بل عكّرت عليَّ يومي بأكمله، شعرت بمعدتي تتقلص وبالمرارة تتدفق منها.

هكذا أنا عندما يؤنبني ضميري، تثور معدتي وتضطرب، لذا أعتقد أحياناً بأن الضمير عضوياً هو المعدة، بينما تؤمنين أنتِ أن الأحاسيس السلبية حينما تترجم عضوياً يترجمها القولون.

لهذا أخبركِ حينما تؤلمني معدتي بأن ضميري «يعورني»، وتخبرينني أنتِ حينما تكونين منزعجة بأنكِ «متقولنة!».

كانت تلك هي لغتنا التي لا يفهمها أحد غيرنا، لغتنا التي تتضمن عشرات الكلمات التي ابتكرناها وتشاركنا بها وأحببناها، والتي لا يشاركنا بها أحد في هذا العالم.

لم يكن لائقاً أن أقبل بأن تتحدث عنكِ ياسمين بتلك الطريقة، سيء أنا لأنني قبلت بأن تسخر منكِ من دون أي ذنب!

شعرت بضميري يئن، لذا اتصلت بكِ باكراً، أجبتني سريعاً، قلت مازحاً: متى تتركين عنك الرجّة؟

- أي رجة؟!

- أعطي التليفون فرصة يستوعب موع طول تردين، أثقلي شوي يا بنت!

قلتِ بسخرية: شسوي! خفت تهوّن!

ضحكت من أعماقي من بساطة ردك، لا أحد يرد عليّ مثلما تردين أنتِ، تجيبينني ببساطة من دون أن تفكري بالإجابة، وعلى الرغم من ذلك تجيبين عليّ دائماً بطريقة تضحكني.

يومها، قصصتِ عليَّ حلمك، كنتِ تروين الحلم بحماس وكأنه حكاية.

- «كنت لابس جينز وقميصاً أسود، قميصك اللي لبسته لما رحنا المكتبة الأسبوع اللي فات، عرفته؟!، وبعدين ناظرتك كان بيدك شيء وفيه دم ينزف من بين أصابعك، ركزت بيدك وطلع اللي بيدك قلب، قلب إنسان يعني».

كنت أنصت لحماسك على الطرف الآخر مبتسماً، وأنا أردد: وبعدين؟!، أيوه؟!، وبعدين؟!

قلتِ بعدما أنهيتِ سرد قصة الحلم على مسمعي: مرة كان يخوف!

قلت بسخرية: والله يخوف مرة!

- ع طاري مرة، تدري هيفاء تقول أنتم السعوديين مو حلو بكلامكم إلا «كذا ومرة»؟!

شعرت حينها بمعدتي تزداد اضطراباً وبأنين ضميري يعلو، قلت لكِ: أتعرفين ما الذي يطلق على التنقل من موضوع إلى آخر من دون مناسبة؟!

- ماذا؟!

- فسططة!

- لاقيني أنت؟!

- أنتِ لاقيتني؟!

تقولين لي دوماً عندما «أؤلف» لكِ معلومة «لاقيني أنت»؟! وأقول لكِ حينما تفعلين «لاقيتني أنتِ»؟!.. وهي إحدى الخصال المشتركة «القليلة»، بيننا بعد سنوات من التأليف المشترك، دائماً ما تسندين قناعاتك إلى الأساطير، ودائماً ما أسند قناعاتي إلى الدراسات الحديثة، والحق أننا ندعم قناعاتنا بالأساطير والدراسات الحديثة التي لم توجد إلا في عقولنا نحن.

قلتِ لي ذات يوم: قرأت مرة عن أسطورة تتعلق بطول الرجل، يقال إنه كلما كان الرجل طويلاً قل وفاؤه.

قلت: على العكس، أثبتت الدراسات الحديثة أن الرجل الطويل أوفى بكثير من الرجل القصير.

وظللنا نناقش الفكرة قرابة الساعة، قلت في نهاية الجدال وأنتِ ترفعين كوبك إلى فمكِ: ربما ما تقوله صحيحاً، بصراحة الأسطورة من تأليفي!

- بصراحة، كل الدراسات الحديثة هي دراساتي الخاصة!

قلتِ ضاحكة: بصراحة! كل الأساطير التي أحدثك عنها هي أساطيري الخاصة أيضاً.

ضحكنا كثيراً لانكشاف مصادرنا، لكننا وعلى الرغم من ذلك تابعنا دعم أحاديثنا بمصادرنا الخاصة التي تطلقين عليها أنتِ «أساطير» وأطلق عليها أنا «الدراسات الحديثة».

لا أحد يملك مصادركِ في البحث يا جمانة، ولا أحد يعرف ويفهم مصادري سواكِ، فلِمَ أجازف فيكِ؟!

صدقيني لا أعرف!

*****

أدرك مدى صلابتي وكم أشبه الخيل الحرون، أعرف كم تمقتين قسوتي، عنادي، جموحي وحدتي، كم تحبينني وكم تكرهينني، وإلى أي مدى أنتِ عالقة معي، لكنني عالق معك أيضاً ومتورط بك جداً، متورط أنا بهذه العلاقة، العلاقة التي أشبه ما تكون بمخاض متعسر، طويل بطيء ومؤلم.

أنا مضجر بخذلانك يا جمانة، لكنني مؤمن بكِ إيماناً تاماً، قاطعاً ومطلقاً على الرغم من براغماتيتي، ومع أنني لا أؤمن إيماناً جازماً بأي شيء في هذه الحياة.

أتصدقين بأنني لم أفكر يوماً بتكوين عائلة قبل لقائك؟!

لم تكن تغريني مؤسسة الزواج ولا فكرة العائلة، لم أشعر يوماً بأنني من هذا النوع من الرجال الذين يعتبرون الزواج محطة الاستقرار التي لا بد من أن نصل إليها في نهاية مطاف الحرية والعبث.

كنت أعتقد دوماً بأنني سأظل طليقاً خارج القفص، وبأنني لن أقايض حريتي مقابل أي امرأة، لكنكِ حينما جئتِ تزعزعت قناعاتي واختلت، أردتك وأردت الاستقرار معكِ في علاقة أبدية، لكنني أردت حياتي التي أعيشها الآن، لذا كنت مشتت الأفكار، متناقض الرغبات ومضطرب المشاعر.

أتذكر أول مرة ألمحت لك فيها بأنني أريدك يوماً ما كرفيقة درب وحبيبة وزوجة، كنتِ قد عدتِ توّاً من إجازتك الصيفية التي قضيتها في الرياض، وكان قد مضى على تعارفنا ثمانية أشهر سريعة، شغوفة ولذيذة.

دعوتك لتناول كوب من القهوة، قلت لك ونحن في الانتظار: تو مانور المكان يا أم صالح!

توقعت أن تسأليني لما كنيتك بأم صالح أو أن تستغرقي وقتاً لاستنتاج مقصدي، لكنك كنت سريعة البديهة، أحمر وجهك، وأخذتِ تتشاغلين بكوب قهوتك وتحركينه على الطاولة، قلتِ من دون أن تنظري في وجهي: «يعني لازم نسمّي على أبوك»؟.

ابتسمتُ، لأنني أحببت سرعة استيعابك، أحببتُ موضوع حوارنا، وأحببتُ أنك أجبتِ من دون أي استغباء أو تجاهل كما يحصل من الفتيات دوماً.

أجبتكِ مبتسماً: وش تبينا نسمي أجل؟

- يلا مو مشكلة، صالح صالح!.. يستاهل عمي.

قلتها وابتسمتِ، كانت ابتسامتك مشمسة، ربيعية وملونة، وكان ذلك الحوار بمنزلة دبلتين من نور طوّقنا بهما أصابعنا دليلاً على ارتباطنا معاً، يومها

انكسر غموض علاقتنا، تحددت ملامحها، وارتاحت علاقتنا أكثر مما كنت عليه من قبل.

أظن أن المصير المبهم للعلاقات العاطفية وضبابية مقاصدها يفصلان بين الشرقيين من العشاق بحاجز ثلجي، لذا أصبحت علاقتنا أكثر دفئاً واسترخت مخاوفنا.

لا أعرف حقيقة لماذا ألمحت لكِ بالزواج بتلك الطريقة، لا أدري لماذا لم أستعن بطرق أكثر رومانسية، الحق أنني لم أخطط لمفاتحتكِ بالموضوع، لذا انساب تلميحي بتلك البساطة ذلك اليوم.

الغريب أنني عرفت فيما بعد من أصدقائي المتزوجين زيجات حب أن معظمهم قد تطرقوا لمواضيع الزواج والارتباط بأساليب متشابهة، نحن نستعين بأطفال لم يأتوا بعد لنعبّر عن مشاعرنا لحبيباتنا اللاتي نحلم بأن يصبحن يوماً زوجات لنا وأمهات لأطفالنا!

أعتقد بأننا لا نرغب بالزواج إلا من فتيات نحب أن نتخيل أشكال أطفالنا منهن، نتوق لأن ننجب منهن ونتشارك معهن متعة الأطفال.

أتدرين يا جمان!، لطالما تخيلت ابنتي منكِ، لطالما حلمت بأن نحظى بابنة يوماً ما، طفلة جميلة تحمل ملامحكِ الناعمة، وترث روعة حاجبيك الرفيعين، أنفك المستقيم، شعرك الطويل المجعد، بشرتكِ السمراء وغمازتك اليتيمة.

لكم أردتُ جمانةً صغيرةً! ولكم حلمت بأن يحمل أطفالك اسمي، ولا أدري حتى الآن إن كان الله سيمنحني ذلك أم أن أحلامي ستبددها الحياة وهي تبتسم شامتة.

لكم أخاف أن تفعل!

*****

لطالما آمنت أن الأمهات أوطان صغيرة، ففي كل أم وطن نسكنه، نحبه، نفخر به، امرأة وطن ولاؤنا لها وانتماؤنا إليها، وقد كانت أمي وطني الذي أتفرع منه يا جمانة، كانت وطني ولم يكن لي يوماً وطنٌ سواها.

أتدرين، لطالما كنت أقدس الأمهات، كنت مؤمناً أننا ندعى يوم القيامة بأسماءِ أمهاتنا، وبأن الجنة تحت أقدام الأمهات، ولم أعرف إلا بعدما كبرت أن كلا الحديثين ضعيفان، وبأننا لا ندعى إلا بأسمائنا وأسماء آبائنا يوم القيامة، عرفت الحقيقتين بعدما تلبستني الفكرة، وبعدما آمنت بها واقتنعت بحقيقتها لسنواتٍ طوال.

الحقيقة أن الجنة ليست تحت أقدام أمي، وأنني لن أدعى يوم القيامة باسمها، لكنني وعلى الرغم من ذلك أعرف أنني لن أدخل الجنة من دون رضاها، وأعرف أنني أفخر باسمها كثيراً حتى لو لم أُدعَ به يومذاك.

لطالما أحببت اسم أمي يا جمانة، على الرغم من أنه ليس اسماً ناعماً أو استثنائياً إلا أنني لطالما أحببته ولطالما شعرت بسلطته عليّ.

أظن بأن الرجال يحبون أمهاتهم أكثر بكثير مما يفعلن النساء، ربما لا يستطيع الرجل التعبير عن مشاعره لأمه مثلما تفعل المرأة، لكن الحياة تصبح أصعب بكثير حينما يفقد الرجل أمه، قرأت مقولة مرة تقول «إنّ الرجل يظل طفلاً حتى تموت أمه فإن ماتت شاخ فجأة»، مؤمن أنا بهذه المقولة لكنني مؤمن أيضاً بأن موتها قد يكون مجازياً، فقد يكون غضب الأم أحياناً موتاً بالنسبة إلى ابنها.

عندما غضبت عليَّ أمي من أجلك، شعرت أنها ماتت، وشعرت بأنني شخت كثيراً يا جمان على الرغم من أن خصامها لم يستمر إلا لأيام، إلا أنني لم أقدر على أن أراها تبتعد عني لتموت حية، ولأصبح يتيماً وأمي على قيد الحياة.

على الرغم من أنني أعرف جيداً أن مقاطعة الأم لابنها، بسبب اختياره لامرأة أحبها، هي محاولة ابتزاز عاطفية، وعلى الرغم من رفضي لابتزاز المشاعر إلا أنني لم أقدر على أن أقاوم ابتزازها لي، لم أقدر إلا على مجاراتها فيما ترغب به، وتسعى إليه على الرغم من إدراكي لرغباتها ومساعيها.

عندما حسمت موضوع ارتباطنا في داخل نفسي، كان والدي أول من فاتحته بذلك.

أدرك أنه من الغريب أن يكون والدي أول من أحدثه عن مشروع زواجنا، والدي الذي تفصلني عنه علاقتنا المتذبذبة وآلاف المشاعر المتناقضة، لكنني كنت واثقاً من أنه سيتعاطى مع مشروعنا بعقلانية الرجال.

غالباً ما يتعاطى الآباء مع زيجات أبنائهم الذكور بكثير من العقلانية، التفهم والمرونة، بعكس ما يفعل الأمهات اللاتي يقفن كثيراً عند زواج أبنائهنّ ويتغاضين كثيراً عند زواج بناتهن.

لم تكن لدى والدي أية تحفظات على علاقتنا أو زواجنا، تقبّل فكرة الحب التي تجمعنا أو فلنقل تغاضى عنها عن طيب خاطر مرحباً بنسب عائلتك وبسمعة والدك.

باختصار، بارك والدي زواجنا من خلال مكالمة عمرها ثلاث وثلاثون دقيقة!

تنبأ والدي برفض والدتي لكِ مثلما تنبأت أنا، لكنه لم يصرح بذلك مباشرة مثلما لم أفعل، لكنه أمرني قبل أن أنهي المكالمة أن لا أخبر أمي عن طبيعة علاقتنا قائلاً:

– إذا سألتك الوالدة من وين تعرف البنت، قلها زميلتي بالجامعة وأشوفها من بعيد، أعجبتني أخلاقها وكلن يمدحها.

قلت ممتناً: أبشر.

- أصحك تدري أنك تحبها وتحبك!

- سم.

- أبداً!، تشوفها من بعيد وكلن يمدحها، وسمعتها طيبة وبنت ناس واستخرت وقضينا.

- إن شاء الله، أبشر.

- إحرص ياعبد العزيز، تخبر أمك!

قلت متفهماً: أيه أيه، أخبرها.

- الله يكتب لك اللي فيه الخير، إن كانت من نصيبك بتأخذها وإن ما كانت الله يسهل لك مع اللي أخير منها.

كدت أن أخبر والدي متيقناً أن لا أحد أفضل منكِ، لكنني خشيت أن أخسر تأييده لي باندفاعي لك وإن كان اندفاعي مبرراً!

كان يُفترض أن أهاتف والدتي بعدما بارك والدي زواجنا، لكنني لم أفعل، كان صوت والدي وهو يحذرني «تعرف أمك» يتردد في أذني، كان هناك خوف خفيّ في داخل نفسي، كنت أخشى أن تجادلني فيكِ، أن ترفضكِ، أن تتحفظ عليك، أن تشكك في رغبتي بكِ، كنت أخشى أن تمسك بالتحفظ والتشكيك والتوجس والتردد، وقبل كل هذا كنت أخشى أن تقتلني وتقتلكِ بالرفض، لذا لم أفاتحها في شيء على الرغم من أننا هاتفنا بعضنا مرتين أو ثلاث لكنني لم أجرؤ على أن أتطرق للموضوع معها.

اتصل بي والدي بعد ذلك بأسبوعين، دهشت حينما رأيت اسمه على شاشة هاتفي؛ فعلى الرغم من سنوات الدراسة الطويلة التي قضيتها في غربتي إلا أنّ والدي لم يكن يتصل بي إلا نادراً، ومن أجل أمور تخص تجارته.

قال: عبدالعزيز وش بلاك ما قلت لأمك عن موضوعك اللي قلت لي؟!

- والله يبه مدري!

قال بحزم: وش اللي ما تدري؟!، هونت يعني؟!

- لا لا ماهونت، بس قلت أشوف مناسبة أفتح معها الموضوع.

- وش مناسبته هذي اللي تنتظرها، أنا توقعتك كلمتها وخالص.. تفاجأت اليوم الحرمة ما تدري عن الموضوع!

- عسى ماقلت لها شيء!

- أيه قلت لها، أجل كيف عرفت أنها ما تدري؟!.. كلّم أمك كلمها!.. قلها شالسالفة ووش تبي.. ومرة ثانية خلك رجال.. لاجزمت على شيء كمله، لا تقعد تسوف الأمور وتبلشنا مع أمك!

أنهيت المكالمة مع أبي وأنا أنز عرقاً وخوفاً، فعلى الرغم من عقود عمري الثلاثة، والمشيب الذي بدأ يغزو رأسي، إلا أن مكالمة حادة اللهجة مع والدي كانت كافية لتهزني هزاً، خصوصاً وإن تعلقت المكالمة بأمر يخصكِ أنتِ يا جمانة!، لم أكن على استعداد لأن أخسر دعم والدي لزواجنا ولا لتأييده لي، كنت أحتاجه كحليف يناصر حبنا، ولم يكن والدي كأي حليف.

*****

عندما يولد الفتى بعد عدة فتيات في مجتمع كمجتمعنا، يكون مجيئه كمجيء الأنبياء، ويحتفى به وكأنه المنتظر، وهكذا جئت.

ولدتُ بعد ثلاث فتيات متعاقبات، فلا تفصلني عن أختي الكبرى سوى أربع سنواتٍ فقط، خلقت ملكاً على عائلتي، على أمي وأبي وشقيقاتي الثلاث.

ولدت ملكاً وكبرت ملكاً، لا أعاقب ولا أتحمل مسؤولية شيء ولا يرد

لي أمرٌ أو طلب، حتى بعدما قدم أخي وليد على الحياة بعد سبع سنوات من مولدي، فرح به والدي واحتفت به العائلة إلا أنني بقيت صاحب الحظ الأكبر من الدلال، ربما لأنني كنت الذكر الأول، المنتظر الأول والفرحة الأولى.

لا أزال أذكر كم كان كل شيء مني مقبولاً ولطيفاً ومضحكاً في طفولتي، بالرغم من مشاغبتي وعنادي وقياديتي إلا أنني لم أشعر يوماً بأن شغبي مرفوض، أو أن عنادي قد يتسبب بعرقلة حياتي في مستقبلي.

والداي لم يسهما في إفسادي فحسب، بل شكلا الرجل الذي أنا عليه الآن بيديهما، غذيا لديّ كل الصفات التي يرفضانها الآن.

ولدت على الفطرة، ربما كنت أحمل في جيناتي صفات القيادة وشيئاً من العناد، لكن والديَّ هما من سقيا هاتين الشجرتين في داخلي فكبرت لا أقبل أن يقودني أحد، ولا أقدر على أن أشارك جماعة، كبرت رجلاً لا يقبل إلا أن يقود من حوله ولا يرضى أن يشاركه أحد الرأي.

والدي لم يبصر عيوبي ولم يكرهها إلا بعدما تقهقرت علاقتي به قبل سنوات.

كنت في الثانية والعشرين، أدرس إدارة الأعمال في جامعة الملك سعود، وكانت دراستي تقف على قدم واحدة، الحق أنني لم أحب يوماً الإدارة ولا فروعها، لكنني أردت أن أكون رجل أبي، ساعده الأيمن، شريكه، والابن الذي يتفاخر به أمام الناس.

تعرفت في تلك الفترة على فتيات كثر، مثلي كمثل أي شاب في عمري، لم تكن تتجاوز علاقتي بأغلب الفتيات سماعة الهاتف، وقلة منهن اللاتي استطعت أن ألمحهن بعد خروجهن من أسوار الجامعة.

كانت معظم العلاقات في تلك الآونة تدار عبر أسلاك الهاتف، وكان من النادر جداً أن يلتقي عاشقان أو أن تتجاوز علاقة عاطفية المكالمات الهاتفية.

عرفتني إحدى الفتيات والتي كنت أعتبرها صديقة لي على صديقة لها، كان اسمها ريما، وكانت تصغرني بعامين فقط.

ريما لم تكن كأي فتاة تعرفت عليها في ذلك الزمن وفي ذلك المجتمع، كانت على الرغم من نجديتها في غاية التحرر، بل كانت في غاية الانفلات في مقاييس ذلك الزمن.

لم تكن ريما تغطي وجهها، كانت تدخّن، تتنقل بين الدول وحيدة، والأغرب من كل هذا أنها لم تكن عذراء!

أذكر كيف أخبرتني بذلك ببساطة وكأنها تتحدث عن فيلم سخيف ما!، لم يكن أمر عذريتها يهمها في شيء، وكأنها لا تنتمي إلى مجتمعنا ولا تعيش فيه.

أظن بأن هذا أول ما جذبني إليها، جذبتني كل سيئاتها، استثنائيتها، تحررها، وأنها لم تكن تشبه الأخريات.

لذا، سريعاً ما انغمست في علاقة معها، كانت هي أول فتاة أحبها فعلاً، وكانت هذه أول علاقة عاطفية كاملة أعيشها في حياتي.

معها تذوقت الجنس لأول مرة، ومارست الجنس أكثر من مرة، وأحببت فكرة أن أعيش معها خارج البلاد.

تلبستني ريما لأشهر طويلة، معها كنت أستطيع أن أكون على سجيتي، لم تقيدني ريما بقيود الحب المعتادة، كانت تتقبل صداقاتي وتتعامل معها ببساطة ومرونة الغربيين، وهكذا أصبحت مثلها تلقائياً، فعلى الرغم من حبي الجارف

لها إلا أنني احترمت صداقتها مع الرجال، وتمكنت من أن أفصل بين الحب وبين الصداقة، وأن أتخلص من غيرة الشرقيين التي أقنعتني وقتذاك بأنها لم تكن إلا عادة من عاداتهم.

زلزلتني علاقتي بريما كثيراً، ربما لأنها كانت حبي الأول، وربما لأنها كانت المرأة المختلفة الأولى التي أقابلها في حياتي؛ ففي مجتمعنا جميع النساء يتشابهن، تتشابه أفكارهن وعاداتهن وأحلامهن، حتى ملامحهن تتشابه! وجاءت هي لا تشبه الأخريات بشيء، فوقعت بها ووقعت بي لأنني كنت متقبلاً لاختلافها، ولأنني احترمتها على الرغم من ذلك الاختلاف وذلك الشذوذ الاجتماعي الحاد.

لا أدري إن كنت قد فكرت بالزواج من ريما حينذاك، كل ما أذكره بوضوح هو أنني رغبت بأن أكمل حياتي معها.

أحببت ريما كثيراً وتقبلت أخطاءها، معها اقتنعت بأن ممارسة الحب قبل الزواج لا تعني أن المرء فاسدٌ، وأن صداقتنا بالجنس الآخر لا تعني بضرورة الحال خيانة من نحب، أو أننا قد نحب من نصادقه، معها آمنت أنه من الواجب أن لا نتزوج إلا ممّن نحب، وأن زواجنا لا يعني أن ننهي علاقتنا بالجنس الآخر.

اعتنقت مبادئ وقناعات ريما سريعاً، ربما لأننا كنّا نتشارك في عدة أمور، ونتشابه في الكثير من الأشياء والرغبات والأحلام، كنا مهووسين بالحرية وبالعيش في الغرب، كنا نتقاسم الفضول حيال الجنس الآخر وبأي علاقة قد تجمعنا به، مستندين إلى محاولة الفهم والتحليل وعلى فلسفة الأخلاق.

كنا مختلفين عن مجتمعنا تماماً، لذا جمعنا الاختلاف، الجنس، التحرر، الهوس بمعرفة الجنس الآخر، بأفكاره ومشاعره وسلوكياته وطبيعته.

حدثتكِ يوماً عن ريما، لم تحبي خوض التفاصيل معي، حاولت أن أتطرق إلى الموضوع أكثر من مرة لكنك صددتني في كل مرة، حينها سألتكِ: لماذا ترفضين معرفة تفاصيل علاقة مراهقتي الأبرز؟

أجبتني بأن طبيعة علاقتنا كانت مقززة، وأنها تجعلكِ تكرهينني، ليس غيرة عليَّ بل قرفاً مني!

قلتِ: هذا النوع من العلاقات يجعلني أنفر منك، لا أستطيع احترام علاقة كهذه يا عزيز.

تساءلتُ كثيراً في تلك الفترة، إن كنت تنفرين مني لعلاقة كهذه في مراهقتي على الرغم من أنني أغفلت التفاصيل الحميمة فيها، كيف ستحترمينني لو عرفتِ عن تفاصيل علاقاتي اللاحقة وعن علاقتي بياسمين!

أعرف أنك لن تقدري تفهم ذلك، ولن تستطيعي فهم أسبابه.

أفكر أحياناً، لو انقلبت الموازين والأمور، لو كنتِ ريما، أي أن ريما هي أنتِ الآن، لكم كنت سأكون حراً، لكم سأتحرر من مخاوف خسارتك، ولكم كانت ستحترم علاقاتي!، لكنني أفكر أيضاً، هل كنت سأستمر في حبّها لأربع سنوات كما أحببتكِ وكما لا أزال أحبك، وهل كنت سأفكر بأن تكون أماً لأبنائي؟! هل كنت سأحلم بأن أشيخ معها؟!.. وهل وهل وهل..

ربما مجيء ريما في مراهقتي لم يكن في مصلحتي، ربما عززت صفاتها و مجيئها وقبولها لعلاقاتي الأخرى عدم الالتزام لدي.

أدرك جيداً أنني غير قادر على الالتزام التام والكلي، وأعرف أن معايشة ذلك طوال حياتي تجعل التزامي حالياً ومستقبلاً أمراً صعباً إن لم يكن مستحيل الحدوث.

صدقيني أنني أحاول الالتزم بهذه العلاقة، لكن كيف ألتزم بأمر أرى أن عدم الالتزام به لا يشكل فرقاً في طبيعة علاقتنا، ولا في مشاعري تجاهكِ!

أنا لا أستطيع الالتزام وأنتِ لا تستطيعين قبول ذلك، أنا لا أقدر على خسارتك، وأنتِ لا تقدرين على أن تستمري معي بدون التزام، وهكذا لا تزال علاقتنا مرهونة باتفاق قد نصل إليه يوماً وقد لا نصل أبداً.

أتعرفين، علاقتي بريما لم تفسد عليّ حياتي فحسب، بل أفسدت علاقتي بوالدي، غريب أنك لم تسأليني يوماً عن سبب برود علاقتنا، عن الخلاف البارد المستمر منذ سنوات طويلة، والذي يبدو أن صقيعه سيستمر حتى يموت أحدنا أو يموت كلانا.

ماتت علاقتي بأبي عندما دخل عليّ بملحقي في أحد المساءات التي كانت تزورني أثناءها ريما!

لم يطرق والدي الباب، أو ربما طرق!.. الحقيقة أنني لا أعرف إن كان فعل أو لم يفعل، المهم أنني لم أسمع طرقاته على باب ملحق منزلنا الذي أعيش فيه، ولا أدري كيف غفلت عن إغلاق الباب على الرغم من أنني دائماً ما كنت أغلقه، أظن أنني لم أتخيل أن يدلف علينا أحد.

كان مساءً هادئاً من مساءات الشتاء، وكانت عائلتي في مخيم شتوي خارج المدينة، أما هو فكان يُفترض أن يمارس عادته بأن لا يعود إلى البيت قبل منتصف الليل، لا أعرف لماذا خانتني عادته تلك المرة، ولا أعرف لماذا جاء مبكراً على غير العادة.

عندما دلف والدي كنت أحتضن ريما، كانت قد وصلت قبل مجيئه بعشر دقائق، رأيت والدي بقامته الطويلة يقف أمامي، فتسمر كل شيء فيّ، صمت جسدي وتوقف قلبي، حتى ردة فعلي تجمدت!

لم أتحرك، ولم أنبس بشيء، تعلقت عيني بوجه أبي، بغضبه العارم الصامت، وبعينيه اللتين بدتا ككرتين من لهب.

شعرت ريما بي، نظرت إلى وجهي والتفتت بحدة، ليطالعها أبي بسنواته الخمسين، وتجاعيده المهيبة ومشيبه الوقور.

أنحنى أبي على عباءة ريما المرمية على الكنب الأرضي، مدها إليها، وقال بحزم: توكلي على الله، الله يستر علينا وعليك!

توقعت أن تقول ريما شيئاً، أي شيء، فلم تكن فتاة بجرأتها لتصمت في موقف كذاك، لكنني وجدت جرأتها تتضاءل أمام ما قاله، ارتدت عباءتها بصمت وحملت حقيبة يدها وخرجت من دون أن يسمع والدي بحة صوتها أو أن يميز نجدية لهجتها.

رأيت ريما تغادر وقلبي يكاد أن يقف من هول الموقف، اقترب أبي مني بخطوات بطيئة ومزلزلة فشعرت بأن دهراً يفصلني عنه، وقف أمامي وصفعني بكل ما أوتي من غضب!

أمسك بثوبي وشدني إليه قائلاً من تحت أضراسه وبصوتٍ لم أنسَ يوماً نبرته: تبي تدرس برى؟!.. انقلع!، من اليوم هالبيت مو بيتك، هذا بيت أمك وأخوك وخواتك، ماعاد أبيك ببيتي، خلص أوراقك وطس باللي ما يحفظك!

أفلت أبي ثوبي، ونظر إلي بعينين رأيت من خلالهما خيبة العالم أجمع... وخرج!

غادر والدي وأنا أرقبه بأنفاس مختنقة، كانت تلك صفعة والدي الأولى والأخيرة، الصفعة التي تبرأ مني من خلالها.

لم أنسَ هدير صوت والدي يومذاك، لم أنسَ الشّرَر المتوقد في عينيه، لم أنسَ الغضب والخذلان والتقزز والكراهية التي رأيتها في ملامحه.

ومع أنني لطالما حلمت بأن أكمل تعليمي الجامعي خارج البلاد، لكنني لم أحلم أن يقبل والدي بذلك بهذه الطريقة وبهذا الشكل!

لم يجردني أبي يومها من أبوته لي ولا من بنوتي له فحسب، يومها جردني أبي من أي علاقة تربطني بالعائلة، نبذني منها بصورة غير رسمية، ومن دون أن يعلم أحد.

كان قرار تركي الدراسة في الجامعة والسفر بعد ثلاث سنوات من النجاح فيها أمراً مفاجئاً للجميع، لم تصدق أمي في بداية الأمر أنني سأتخلى عن السنوات التي قضيتها على مقاعد الجامعة فجأة وقد قاربت على التخرج، لم تعرف لماذا هذا القرار المفاجئ، ولم تفهم لماذا وافق أبي على سفري فجأة بعد سنوات من الرفض القاطع.

قلت لها بأنني لم أقبل بإحدى الجامعات الكندية إلا هذا العام على الرغم من مراسلاتي المستمرة، أقنعتها بأن الفرصة لن تسنح لي مرة أخرى، وبأن التخرج من جامعة كندية لا يعادلها التخرج من أي جامعة سعودية.

أما هو.. ذلك الحانق بصمت، لم يولِ الأمر أية أهمية أمامهم، فبدا لهم وكأنه يقبل سفري على مضض كأي أب يفارق ابنه.

دفع والدي تكاليف معهد اللغة الإنجليزية الذي قبل التحاقي به، ساعدني باستخراج تأشيرة السفر وأحيا رصيدي البنكي بما يكفي لأن أعيش مرتاحاً هناك.

أفهم الآن أن والدي كان يعاقبني بالنفي، كان يظن أن خمس أو ست سنوات قد أقضيها في بلاد الغربة ستعلمني كيف أحترم العادات والتقاليد وكيف أحبها، كان يظن أنني سأعود آسفاً ونادماً، ولا أظن بأنه فكر ولو للحظة أن المقام سيطول، وأنني قد لا أفكر بالعودة أبداً.

سافرت إلى مونتريال في البداية، مخلفاً ورائي أماً ملتاعة من فرط الخوف والحب والاشتياق، شقيقات يعولن كثيراً على عودتي ناجحاً ومتميزاً يوماً ما، وشقيقاً كنت أدرك أنه سيكون خير عوض لأبي مني.

أما هو، فقط تركته غاضباً، مصدوماً ومخذولاً، ومع أنني عدت كثيراً خلال السنوات الماضية إلا أنني كنت أجده كل عام كما تركته، ولا أعرف لماذا لم يغفر لي أبي تلك الواقعة، ولماذا خسرني من أجلها.

أما ريما التي ابتلعت سريعاً مرارة دخول أبي علينا تلك الليلة، فقد أخبرتني بعدما أنهيت إجراءات سفري ولم يتبقّ على رحيلي سوى أيام أنها ستسافر إلى استراليا لإكمال الماجستير، حاولت اقناعها بأن تلحق بي، لكنها أحبت أن نجرب الحب عن بعد، ووعدتني أن نتناوب على زيارة بعضنا طوال سنين الدراسة.

استمرت علاقتنا فعلاً بعد سفرها، كنا نتحدث طويلاً من خلال شبكة الانترنت وأحياناً عبر الهاتف، لكنني شعرت بعد شهرين أو ثلاثة أن البرود بدأ ينتابها تجاهي، بدأت تنسحب تدريجاً من حياتي وكان هذا مخيفاً بالنسبة إليّ لأنني أحببتها فعلاً، ولطالما تخيلت أن نتشارك الغربة بما فيها من متع وإثارة.

على الرغم من أن انسحابها كان لئيماً، حاداً وقاسياً عليَّ، لدرجة أنني مرضت لهجرها لي، إلا أنني استجمعت قواي سريعاً ولملمت مشاعري وتجاوزتها.

أدرك اليوم أن ريما تركتني من أجل غيري، وأنني لم أكن إلا رجلاً من رجالها الكثر، فمثلما لم أكن الرجل الأول لم أكن الرجل الأخير أيضاً، وهكذا خسرت أبي من أجل فتاة لم أكن إلا حلقة من مسلسل متمرد طويل تعيش فيه.

لذا كنت أخشى كثيراً مفاتحة أمي في موضوع زواجنا، كنت أخاف أن أخسركِ أو أخسرها، لم أكن لأقبل أن أكون يتيم الأم والأب معاً وفي حياتهما، ولم أكن لأقدر أن أعيش من دونكِ وبعيداً عنكِ.

اتصلت بأمي بعد مكالمة أبي لي لكنها لم تجبني، فأدركت بأنها تعاقبني بعدم الرد.

هكذا هم وهنّ، يعاقبوننا بالابتعاد، ينفوننا بعيداً عنهم لأنهم يدركون أن الغياب سيتلف الحياة في أعيننا.

عاودت الاتصال بها ثلاث مرات، أجابتني في المرة الثالثة بصوتٍ يكسوه العتب، قالت بتهكم معاتب: حيا الله العريس!

- الله يحيك، شلونك أم عبد العزيز؟

- زين أنك ذاكر أني أمك للحين.

- شدعوة يالغالية، حبيبة القلب أنتِ.

- سبحان الله طالع على أبوك، مايجي منك إلا الحكي!

عاتبتني أمي طويلاً، أخبرتني بأنها لم تكن تتخيل أن أتزوج بهذه الطريقة، ولم تكن تتوقع أن أقوم بالتطرق إلى هذا الموضوع مع أبي أولاً، قالت لي بأنها كانت تحلم طوال حياتها أن تختار عروسي بنفسها خصوصاً وأنني تأخرت كثيراً «برأيها».

حاولت أن أمتص غضبها ما استطعت، تحدثنا طويلاً، كانت تهدأ قليلاً ومن ثم تعاود الثوران، لكنني تمكنت في نهاية الأمر من أن أستعطفها، وأن أبرر لها أسبابي، سألتني عنك بعد ساعة ونصف من العتب، قالت لي في نهاية المحادثة: بينك وبين البنت شيء؟

- لا، أشوفها من بعيد واسمع عنها.

- وأنت وش تبي بوحدة تدرس معك ويعرفونها زملاؤك؟

- البنت مؤدبة، وبكل الحالات لو فكرت أتزوج ماراح أتزوج إلا وحدة أشوفها بعيني وأعرف أخلاقها، زواج «شختك بختك» ما أحبه ولا أبيه.

أخبرتني أمي أنها تزوجت بهذه الطريقة، وأن ثلاثاً من شقيقاتي تزوجن وفقها أيضاً، وأن شقيقتي العازبتين ستتزوجان يوماً ما بالطريقة عينها، طال

حديثنا في الأمر، تقبّلت الأمر على مضض، واتفقنا أن لا تخاطب أمك إلا حين عودتي إلى الرياض في الصيف، الصيف الذي كان بعيداً جداً.

*****

بدأت نوبات الهلع المرضية تنتابني في سنتي الثانية هنا، على الرغم من أن العيش هنا والابتعاد عن مجتمعنا بكل شرائحه كان أكبر أحلامي في مراهقتي، إلا أن الخوف من الموتِ وحيداً كان ينتابني بين الحين والآخر، ولا يزال يفعل في بعض أوقات حزني ويأسي.

فكرت كثيراً فيما لو زارني الموت فجأة في غربتي، كم سأمكث ميتاً قبل أن يكتشف موتي أحد، وكم سيبقى جسدي عالقاً هنا قبل أن تنهي السفارة إجراءات نقلي إلى الرياض.

الرياض حيث أرجو أن أموت!

أنا لا أحب أن أعيش في الرياض، لم أحب يوماً مولدي بها ولا حياتي فيها، لكنني أريد حتماً أن أموت فيها! أشعر أحياناً بأن الرياض أرض للموت وليست للحياة، أرض يُفترض أن نعيش بعيداً عنها، لكن علينا أن نعود إليها يوماً لنلفظ أنفاسنا الأخيرة فيها.

لذا انتقلت من الشقة التي كنت أعيش فيها إلى بيت باتي وروبرت، أردت أن أنام في بيت يشاركني التنفس فيه أحد، استبعدت تماماً مشاركة شقة مع أحد الزملاء الخليجيين، لأنني كنت أدرك أن أهواء الطلبة في نمط الحياة مختلفة، وهذا ما كان سيضعنا يوماً أمام نقطة خلاف كبيرة، خشيت أن أخسر علاقتي مع أحد منهم فآثرت العيش مع كهلين كنديين، أحببتهما كثيراً وخففا من وطأة الغربة عليّ لياليَ كثيرة.

أتدرين، تراجعت نوبات هلعي كثيراً عندما عرفتكِ، جئتِ فانتشلتني من مخاوفي وقلقي، أسكنتِ السكينة في قلبي، فبت أنام قريراً متفائلاً هادئاً ومطمئناً.

لكن الخوف عاودني بعد أربع سنوات من الطمأنينة؛ فبعد ارتفاع وتيرة خلافنا في الآونة الأخيرة، عاودتني نوبات الهلع من جديد وكأنها لم تغادرني يوماً.

أشعر أحياناً أنها عادت أكثر وطأة وحدة، وأظن بأنها ستقتلني يوماً، وأنني سأموت من شدة الهلع.

أذكر أول مرة زارني الخوف فيها بعد انقطاع، كنتِ قد أخبرتني عن مبتعث إماراتي قابلته في أحد المقاهي القريبة من الجامعة مع هيفاء، قلتِ بأنه دفع حسابكما وضحكتِ كثيراً على هيفاء التي جعلته يندم على تلك الشهامة غير المبرّرة، والتي لم يكن لها مناسبة.

أخبرتني بعدها بشهر أنكِ كنتِ تجلسين في ذلك المقهى بانتظار موعد محاضرتك، عندما صادفته مع ابنيه وأنكما تبادلتما أطراف الحديث، كنت تتحدثين عن حواركما بحماسة أثارت غيرتي؛ فعلى الرغم من أنني كنت أثق تمام الثقة بأنه من المستحيل أن ينتشلني أحد من أعماقك، أو أن يثير اهتمامكِ أحد غيري، لكن هاتين المصادفتين لم تكونا مريحتين بالنسبة إليّ.

لذا غضبت كثيراً، عاتبتكِ وطلبت منكِ أن لا تتحدثي معه أبداً لو صادفته في أي مكان.

كنا نجلس في مقهانا الخاص، عندما جاءتنا نادلة المقهى التي تعرفنا جيداً، مدت إليكِ بورقة صغيرة، وقالت إنّ رجلاً جاء ليسأل عنكِ، وأنه طلب منها أن تسلمكِ هذه الورقة.

لا أعرف ما الذي تلبسني لأسحب الورقة من النادلة من دون أن أستأذنها أو أستأذنكِ، كان خط ماجد جميلاً، مثيراً، ورائحة الغزل تفوح من حروفه التي أراد أن يجسّ نبضكِ بها.

كانت حروفه مختصرة، لكنها واضحة (جمانة، مررت ولم أجدك، أفكر بكِ كثيراً، ماجد العاتكي).

شعرت حينئذ بأن آلاف اللترات من الدماء الساخنة ضخت في أوردتي، كانت دمائي تغلي، تغلي فعلاً!، شعرت بأنفاسي تتصاعد حارة وبعضلاتي تتشنج، لن أقول بأنه تملكني الغضب لأنني تمكنت من كبحه فقمت من مكاني خوفاً عليكِ.

رميت الورقة في وجهكِ وهرولت إلى سيارتي مسرعاً، كنت أريد أن أبتعد عنكِ بأسرع وقت، خشيت عليك مني، خفت أن يعميني الغضب وأن أؤذيكِ، لذا ركبت سيارتي بسرعة وانطلقت بها بلا وجهة محددة.

في طريقي إلى حيث لا أدري، شعرت بأسناني تصطك ببعضها بدون إرادة مني، بدأت أنفاسي تضطرب وبدأ جسدي ينز عرقاً، شعرت بالاختناق، وبأنني سأصطدم بإحدى السيارات أو بأحد المارة، أوقفت سيارتي وأنا أقاوم الشعور بدنو النهاية.

كان نشيج أنفاسي يملأ عقلي، كنت أحاول التنفس بقوة فأسمع صوت أنفاسي المضطربة ويزداد هلعي أكثر فأكثر، حللت حزام الأمان، فتحت نافذتي بيد ترتعش، حاولت أن أتنفس، أن أطرد الموت من رأسي، أن أتشبث بالحياة.

سمعت صوت هاتفي، كان زياد هو المتصل، أجبته وأنا أرتجف، سألني ما إن سمع صوتي: عسى ماشر!

- أحس أني بموت.

قال بقلق: وش صاير وش فيك؟

أجبته وأنا ألهث وقد بدأت أهدأ: كنت ماشي وحسيت أني بصدم.

قال زياد متفهماً: فهمت فهمت، استرخِ وتنفس، ما فيك شيء أنت معي على الخط وكل أمورك كويسة.

حاول زياد أن يطيل معي الحديث وأن يجعله مرحاً قدر الإمكان، قال مازحاً في نهاية المكالمة وبعدما تأكد من أنني أصبحت أكثر ارتياحاً: لا تكبر الموضوع في داخلك، مجرد panic attack وراحت لبيتهم!

شعرت بأن مكالمة زياد قد انتشلتني من بين فكي الهلع فعلاً، لا أدري ما الذي كان سيحل بي لو لم يتصل بي زياد أو لو لم أتمكن من الرد عليه.

ربما كنت سأظل في سيارتي حتى أموت هلعاً، على الرغم من أن جميع الأطباء الذين سبق وأن استشرتهم في نوباتي تلك، قد أكدوا لي أن لا أحد يموت من نوبة هلع، إلا أنني أدرك أن أحداً منهم لم يشعر بما أشعر به، الأطباء يفتون دوماً فيما تعلموا وليس فيما جربوا وعايشوا.

في ذلك اليوم، كرهتكِ كثيراً يا جمانة، كرهتكِ، ليس لأنكِ لم تخبريني عن كيف عرف ماجد عن مقهانا، ولا لماذا يبحث عنكِ فقط، كرهتكِ يومها لأنني تخلصت من الهلع بسببك ولأنه عاد إلي بسببكِ أيضاً.

لم أتخيل يوماً أن أعايش الهلع من جديد، ظننت بأنني قد انتهيت منه إلى الأبد، وبأن الرعب من الموت لن يعاودني إلا عند الموت، فلماذا أعدتِ ذلك الهاجس إلي؟!

مشطت الطرقات بعدما أنهى زياد المكالمة، كنت بحاجة لأن أتوه بعيداً عن كل مكان يعرفني وأعرفه، شعرت حينذاك بالحنق تجاهكِ، كنت أدرك أنك لم تفعلي شيئاً، وأن هناك لبساً لا دخل لكِ فيه، لكنني كنت بحاجة لأن

أغضب منكِ، لأن أشعر بأنكِ آذيتني، كنت أحتاج لأن أشعر بذلك لأنني لطالما كنت من يغضبكِ ومن يؤذيكِ.

ربما رغبت في لاوعيي أن تخونيني حتى نتعادل، أو ربما حتى تخلصيني من تأنيب الضمير، لكنني، وعلى الرغم من رغبتي المستترة في داخلي، شعرت بالمهانة من فعلك وكذلك بالخيبة!

أعرف بأنك لن تفهمي شيئاً من هذه المشاعر، وأعتقد بأنه من الصعب أن يفهمها أحد، أنا نفسي لم أتمكن من فهمها والوصول إلى تحليل لها إلا بعد أشهر طويلة ممّا حدث.

لا أدري كيف أشرح لك ما شعرت به وما رغبت فيه!

أردت أن أصدق أنك تخونيني ربما لأنني أشعر بأنني لا أستحقك، لكنني عندما أقنعت نفسي بأنكِ فعلتِ، شعرت بألم لا يطاق وخوف من خسارتك، تألمت كثيراً، تألمت بشدة!

عدت إلى المنزل بعد ساعات من التجوال من دون هدف أو وجهة، كنت أحاول أن أفسر مشاعري وأن أرتب أفكاري بلا نتيجة، فعدت إلى المنزل بعدما أغلقت هاتفي الذي كاد أن يئن من رجاء مكالماتك.

وجدت روبرت وباتي يتابعان برنامجاً عند دخولي البيت، حييتهما مسرعاً، فاستوقفني روبرت وهو يشير بجهاز التحكم: عزيز، جاءت جمانة قبل ساعات، كانت تريد أن تقابلك.

- سأتصل بها، شكراً بوب.

قالت باتي بحاجبين معقودين: لو فعل بي بوب بعض ما فعلته وتفعله بجمانة، لهجرته منذ سنوات، فأجبتها ممازحاً:

- أنتِ تهددينه بالهجر منذ أن عرفتكما، لما لا تهجرينه بدلاً من هذا الإرهاب الذي تمارسينه عليه؟!

ضحك روبرت سعيداً بدفاعي عنه، فحملت هي إبريق الشاي متوجهة إلى المطبخ وهي تتمتم متذمرة.

دخلت غرفتي، اضطجعت فوق سريري وأنا أشعر بغيمة من الخذلان تظللني، كنت أفكر لكم هي موجعة هذه المشاعر، كنت أتشرب بفكرة الخيانة أكثر فأكثر، وصراع دامٍ يجري في أعماقي المضطربة.

كان يصرخ شيء في داخلي محاولاً إيقاظي من تلك الخيبة، كان يهتف بأنه من المستحيل أن تفعلي بي أمراً كهذا، ليس لأنك تحبينني فقط، بل لأنك لا تشبهين هذا السلوك ولا تعرفين هذه الفكرة ولا تحملين هذا الجين، أنتِ امرأة لن تخون أحداً يوماً ما، لأنك ببساطة لا تعرفين ماهية الخيانة ولا تشعرين بمتعتها.

وكان يصرخ في الجهة المقابلة وبصوتٍ جهور، هاتف يصر على أنكِ فعلتِ، كان يهزني صائحاً: لقد أهنت، خدعت، هي تعبث معك وبك!

أردت أن أصدق الهاتفين، أردت أن تخونيني وأن لا تفعلي، أردت أن أثق بك لكنني أردت أن أشك بكِ أيضاً، صدقيني لا أعرف لماذا عشت وأعيش ذلك!، أنا مريض، لا شك عندي في هذا، لكنني لا أعرف السبب.

كانت الأفكار تتصادم داخل رأسي، شعرت به يتضخم، يثقل ويتأرجح، فتحت الدرج بجانب السرير، تناولت حبتين من مهدئ كان قد صرفه لي أحد الأطباء قبل سنوات، واستسلمت لداع البكاء الملح داخل نفسي.

أظن بأنني بكيت كل شيء، كل حدث وكل أحد، كنت بحاجة لأن أبكي بعد فترة طويلة من عدم القدرة على البكاء، فتهيأ لي سبب لأبكي كل المواقف الماضية، كنت خائفاً أكثر من كل شيء، أرعبتني نوبة الهلع التي انتابتني في سيارتي، شعرت بأنكِ السبب، وبأنني سأقع أسير تلك النوباتِ من جديد.

أخذت هاتفي واتصلت بك، أجبتني بعد النغمة الأولى، صرخت بكِ، شتمتكِ. قلت لك بأنني تناولت حبتين، وبأنني سأتناول بقية العلبة إن لم تعترفي بما لم تقومي به، فعلتِ من أجل أن أهدأ فانهرت حينما فعلتِ!

عندما سمعت منكِ ما أردت سماعه، أنهيت المكالمة وأنتِ ترجينني أن أسمعك، ركضت إلى الحمام، وضعت إصبعي في حلقي لأتقيأ ما ابتلعته، تقيأت الحبتين، لكنني لم أستطع أن أتقيأ الحزن والهلع والغضب!

*****

أنظر دائماً إلى الصور التي تجمعنا، تدهشني آثار العِشرة التي أراها تنحت على ملامحنا يوماً بعد يوم، أطالع صورنا للأربعة أعوام الماضية، بالشغف الجلي في بعض الصور، بالحميمية القصوى في بعضها، بالاعتياد، بالود، بالألفة، بالحب، بالتعلق، بالارتباط، وبالعشرة الطويلة.

تقولين لي دائماً «لو كنا قد تزوجنا قبل أربعة أعوام، لربما كان لدينا طفل الآن»، وأقول في نفسي «بل ربما طفلان.. أو حتى ثلاثة»!

أن تقضي سنواتٍ في علاقة حب، يعني أن تمنح العلاقة وسام الذكرى الأبدية حتى لو انتهت تلك العلاقة.

من الصعب أن تنسى علاقة طويلة، ربما لأنها شغلت جزءاً كبيراً من عمرك، وربما لأنها لو لم تكن علاقة حب حقيقية لما استمرت ودامت لأعوام.

أنا لم أستمر في علاقة لأكثر من خمسة أشهر سوى معكِ ومع ياسمين، علاقتي بياسمين ممتدة لسنوات طويلة، لكنها ليست بعلاقة حب.. وليست بعلاقة مستمرة، هي علاقة متقطعة، علاقة يحكمها المزاج وتحكمها الحاجة، لكنني لن أنسى هذه العلاقة يوماً لأنها أخذت سنوات طويلة من عمري، ولأن ذكراها لن تؤلمني يوماً.

أما أنتِ يا جمانة، لا رغبة لي بتذكركِ لو خسرتكِ، أنت التي أدرك بأنها قد وشمتْ في قلبي وشماً بدوياً لا يزول ولا يمحى، وشمكِ الحب في قلبي، فوشمتكِ فوقه.

كنت في مونتريال مع ياسمين، رافقتها إلى محلّ متخصص بالوشم، كانت تريد أن توشم جناحين ملائكيين على كتفيها.

كان من السخرية أن تختار جناحين، وهي أبعد ما تكون عن الملائكة، لكنني لم أكترث كثيراً، رافقتها لأنها أرادت أن أفعل، ففعلت!

كنا نتصفح كتيباً يحوي أشكالاً ورسومات وشوم حينما أشارت بيدها إلى وشم بحرف الـ J الإنجليزي.

قالت: ما رأيك أن تضعه؟

دهشت لاختيارها للحرف، ظننت بأنها تقصدكِ، ولم أكن قد تحدثت معها يوماً عنك على الرغم من إدراكها أن في حياتي امرأة غيرها، نسيت أن اسمها بالإنجليزية ينطق «جاسمين»، قلت بدهشة: لماذا J بالذات؟

قالت وهي تضحك: لأنه حرفي.

ابتسمت، شيء ما ضحك داخل أعماقي، كنت أعرف أنها غير جادة بطلبها، وأنها كانت تمازحني ليس إلا؛ فمن المستحيل أن يقدم رجل على فعل كهذا مع امرأة لا تربطه بها علاقة حقيقية.

فكرت بسرعة، شعرت بأنه سيبهركِ أن أوشم أول حروف اسمكِ على صدري، أنتِ الفخورة باسمها كثيراً والرومانسية حتى النخاع.

كنت خائفاً من فكرة الأبدية، أن أضع وشماً يرافقني إلى الأبد، فكرت فيما لو مت، هل سأقابل ربي بما لعن، لكن الشيطان القابع في داخلي أغراني فأقدمت وفعلتها، فعلتها من أجلكِ يا جمانة.

دهشت ياسمين، ودهشتِ أنتِ.. وكنت سعيداً بالحالتين!

اتصلت بكِ بعد ذلك بيومين، طلبت منكِ أن تأتي مع هيفاء إلى المقهى لأنني قد أعددت لك مفاجأة، واتصلت بزياد ومحمد أيضاً.

سألتني عندما اجتمعنا: ما المفاجأة؟!

فتحت أزرار قميصي، قالت هيفاء ساخرة: ما الأمر؟ أستقفز في كأس الماء؟

تجاهلتها، كانت عيناي معلقتين بكِ، بانبهاركِ ودهشتكِ وسعادتكِ التي كنت أنتظرها، أزحت الشاش الطبي من على الوشم، ورفعت عيني إليك حتى لا تفوتني فرحتك.

تفاجأتِ كثيراً، سألتني «ماذا لو رآه أحد».. أخبرتكِ أنه لا يهمني أحد غيركِ، شعرت بروحكِ تحلق فرحاً، تحلق بعيداً، بعيداً جداً.

قال لي زياد بعد أن غادرتِ برفقة هيفاء: ياخي حرام عليك تلعب ع البنت!

شعرت بالمهانة، ليس من أجلي بل من أجلكِ، قلت: من قال لك إني ألعب عليها؟!

قال محمد: شرايك تلعب علينا حنا بعد؟! حنا عارفين وين أنت رايح ومن مين جاي.

قلت: لا والله سويته عشان جمانة، مو عشان ياسمين.

قال زياد بضيق: حرام عليك، والله البنت طيبة.

هز محمد رأسه مؤيداً، كنت أعرف أن في جعبتهما الكثير ليقولاه حيال علاقتنا، لكنهما تحفظا من أجل أن لا يخسرا الصداقة القديمة التي تربطنا.

بقدر ما أسعدتني فرحتكِ بالوشم، بقدر ما عكر عليَّ ما قاله كل من زياد ومحمد.

يوجعني كثيراً أن يظن أقرب الناس إلي أنني أخدعك، أزعجني ظنهما بي، وآلمتني صورتكِ الهشة في أعينهما.

أنا لا أعبث لا معكِ ولا بكِ، وأنتِ لستِ بفتاة مغفلة ولا حتى ساذجة، هما لا يفهمان ما بيننا ولا يدركان من أنا فعلاً، ولا من تكونين أنتِ، ولا إلى ما ستؤول علاقتنا.

يؤلمني أن أؤذيكِ من دون علمك، أن تكوني المخدوعة في أعين الآخرين، وأن يشفق الناس عليكِ بسببي وبدون قصد مني، صدقيني يا جمان، لم أسعَ إلى ذلك قطّ، هو أمر لم أقصده يوماً ولن أقصده أبداً.

*****

أخشى أن أتوقف عن حبكِ يوماً..

على الرغم من أن العشاق دائماً ما يخافون أن يتوقف حب الذين يعشقونهم أو أن ينتهي ذلك الحب، إلا أنني لست منهم، أنا لا أخاف أن تتوقفي عن حبي، بل أخاف أن أفعل أنا.

أريد أن أحبك إلى الأبد، ليس لأنك تحبينني بكل ما فيكِ، بل لأنني لا أريد أن أحب يوماً سواكِ.

انتهى زواج أحد أصدقائي المتزوجين بالطلاق، كان متزوجاً عن حبٍ مع سبق الإصرار والترصد، واستمر زواجه بمن يحب لثلاثة أعوام أثمرت عن ملاك صغير لم يكن إلا نتيجة حب.

سألته مرة: لماذا تطلقتما؟ فأجاب:

- لأننا لم نعد نحب بعضنا.

- وأين ذهب كل ذلك الحب؟ فقال بحزن لفحتني حرارته:

- أظن بأن هذا هو أقسى ما في الانفصال، ليس فشل الزواج، ولا تشتت الطفل بين الزوجين وعدم استقراره مستقبلاً، أقسى ما في الانفصال هو أن تتوقف عن حب من كنت تظن بأنك لن تحب يوماً سواه.

في ذلك اليوم، أخافتني الفكرة كثيراً، خشيت أن أخسر حبي لكِ، وأن أدخل في معمعة البحث من جديد، أنا قادر أن أجد ألف صديقة، وأن أقيم مائة علاقة لكنني لست بقادر على أن أجد من يكملني مثلما تفعلين أنتِ.

خسارتكِ يا جمانة تعني أنني سأعود إلى نقطة الصفر مجدداً، وأنني سأعود للتفتيش عن امرأة أحبها كما أحببتك ومثلما أحبك، قد يستغرق البحث لسنوات طوال وقد لا أجد تلك المرأة أبداً.

قلت لكِ يوماً بأن حكايات الحب الجميلة تنتهي بالزواج، فجاء ردّك:

- أنا لا أريد أن ينتهي حبي لك بزواجي منك، أريد أن ينضج حبنا، أن يكبر، أن ينمو وأن يتضخم، وأن نستمر في حب بعضنا أبد الدهر.

لكنني، وبقدر ما أخاف أن أتوقف عن حبكِ، أخاف أيضاً أن يصدمكِ برود الواقع.

أحاول أن أفهمكِ دوماً كم هي قاسية هذه الحياة، وكم ستكون حياتنا معاً في غاية الواقعية، تخيفني رومانسيتكِ أحياناً، الحياة الوردية التي تنشدينها أدرك تماماً أنني غير قادر على أن أشاركِكِ فيها.

أخبرك دائماً أن الزواج يختلف تماماً عن الحب، وأن مشاركة اثنين حياة بكل ما فيها، ومساكنتهما لبعضهما تختلف عن علاقة الحب التي نظهر فيها أجمل ما لدينا.

يومذاك، سخرتِ مني، سألتني: أتقصد بأننا في الحب نظهر أجمل حالاتنا فقط؟

أجبتكِ: طبعاً!

- أيعني هذا أنك بأفضل حالاتك الآن؟!

- حتماً، هذا أفضل ما عندي!

- شقهتِ بسخرية: أوف!

أكدت لكِ بأن هذا أفضل ما سترينه مني فعلاً، لكنكِ لم تأخذي ما قلته على محمل الجد.

أتدرين!

عرفت منذ الوهلة الأولى التي رأيتكِ فيها داخل المقهى أنكِ المنشودة، على الرغم من أنني لم أؤمن يوماً بالحب من النظرة الأولى، إلا أنني أدركت بقلبي وعقلي وروحي معاً أنكِ من أبحث عنها وأنني من تبحثين عنه، لكنني أخاف كثيراً أن يصدمك الزواج، أخشى أن يتعرى الحب أمامه فتظهر عيوبه كلها فيموت الحب وينهار الزواج ونضيع أنا وأنتِ.

أنتِ تريدين أن نتزوج، أن نكون معاً، أن نحب بعضنا إلى الأبد، أنتِ لا تهابين الحب ولا تخشين تغيره، لكنني أخافه كثيراً وأخشى تطوراته وتراجعاته.

تقولين إني أفلسف كل شيء، وإنني أفقد الأشياء متعتها، تظنين بأن علينا أن نخوض التجربة وأن نكتشف بأنفسنا معاً كل ما تخبئه وما تخفيه وما تحمله، لكنني غير قادر على المجازفة معكِ، أريد أن أتزوجك لكنني أخشى أن أراهن عليكِ وبكِ ، لا أريد أن أفشل معكِ، ليس معكِ يا جمانة، ليس معكِ!

*****

بعد حكاية ماجد وشجارنا يومذاك، شعرت بأن المدينة تضيق بي، وبأن وجهكِ يملأ زواياها، رأيتكِ في كل شارع فيها وفي كل ركن، كنتِ في

ملامح أصدقائي وفي تفاصيل الطرقات، شممت رائحتكِ عندما هطل المطر، شاهدت ابتسامتكِ ترتسم في كوب القهوة، ولمحت طيفكِ يتسلل مع أشعة الشمس وعبر خيوطها.

قررت أن أبتعد قليلاً، أنا أتنفس في مكان لا تشاركينني الأوكسجين فيه، هاتفت ياسمين، حزمت حقيبتي وتوجهت إلى المطار حيث ياسمين وبعيداً عنكِ.

لكنني وجدتكِ في مونتريال أيضاً، تعثرت بكِ في كل مكان، كنتِ حاضرة بيني وبين ياسمين، لم أتمكن من طردكِ من رأسي وإبعادكِ من بيننا.

خرجت ياسمين في إحدى الليالي مع صديقاتها وأصدقائها، كنت مكتئباً فآثرت البقاء في البيت بانتظارها، أردت أن أرسل رسالة إلى زياد وبينما كنت أبحث عن اسم المرسل إليه، وجدت رقم والدتكِ أمامي على الشاشة باسم «خالتي أم جمانة»!

كنتِ قد اتصلتِ بي من هاتف والدتك قبل سنتين أو ثلاث بينما كنتِ في الرياض، عندما كانت الخدمة مفصولة عن هاتفكِ، لا أعرف لماذا حفظت رقم هاتفها لديّ، ربما ظننت يوماً بأنني قد أحتاجه، ربما خشيت أن يصيبكِ شيء هنا ولا أعرف كيف أتصل بأحد من أهلك، ربما احتفظت به لأعطيه إلى أمي يوماً إذا ارادت محادثتك، وربما احتفظت به لأؤذيكِ!، الحقيقة أنني لا أذكر سبب احتفاظي به، لكنني فعلت.

عندما رأيت رقم والدتك، لم أفكر كثيراً، شيء ما تعطل داخل رأسي، لم أشعر إلا بإصبعي تضغط زر الاتصال، ولا أدري كيف فعلت ذلك من دون أن أفكر!

أنتِ طيبة جداً، صادقة، واضحة ولا تتوقعين غدراً من أحد، أنتِ لا

تفهمين معنى الغدر، ولا تدركين لماذا قد يغدر الناس وكيف يغدرون.

أنا لم أغدر بكِ عندما اتصلت بوالدتك، لم أرغب بإيذائكِ، لكن شيئاً في نفسي دفعني لأن أتصل بها، فعندما تؤذي امرأة رجلاً، لن يسمع إلا صوت الإهانة يزأر في نفسه، لن يقدر على أن يسيطر على رغبة الانتقام الصارخة في داخله، لا أعرف إن كان الرجال جميعاً يفكرون بهذه الطريقة، ويشعرون بتلك المشاعر، لكنني حتماً هذا الرجل.

ردت والدتكِ بصوتٍ يملأه الشوق والفرح، كانت تظن بأنكِ من يتصل بها.

- حيا الله هالصوت!

- مساء الخير!

أجابت بصوتٍ مندهش ومتوجس: مساء النور، من معي؟

- أم خالد؟

- أي نعم، مين معي؟

- معكِ السفارة السعودية في كندا.

صاحت بصوتٍ يكاد أن ينهار: جمانة!، ما بها جمانة؟!

- هي بخير، لا تقلقي.

قالت مشككة وبصوتٍ يرتجف: لماذا تتصلون بي إن كانت بخير؟ ما الأمر؟

- لا أعرف ما الذي أستطيع قوله لكِ، الأمر محرج جداً.

- أرجوك، لقد تعبت أعصابي، قل ما عندك!

- مثلما أخبرتكِ هي بخير، لكن عليها بعض الملاحظات التي أردنا إبلاغكم عنها.

- ملاحظة!، ملاحظة من أي نوع؟

- أبلغ بعض زملائها السفارة أكثر من مرة أنها على علاقة بمبتعث إماراتي، ومثلما تعرفين هي فتاة سعودية، يخشى على سمعتها وصورتها في الخارج.

_ صاحت باستنكار: مستحيل! مستحيل أن تقدم ابنتي على أمر كهذا، مستحيل.

- هذا ما حدث، زملاؤها لن يحاولوا إيذاءها بلا سبب.

- لا أصدق هذا! مستحيل، أنا أعرف أخلاق ابنتي جيداً، وأعرف كيف تربّت، من المستحيل أن يكون ما ذكرته صحيحاً.

- مثلما قلت لكِ، هذا ما حدث، أردنا إبلاغكم لتحلوا المشكلة قبل أن نتدخل نحن في الأمر.

- وكيف ستتدخلون؟

- ستحرم من البعثة بكل تأكيد.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا قدرة لي على أن أصدق ما قلته، ليست جمانة من تفعل ذلك.

- نتمنى أن تحلوا الموضوع بطريقتكم الخاصة، لا نريد أن نتسبب للفتاة بأية مشاكل علانية.

- لا حول ولا قوة إلا بالله، يارب سترك، يارب سترك!

واسيتها بكلمتين حازمتين، مكرراً عليها ما قلته، شكرتني ووعدتني بصوتٍ يرتعش أن تحل الموضوع على طريقتها.

عندما أغلقت مع والدتكِ، شعرت بكل ما يمكن أن يشعر به إنسان، كنت منتصراً وذليلاً، شامتاً وخائباً، شعرت بأنك تستحقين ما فعلته، وشعرت بأنني قد أجرمت بحقكِ.

اضطرب «ضميري» من جديد، شعرت بمعدتي تتضاءل وتنقبض، لكن رغبة الانتقام المتأججة في داخلي كانت ترقص رقصة النصر، كانت ترقص بإعياء شديد.

أخذت هاتفي، كتبت لكِ مهدداً وشامتاً: (أخبرتكِ مسبقاً بأنكِ إن لم تكوني لي، لن تكوني لغيري، تحمّلي النتائج!).

وبعثتها بضمير أنهكه الوجع!

*****

دائماً ما كنت أظن بأن المرأة الغامضة تسحرني، لطالما أحببت المرأة التي لا نتوقع منها شيئاً، لكن معكِ تغيرت كل القناعات.

أعرفك جيداً، أفهمكِ كما لا أفهم أحداً، أعرف ما تحبين وما تكرهين، ما تريدين وما لا تريدين، أتوقع منكِ كل شيء، وأحب هذا كثيراً.

أنتِ لا تشبهينني في هذا، أنتِ لا تفهمينني كما يجب، تعرفين ما أحب وما لا أحب، لكنكِ لا تفهمين لماذا أحب ولماذا لا أحب.

كنتِ تختلفين عني في كلّ شيء، ولا تشبهينني في أيّ أمر، ولا أدري حقاً كيف نتجاذب على الرغم من الاختلاف!

أتذكر أنني دائماً ما كنت أنجذب للواتي يشبهنني، للعابثات، القويات، العنيدات، الشهوانيات وغير المسؤولات.

لم أنجذب يوماً لامرأة تشبهك، ولم أنجذب يوماً لامرأة بقدر ما انجذبت إليكِ أنتِ، أنتِ نقيضي الحاد والمختلف عني تماماً.

أفكر أحياناً أننا نتكامل فعلياً بفعل الاختلاف، لذا لا قدرة لأحد منا على

الانفكاكِ عن الآخر، نحن نكمل بعضنا بعضاً ونملأ النقص الذي يصيح في داخلنا؛ فبقدر ما احتاج امرأة بتول المشاعر لتبتدئ معي، بقدر ما تحتاجين أنتِ رجلاً أنهكته التجارب لينتهي معكِ، كنت أريد بداياتكِ وكنتِ ترغبين بنهاياتي، لذا لم تتقاطع رغباتنا يا جمان.

أتدرين؟

دوماً ما أفكر فيما ينقصكِ لتحبي رجلاً مثلي، فتصدمني نتيجة التفكير الثابتة والتي لا تتغير.

أنتِ لا ينقصكِ في هذه الحياة شيء، خلقتِ في عائلة عريقة، متحابة و حصلتِ في حياتكِ على كل شيءٍ أردته، دللتِ، أحببتِ، عشتِ طفولة مترفة، وكنتِ مقبولة بل مرغوبة في كلّ حالاتك داخل أسرتك، وعلى الرغم من كل ذلك نشأتِ فتاة طيبة، عميقة، لا تخدعها المظاهر الكاذبة، ولا يجذبها نفاق المجتمع ولا تقسو على الآخرين أو تتصرف بطيش مهما فعلت الأيام بها.

أعرف بأنكِ لم تتوقعي يوماً أن أتصل بوالدتكِ بهذا الشكل، لم تتوقعي يوماً أن أتعمد إيذاءكِ، لكنني كنت أحتاج هذا، لن أسمح لأحد بإيذائكِ لكنني لن أسمح لكِ بإيذائي أيضاً ولن أغفر لكِ ذلك.

أحبكِ جداً وأخاف عليكِ كثيراً، لكنني نشأت هكذا، أو فلنقل بأنني خلقت هكذا، أنا لا أعرف كيف يغفر الناس وكيف يتسامحون، لا أعرف كيف يتجاوزون أذية الآخرين لهم، وكيف يستطيعون أن يكملوا حيواتهم من دون أن يثأروا لأنفسهم.

أظن بأنني مسالم جداً، فأنا لا أؤذي إلا من يؤذيني، تقولين أنتِ بأن المسالمة تعني أن لا نؤذي أحداً أبداً مهما فعل الآخرون بنا ومهما أقدموا على

إهانتنا والإساءة إلينا، وأرى أنا بأن هذا مناف للفطرة الإنسانية، من لا يدافع عن نفسه يا جمانة إنسان معتل برأيي، إنسان لا يحترم ذاته ولا يحبها كما يجب عليه أن يفعل.

ما معنى أن يؤلمنا الآخرون، أن يجرحونا، أن يهينونا، وأن نغض الطرف عن كل هذا ونمضي قدماً؟!

هذا يخالف طبيعة البشر، هذا شذوذ فكري وعاطفي وسلوكي لا أستطيع ممارسته ولا اعتناقه!

أنا رجل شبّ على أن يرد الصاع صاعين، وأن يمحي من يحاول خدشه، لا أستطيع أن أكون غير هذا الرجل ولا أريد أن أكون غيره.

ارتفع صوت هاتفي، كانت النغمة المخصصة لك، رأيت هاتفي يهتز على الطاولة وصوت Josh Groban القوي يعانق صورتكِ الناعمة.

You raise me up، so I can stand on mountains

You raise me up، to walk on stormy seas

I am strong، when I am on your shoulders

You raise me up ،To more than I can be

بقيت أطالع صورتكِ وصوت جوش يهز كتفي يذكرني بأنكِ وحدك من يرفعني عالياً، يرفعني أكثر بكثير مما أقدر عليه.

أجبتكِ بغضب: نعم!

سألتني إن كنت قد اتصلت بوالدتكِ، كانت الدهشة والرجاء والإنكار يملأن صوتكِ، شعرت بنبرتكِ ترجوني أن أنفي هذا، كنتِ خائفة من أن أكون حقاً من اتصل بها، خشيتِ أن تنهار صورتي في عينيكِ لذا سألتني بالنفي،

قائلة: «لست من اتصل بوالدتي»!، لم تسأليني إن كنت قد اتصلت بها، نفيتِ اتصالي بها بسؤالكِ، كنت تحثينني على النفي، على الإنكار وعلى الكذب.

عرفت أن الحقيقة أكثر ما سيؤلمكِ، كنت تريدين مني أن أريحكِ بكذبي عليك، كنتِ تدفعينني إلى الكذب راضية، مقابل أن لا أوجعكِ بالحقيقة، لكنني أردت أن أؤلمكِ بالحقيقة هذه المرة، أنا الذي لم أصارحكِ يوماً بحقيقة توجعكِ خوفاً عليكِ من قسوة الحقيقة.

أجبتك ببرود وصرامة وقسوة العالم أجمع: بلى!

صحتِ: أنت تكذب!

كنت تقولين لي بها ومن خلالها: «سأعطيك فرصة الإنكار من جديد»، أنت تكذب!، قل بأنك تكذب، وبأنك لم تفعل، لكنني أردت أن أدهسكِ بالحقيقة فأخبرتك بأنني قد حذرتكِ من إيذائي.

انهرتِ، قلتِ بأنني مريض، وبأن الحقد والشك يعميان عقلي وقلبي، سألتني كيف بإمكاني أن أكون وحشاً فجأة، قلت لكِ بأنك ستعودين إلى الرياض رغماً عنكِ وبأنني قد انتهيت منكِ تماماً.

أنهيت الاتصال وأنتِ تتكلمين، كان زر إنهاء الاتصال في يدي التي أغلقت بها فمكِ، أردت أن أسكت صوتكِ وإلى الأبد!

*****

كنت مضطجعاً أمام الأريكة وياسمين تتجول داخل المنزل بهاتفها المحمول، كنت أراقبها وهي تتحدث بملل تارة وبعصبية تارة أخرى، بالإنجليزية غالباً وبالعربية عندما ترتفع وتيرة عصبيتها، جاءت وجلست إلى جانبي، سحبت من بين يدي كوب الذرة وأخذت تأكل بغضب لم تستطع كبحه.

سألتها: ما الأمر؟

– هيدي الماما.

– شلون الماما؟

– قالت بسخرية: بيضاء الماما.

– ياشيخة!

– ليه بتسألوا «شلونك»، شو دخل اللون بالحال؟

– وأنتم ليه تسألون «كيفك» شدخل الكيف بالحال؟!

– ما الكيف مزاج، والحال مزاج.

قلت لها بقلة صبر: يختي حنا حرين نقول اللي نبي، المهم أيش فيها الماما؟

– مابا شيء.

سكتت قليلاً ثم قالت: بدا إياني إرجع ع بيروت.

– زيارة؟

– لا شو زيارة، بدا إرجع أعيش هونيك.

– ليه شاللي صار؟

– ما صار شيء، بتفتح الموضوع كل فترة لما بتعرف بأنك عندي.

– والسبب؟!

– ما بعرف شو بدي أقلك، الماما ما بتحب فكرة المصاحبة، ما بدا إياني أصاحب، بدا إرجع أستقر في بلدي، أتجوز وجيب أولاد.

_ فهمت.

– أنا بعرف أني منّي صغيرة بس كمان الارتباط منوع الهوى، الواحد مابيعرف أمتين بيتجوز.

- يعني لو تزوجتِ راح تنبسط؟

- يا دلي!، أكيد بتنبسط، الماما لا يهمها مين أتجوز ولا كيف، يهمها أتجوز وخلص، يهمها تقول للجيران وللعيلة أنو ياسمين تجوزت، ما بتحب فكرة أنو أوصل لهالعمر من دون جواز.

سألتها مازحاً: وأنتِ ليه ما تتزوجين؟!

ضحكت: يلا تعا نتجوز!

ابتسمت، كنت أنظر إلى ياسمين، للزمن الذي بدأت سنواته تتضح على ملامحها على الرغم من جلسات البوتكس النصف سنوية، كنت أنظر إلى الملجأ الذي كنت ألجأ إليه دوماً، أعرف بأنها لم تحبني يوماً، وأنها معي لأجلها وليس لأجلي، لكنني شعرت بأنني وعلى الرغم من كل شيء مدين لها.

تراءى لي وجهكِ، أنتِ التي لطالما حلمت بالزواج منها، ولطالما تخيلت ليلة زواجنا معاً، تذكرت كل ما حدث بيننا بلحظات سريعة، شعرت بأنني مكسور بسببكِ، شعرت برغبة في الانتقام تتضخم أمام الفرصة، كنت أحتاج لأن أنتقم منكِ، وأن أسدي ياسمين معروفاً بعد كل هذه السنوات الطويلة.

قلت لها ومن دون أن أفكر في العواقب: تعي نتجوز!

ضحكت، كانت تظن بأنني أبادلها المزاح، قلت لها: أنا جاد، فلنتزوج.

- شو نتجوز؟.. كيف بدنا نتجوز؟

- مثل ما الناس بتتزّوج.

- نتجوز ونعيش مع بعضنا ونجيب أولاد؟

- لا تتحمسين مرة، نتزوج زواجاً مؤقتاً، ترتاحين من نق الماما لفترة.

- عم تمزح!

- والله ما أمزح.

سكتت قليلاً ومن ثم سألتني متشككةً: وأنتا شو بتستفيد؟

- ما راح أستفيد شيء ولا راح يضرني شيء.

- ما بصدق شو مجنون!

ابتسمت بينما كانت تتأملني بحيرة وتوجس، شعرت بأنني أسمع صوت أفكارها، قالت: خليني أفكر.

- كلها كم يوم وأسافر، ما في وقت للتفكير.

- صحيح الماما بدا إياني أتجوز، بس كمان مو هيك، مو حلوة تلفن بكرى وقلّها «ماما أنا أتجوزت»، أنا بدي تفرح ما تنجلط.

_ أبعثي لها كمان يومين، قولي لها عبد العزيز خطبني وراح نتزوج زواجاً سريعاً، وبعدها بأسبوعين قولي لها إننا تزوجنا.

صمتت قليلاً وضحكت فجأة، قالت وهي تخفي وجهها بكفيها: يالله! شو مجنون!

- أيش رأيك؟

ابتسمت: طيب لنفترض أني وافقت، اللي بدن يتجوزوا لازمهن محابس، كيف بدنا نتجوز بدون محبس؟!

سحبت معطفي المرمي على الأريكة، أخرجت من محفظتي الدبلة التي ابتعناها أنا وأنتِ معاً، رفعتها لياسمين قائلاً: هذا محبسي، روحي أشتري لك أحلى محبس.

مسكت دبلتي وأخذت تقلبها، سألتني بدهشة: ليه بمحفظتك محبس؟

قلت بسخرية: للطوارئ!

ضحكت: بحكي عن جد، لمين هالمحبس؟

أخذته من يدها: شو بدك في لمين ومن مين، روحي أشتري محبس لك وخلاص.

قامت من مكانها وشدتني من يدي بمرح وحماس: هيييه بدنا نتجوز، تعا نختار المحبس سوا.

مددت لها ببطاقة البنك الائتمانية، قلت: أنا ما لي مزاج أطلع، روحي أنتِ واختاري اللي يعجبك.

أخذت بطاقتي من يدي وقبّلتني بسعادة، قامت لتغير ملابسها بحماس، استوقفتها: جازمن!

- حياتي!

أشرت بأصابعي: تيفاني، كارتيير، شوبارد.. لا تطبينهم!

- شو يعني لا تطبينهم!

- يعني it's prohibited buy from these stores

- شو غليظ!، يلا باي ما حاتأخر.

خرجت ياسمين، أغلقتُ التلفاز ورحت أفكر في هذا الجنون! فكرت في هذه الحياة العبثية التي أعيشها منذ أيام، فكرت في كل تصرفاتي وأفكاري ومشاعري التي بت أشعر بأنني لا أتحكم بشيء منها.

ما أقوم به كان جنوناً، لكنني كنت بحاجة لشيءٍ من الجنون، كنت بحاجة لأن أتخبط حتى أنهار وأسقط.

فكرت فيما تفعلينه الآن، وفيما ستفعلين لو عرفتِ بما سأقدم عليه، أعرف أنني أغامر كثيراً هذه الأيام، بأنني أجازف بكِ بجنون لا يعقل، بأنكِ

ستتسربين من بين يدي، بأنني أفلتكِ، وبأنكِ ستضيعين بعيداً عني، بل أنا من سيضيع بعيداً عنكِ.

لا قدرة لي على التحكم بالوجع المتلاطم في داخلي يا جمانة، جوقة الوجع تعزف داخل نفسي مقطوعة ذات نوتات عالية، وروحي ترقص بأسى ويأس وبؤس غجري لا يوصف.

أخذت هاتفي، أرسلت رسالة لياسمين، قلت لها: اسألي عن إجراءات الزواج ونسِّقي كل شيء، رميت هاتفي بعيداً عني وأنا أفكر: كم أنا مجنون فعلاً!

*****

تزوجت ياسمين اليوم، من دون أن أفكر وبدون أن تفعل!

لم يكن زواجاً حقيقياً، كان زواجاً قانونياً، لكنه لم يكن يحمل ملامح الزواج الحقيقي، احتفلت أنا وياسمين على طريقتنا، اجتمعنا مع أصدقائها في مطعمها المفضل واحتفلنا كأي احتفال!

لم أشعر بأنه زواج، وأنا على يقين من أنها لم تشعر بذلك هي أيضاً على الرغم من الحماسة والسعادة اللتين أبدتهما خلال وجود أصدقائها.

في تلك الليلة، رأيت في نومي أنني في منزل عائلتكِ، كان مكتظاً بأناس لا أعرفهم، كنت تجلسين أمامي بملامح طفلة، وطوق وردي يزين شعرك المجعد الطويل، غافلتُ الناس وحركت شفتي قائلاً بدون صوت: «أحبكِ، نظرتِ إليّ و أشحتِ بوجهكِ بعتب».

استيقظت من حلمي الغريب لأجد ياسمين تنام بجواري، رحت أتأمل تلك التي هربت إليها منكِ، إلهي لكم هو مؤلم أن يشتاق رجل لامرأة وهو بجوار امرأة أخرى؟!

لطالما فكرت بذلك، كل ليلة كنت أستيقظ فيها لأجد ياسمين بجواري منذ أن عرفتك وأنا أفكر، كيف يتزوج الرجل من فتاة وهو يحب أخرى؟!.. وكيف يستمر الرجل في الحياة عندما تتزوج حبيبته من آخر؟!.. كيف ينام وهو يدرك بأنها تنام مع غيره الآن؟!

اليوم تزوجت من امرأة أخرى لكنني حلمت بكِ في ليلة زواجي، وها أنا أقاومك في ليلة الزواج، أقاوم حبي لكِ، وكذلك شوقي الذي يكاد أن يخنقني بيديه هذه الليلة.

نهضت من فراشي، ذهبت إلى المطبخ، شربت بعض الماء وأمسكت بهاتفي الذي لم يصلني عبره شيء منكِ منذ أيام طويلة، ترددت قليلاً، لكنني أرسلت، كتبت لك ما رأيته في الحلم، بدون تحية أو وداع، قصصت عليك الحلم فقط وأرسلت الرسالة.

انتظرت إجابتكِ وأنا في المطبخ، كانت الأفكار ترقص رقصة الحرب الصاخبة داخل رأسي، بقيت في مكاني لساعتين ولم تأتني منكِ إجابة، أخذت هاتفي، كتبت رسالة لأصدقائي المقربين في تورنتو «خمنوا ما الذي فعلته هذه الليلة؟..... تزوجت من ياسمين».

أرسلت الرسالة وعدت إلى سريري، اضطجعت بجوار ياسمين، ضممتها بشدة المشتاق إليكِ وأنا أفكر فيما سيحل بأصدقائي حينما يقرأون رسالتي، ورحت أفكر فيما فعلته طوال الليل!

****

تؤمنين أنتِ بأن الخيانة تقع ما إن تصبح «فكرة»!

تظنين بأن التفكير بالخيانة هو خيانة كاملة، حتى وإن لم يحدث شيئ فعليّ، تناقشنا أنا وأنتِ كثيراً بخصوص هذا الموضوع، قلتِ لي يوماً: تقع الخيانة حالما يفكر الإنسان بها وإن لم يشرع فيها.

قلت: إن كان الله لا يحاسب على هذه الأفكار إن لم تترجم لأفعال، فكيف تحاسبين أنتِ عليها؟

- وما هي الخيانة بنظرك ياعزيز؟

- بالنسبة إليّ، الخيانة هي خيانة جسدية فقط.

- ألا يخون الإنسان بالنظر؟ بالحديث؟ بعلاقة من دون جنس؟ بالفكرة؟

- لا، لا يخون الإنسان بهذا الشكل، ما لم يعاشر الإنسان طرفاً ثالثاً عدا شريكه، لا يعد الأمر خيانة.

قلتِ بعصبية: أي حب هذا ياعزيز؟

- هذا هو حب الرجل، مثلما تتحدثين أنتِ من خلال حب المرأة.

- لكم أكره هذا الاختلاف!

- الاختلاف بين الأنوثة والذكورة؟

- بل الاختلاف بيننا!

- ومن قال إن هذا الاختلاف محصور بنا؟ هذا اختلاف جنسي وجذري، هكذا هم الرجال وهكذا هن النساء، لا يقتصر الأمر عليَّ وعليكِ يا جمانة.

صمتِّ قليلاً وقلتِ: ربما ياعزيز، ربما!

سرحتِ بأفكاركِ بعيداً عني، كنت أرقبكِ تتأملين من حولنا رجالاً ونساءً، وكأنكِ تتفحصين الاختلافات بين الثنائيين من حولنا، كنتِ تبحثين عن اختلافاتهم وخلافاتهم وكأن وجودها لدى الآخرين سيطمئن قلبكِ ويعزيكِ.

أنا أعرف بأنكِ تبحثين بي عن شيئ يشبهك، تريدين أن نتشابه، أن نتطابق وأن نتوازى.

تظنين بأن هذا سيجعل حياتنا أكثر هدوءاً واستقراراً، تعتقدين بأننا سنكون أسعد لو أننا كنا متشابهين، لكننا لسنا كذلك جمان، نحن لا نتشابه.

أذكر أنني قد بثثت بخوفي من هذه الفكرة إلى زياد، قال لي بحكمة: في كل علاقة هناك اختلافات وهناك تشابهات، لا تبحث عما تختلفان فيه، فلتبحث عما تتفقان عليه وفيما تتشابهان فيه.

والحق إن اختلافنا بعينه لا يخيفني يا جمانة، ما يخيفني فعلاً هو خوفكِ أنتِ منه!، يخيفني بحثك الدؤوب على أوجه تشابهنا، يخيفني إحباطكِ من اختلافاتنا، يخيفني أن تجدي يوماً ما من يشبهكِ، فأخسركِ بسبب اختلافي عنكِ!

يخيفني هذا كثيراً يا جمانة!

*****

طال غيابكِ هذه المرة!

لم تجيبي على رسالتي، ولم تتصلي، غبتِ، فقررتُ أن أجاريكِ في الغياب، كنت أنتظر أن تفقدي صبرك، وأن تعودي إلي من دون أن أدعوكِ إلى العودة، لكنكِ لم تفعلي، طال غيابك بمقدار الخيبة، وقصرت لا مبالاتي بمقدار الانتظار.

كنت أذهب إلى الجامعة في كل يوم، أفتش عن وجهك بين الوجوه، فيلوكني غيابه مرة تلو أخرى، أعود في نهاية كل يوم إلى البيت لأقابل سخرية باتي وروبوت من تغيري بابتسامة محبطة متثاقلة وخائفة.

لن أنكر ذلك، أخافني غيابك يا جمان! لم أكن مستعداً لتلك الخسارة ولا لهذا الفقد المفاجئ، أدرك بأنني جازفت بكِ وقامرت بحبكِ، لكنني كنت

واثقاً بكِ ومؤمناً بما بيننا، وإلا لما راهنت عليه وعليكِ، فلِمَ خذلتني بذلك الغياب!

بعد أكثر من أسبوع ممل وطويل، قابلني زياد بوجه متوجس، قال: ستأتي جمانة بعد قليل، أرجوك لا تزعجها!

سألته: أليس من الغريب أنك من ينقل إلي أخبار جمانة ومن يرجوني أن لا أزعجها؟!

أجابني مرتبكاً: هيفاء من أخبرتني بذلك.

قلت بحزم: على أي حال، أعرف كيف أتفاهم معها، ولا أظن بأن أحداً يعرفها كما أفعل.

كنت أدرك أنني لم أتكلم يوماً مع زياد بتلك اللهجة، لكن شيئاً مراً لطالما تجاهلته بخصوص زياد بات يزعجني كثيراً ويزيدني توتراً.

لم تعجب زياد لهجتي ولم يعجبني ما قاله، فتراشقنا بصمتٍ لاذع لدقائق طويلة، حاولت أن أشغلها بالعبث بالقلم الذي أهديتني إياه يوماً، أما زياد فقد كان يعبث بخصلات شعره الناعمة كعادته حينما ينزعج، حتى جئتِ!

مجيئكِ لم يكن عادياً ذلك اليوم، لم يخفق قلبي لرؤيتكِ مثلما حدث في تلك المرة، شعرت بأن خطواتكِ تدوي في قلبي وبأنكِ تدوسين عليه، كانت خطواتكِ نبضاتي، خطوة نبضة، نبضة خطوة!

حييتنا بيدك ما إن لمحتني وزياد، لوحتِ بكبرياء واعتداد، لوح زياد إليكِ وكذلك هيفاء، رأيتكِ تسحبين هيفاء بيدك متجهة معها نحونا.

اقتربتِ فكدتُ أن أختنق بأنفاسي الثقيلة المتسارعة، أشار زياد بيديه إلى مقعدين أمامنا قائلاً: تفضلا!

أخبرته هيفاء باقتضاب بأنكما تنتظران محاضرتكما، فأجابها زياد

أن الوقت مبكر على بدء المحاضرة وتبادلا مزاحاً سخيفاً حيال البروفسور المحاضر بينما كنتِ تستمعين إليهما بابتسامة صفراء، مفتعلة ومكابرة.

قاطعت حديثهما: جمانة كيف حالك؟!

أجبتني: طيبة يا عبد العزيز، أنت شلونك؟!

كنت أستمع إلى اسمي منكِ لأول مرة، لم تناديني يوماً إلا عزيز، ولا أناديكِ غالباً إلا جمان، كنت أعرف أنك تجلدينني باسمي، وبأنكِ تعاقبينني بأن تناديني مثلما يناديني الناس.

سألتكِ بعتب: عبد العزيز؟!.. منذ متى تنادينني عبد العزيز يا جمان!

كنت أنظر في عينيك، فأرى الغضب، القهر، الخذلان، وكذلك العتب الذي يملأهما، رأيت عينيكِ تتبللان، وكأنني لطمتك بسؤالي، سقطتِ على الكرسي فجأة، أخفيتِ وجهكِ بيديك وبكيتِ كل شيء!

بكاؤكِ لم يكن عادياً، لم يكن بكاءً بقدر ما كان اختناقاً بالبكاء، لم يكن بكاء حب ولا فقد ولا شوق ولا حزن، كان خليطاً من كل هذا ومن كل شيء، وكأنكِ قد قررت أن تفتحي مراسم العزاء علناً على حب غدر به فمات شهيداً.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرفعكِ إلي، ضممتكِ وأنتِ تبكينني، أنا الذي لطالما حلم أن يضمكِ إليه فرحاً، ضممتك بعد أربع سنوات وأنتِ تبكين خيبة مني وحزناً عليّ!

همست بأذنكِ: أنا آسف! والله آسف.

كنتِ تدفعينني وأنتِ تسألينني من بين دموعك: ليه؟!.. ليه بس ليه؟!؟

كنت أشعر بالضجيج من حولي، بهيفاء التي كانت تصرخ بأن نحملكِ إلى المستشفى، وبزياد الذي كان يحاول أن يهدئكِ، ببكائك الدامي، وبسؤالك الذي لم أكن قادراً على إجابته!

لم أكن قادراً على أن أفعل شيئاً، ضممتك بشدة، تشبثت بكِ وبقيت أهمس في أذنكِ متجاهلاً من حولنا، كنت أشعر بنبضات قلبك تهدأ وبأنفاسكِ تستكين، تشبثتُ بكِ كطفل وليد لا يعرف في الدنيا حضن أمٍّ سواكِ، سكنتِ على صدري، أغلقتِ عينيكِ وغبتِ، حملتكِ مع زياد وهيفاء إلى المستشفى، لم تحتمل أعصابك وخبرتك القصيرة، المترفة والسطحية بالحياة موقفاً كالذي وقع بيننا، كنت أكبر خساراتكِ على الإطلاق، كنت فجيعتكِ الكبرى وحزنك الأعظم في الحياة.

سألتني حينما استيقظتِ لماذا فعلت بكِ ذلك، طلبت منكِ أن تهدأي وتنامي، صرختِ في وجهي: لماذا؟!

قلت لك إنني حقير ومعتوه وابن ستة وستين كلباً، ورجوتكِ بحرارة أن لا تغضبي مني، كنت أرجوكِ دامعاً أن لا «تزعلي»، وحاولت أن أبرر ما فعلته بخوفي عليك، لكنكِ كنتِ حازمة تلك المرة، أبيتِ أن تستمعي لمبرراتي، قلتِ إنكِ متعبة وبحاجة لأن ترتاحي، رجوتكِ أن تستمعي إلي، أن نبتدئ من جديد، وأن نتزوج يوماً.

سألتني بعتب غاضب وخائب لماذا انتظرت أن يحدث كل هذا لأفكر بالزواج، وطلبتِ مني أن أغادر الغرفة لتنامي، سألتكِ إن كان بإمكاني أن أتصل بكِ لأطمئن عليكِ، رفضتِ طلبي باقتضاب صارم لا يليق بكِ.

في طريقي للمغادرة، قالت لي هيفاء بسخرية وهي تشير إلى كحلك الذي لطخ قميصي: لا تنس أن تبدل قميصك قبل أن تذهب إلى زوجتك، المسكينة!.. سترى الكثير معك!

لم أرد تلك المرة على هيفاء، كنت أشعر بأن انهياركِ قد أنهكني، غادرت المستشفى مع زياد من دون أن نتبادل حرفاً، كنت أشعر بأنني قد تركت قلبي

ومشاعري وأفكاري وحروفي معكِ، تحسست سواد كحلك على قميصي وتنفست عطرك الذي تشربه جسدي قبل ملابسي وأنا أفكر، لماذا أضعتك؟!

****

باتت الأيام تتشابه، لم أعد أميّز من أيامي شيئاً، أستيقظ في كل يوم بانتظار أن يمن الله عليَّ بعودتك، لكن انتظاري يطول بلا عودة ولا استجابة، فأنام كل ليلة على يأس، واستيقظ كل صباح على أمل ورجاء.

دفعني انتظار عودتك لأن أكره كل شيء، ولأن يثير حنقي أي شيء، لم أتوقع غيابكِ يوماً، على الرغم من أنني أغيب عنكِ كثيراً إلا أنني كنت أدرك في كل مرة أغيب فيها، ومهما طال الغياب أنني سأجدكِ في نهاية غيابي بانتظاري.

عبثتِ بي بغيابكِ كما لم تفعلي قطّ، لم تجروئي يوماً على أن تجازفي بالغياب لمدة طويلة، لم تغيبي عني خلال السنوات الأربع التي جمعتنا مثلما غبتِ هذه المرة، على الرغم من خلافاتنا وشجاراتنا، وكذلك غيابي!

لم أتوقع منكِ هذه القسوة يا جمانة، أنتِ المرأة التي خلقت من مغفرة، كيف تنتقم مني بكل هذا العنفوان؟!

أعود إلى الحكيم أوشو في كل مرة تغضبينني فيها لأنتقم منكِ من خلال أفكاره، تكرهين أوشو كثيراً، تظنين أنه دجال، وأنه شاذ الرغبات، يعبث بأفكار البشر ومشاعرهم عن طريق إيهامهم بالسلام والروحانية، أذكر أننا كنا نتناقش عن البعد يوماً، قلت لكِ إنني مؤمن بما قاله أوشو عن البعد، حيث يؤمن أن الوهم الجميل يخلقه البعد، وأن القرب يفضح حقيقة الإنسان وجوهره.

سألتني: ألا تؤمن إلا بما يقوله الدجالون؟!

- هو حكيم وليس بدجال.

- بل هو أعظم الدجالين، أوشو مريض، مدّعٍ، كاذب ومجنون، أوشو كراسبوتين وكأحمد القدياني، جميعهم دجالون لا فرق بينهم.

- لا يهمني أن تؤمني به أو أن تصدقيه، المهم أن ما ذكره بخصوص البعد حقيقي وواقعي.

قلتِ باستنكار: ومن قال إنه حقيقي؟!

- ألا تؤمنين أن البعد يجعلنا أجمل، وأن القرب يخفف من لهيب العاطفة ويفضح عيوبنا ويكشفها؟!

قلتِ بعناد: لا، لا أظن ذلك.

قلت لكِ بسخرية: أنتِ تخشين فكرة المسافات والغياب والابتعاد، لذا لا تريدين الاقرار بالحقيقة.

- أنا مؤمنة أن البعد يجعلنا نعتاد الغياب، قد يدخلنا في حالة شوق في بداياته، لكننا في نهاية المطاف سنعتاده، لذا لا أؤمن بأن البعد يجعلنا أجمل.

- أنتِ تفكرين بعقلية النساء، هناك مفاهيم من الصعب أن نتفق عليها، تنظرين إلى الأمور من خلال ثقب أنثوي ضيق، وأنظر إليها من خلال زاوية ذكورية واسعة، وشأن رجولي بحت.

قلتِ بقهر لم تتمكني من إخفائه وأنتِ تنظرين بعيداً: شؤونك الرجولية سخيفة!، تعزي كل الأمور السيئة إلى شؤون الرجال، كل خطيئة ترتكب هي شأن رجولي، كل سلوك خاطئ، وكل تصرف لا يليق، وكل فكرة بذيئة، وكل نظرة وقحة هي شأن رجولي يجب عليّ تفهمه واحترامه واعتياده.

قلت لك بسخرية محاولاً تغيير الموضوع: على العموم لا تقلقي، على الرغم من أن البعد أجمل، إلا أنني سأتزوجكِ يوماً وسأستر عليك!

أحمر وجهكِ غضباً، قلتِ وأنتِ تقاومين دموعك: الحمدلله، أنا مستورة من قبل أن أعرفك!

حملتِ حقيبتكِ وخرجتِ مسرعة، ناديتك لكنكِ لم تتوقفي، كنت أعرف بأنني جرحتكِ كعادتي، ولا أعرف حقيقة إن كنت قد تعمدت إيلامكِ بمزحة لاذعة أم أنني فعلاً لم أقصد إهانتك!

أشعر أحياناً بأن قوة داخلية خفية تدفعني لأن أجرحكِ، أفكر كثيراً في أسباب إهانتي إياكِ ولا أصل إلى قناعة أو سبب.

لم أشعر يوماً تجاه أحد مثلما أشعر حيالك، شيء فيكِ يستفز رغبتي بالتجريح، لكنني وعلى الرغم من ذلك أندم كثيراً على تجريحي لكِ، أظن أحياناً أنني مريض، الرغبة العارمة التي تنتابني بين الحين والآخر بأن أؤلمك بكلامي لم تكن طبيعية قطّ، ولا أعرف حتى الآن مصدرها أو أسبابها!

أظن أحياناً أنني أرغب في لاوعيي بأن تكرهيني، وأظن أحياناً أنني سادي يتلذذ بإهانة من تحبه وتحتاجه؛ بكل الحالات، أدرك بأنني معتل بشكل من الأشكال وبطريقة ما لا أفهمها.

سألتني ذات مرة: لماذا تعاملني بفوقية؟!

أجبتكِ: لأنني رجل ولأنك امرأة.

قلت: وإن يكن! أنت رجل يدعي الديمقراطية الجنسية، والإيمان بالمساواة، فلماذا تظن أنك أفضل مني لكونك رجلاً؟!

قلت بلامبالاة محاولاً إنهاء الحديث: هو موروث اجتماعي نفسي لن أقدر على الخلاص منه.

قلتِ بسخرية: من يعامل الآخرين بفوقية هو شخص يشعر بالدونية من قبل أشخاص آخرين.

- أتقصدين بأنني أشعر بالدونية أمام المرأة؟

- ليس بالضرورة، لكنك تشعر بالدونية من قبل أحد، لذا تمارس الفوقية على من تستطيع ممارستها عليه.

قلت لكِ محاولاً استفزازكِ: بمناسبة المرأة والرجل، أوشو يؤمن أن في داخل كل رجل امرأة ورجلاً، وكذلك في داخل كل امرأة ، امرأة ورجل، هو يؤمن بأننا جميعاً آدميون وحوائيون، حوائيونَ وآدميون!

قلتِ: ويؤمن أن البعد يجعلنا أجمل.

- صحيح!

قلتِ بعتب ساخر: وعلى الرغم من ذلك ستتزوجني وستستر عليَّ!

كان قد مضى على قولي ذلك أكثر من شهرين، لكنكِ كنت لا تزالين مجروحة منه، قلت لكِ مداعباً: خلاص يا حقودة لا تزعلي، ما راح أتزوجك ولا راح أستر عليك، أنا مدري وش لقفني وقلت اللي قلته، أصلاً أنا مو راعي زواج!

أحمرت أذناكِ غضباً، وقمت من مكانك مغادرة المكان، وأنا أضحك!

كانت نظرية أوشو عن البعد، مصدر ألم بالنسبة إليكِ وأداة إزعاج أجلدكِ بها وأزعجكِ فيها، لكنني لم أعد أؤيد نظرية البعد تلك، أصبحت أخاف البعد يا جمانة، بعدكِ لم يُبقِ لي حائطاً أستند إليه، نزعتِ عني ستري ببعدكِ عني.

بتّ أخشى اعتيادك بعدي، بتّ أخشى البعد والمسافة والغياب، كفرت بأوشو، فهل عدتِ لتؤمني بي ولتستري عليَّ؟!

****

لكل منا، حكايته مع الحلم.

سألتكِ في بداية تعارفنا: ما هو المكان الذي كنتِ تحلمين بأن تلتقي فيه بفارس أحلامكِ؟

أجبتِ بلا تفكير: في المكتبة.

- حقاً؟

قلتِ بحماس وبأفكار متسلسلة ومنظمة وكأنكِ راجعتِ السيناريو قبل هذه المرة ألف مرة: كنت أحلم بأن ألتقي فارس أحلامي في المكتبة، أرفع يدي نحو رفٍّ عالٍ، بينما أطّلع على بعض الكتب، أمسك كتاباً فيسقط من يدي، ليقترب مني شاب وسيم، مثقّف، طيّب وشاهق، ويرفع الكتاب من الأرض ويمده إلي، تلتقي أعيننا ونقع في الحب ومن ثم نتزوج.

- من الواضح أنكِ متأثرة بأفلام هوليوود.

- وأنت، كيف كنت ستلتقي بفتاة أحلامك؟

- في الطائرة، وفي رحلة طويلة، غالباً كانت ستكون الرحلة من الرياض إلى تورنتو، تجلس فتاة جميلة بجواري لنتعارف في الساعة الأولى من إقلاعنا ونثرثر طوال الرحلة من دون أن يقطع ثرثرتنا سوى الترانزيت الذي نتناول أثناءه غداءنا معاً ونستكمل فيه ما تبقى من ثرثرة.

- على هذا الأساس، سأعتقد بأنك تعرفت على كل الفتيات اللاتي جاورنك في رحلاتك!

- من سوء الحظ، لا يجلس بجواري سوى الرجال والأطفال والعجائز.

- من سوء حظك، ومن حسن حظي.

- وكيف تتمنين أن يتقدم لك فارس أحلامك بالزواج؟ صِفي المشهد لي.

- هناك مشاهد كثيرة في رأسي، لكن أجمل مشهد هو أن أحضر ندوة أو أمسية لحبيبي المثقف، ليقول في نهايتها بعد أن يشكر السادة والسيدات على حضورهم، إنه سينتهز هذه الفرصة ليعبر لي عن حبه الكبير، وليخبرني بأنه لم يحب امرأة سواي في حياته، ولذا هو يأمل أن أقبل به زوجاً، ليقف الحضور ويصفقوا لنا فرحين.

- ما شاء الله، فكرتِ وخططتِ لكل شيء، ألا يوجد في مخيلتك مشهد أسهل؟!

ضحكتِ: فلتحمد الله، وصفت لك المشهد الأسهل!

- مشكلة! من أين أجيء لك بندوة وجمهور.

قلتِ مبتسمة: لا بأس، صِفْ لي مشهدك.

- فكرت أن أضع لك دبلة في «كب كيك».

- تقليدي لكن رقيق!

- على أي حال، أخبريني حينما تتواضع أحلامك، في بيتي مزيج كيك من «بيتي كويكر» ستنتهي صلاحيته خلال عام.

ضحكتِ: هل من المفترض أن أتحمس؟

- طبعاً، الفتيات يحلمن بالزواج طوال الوقت.

- لكنني لست منهن.

قلت لكِ مستفزاً: بل أنتِ الملكة، ملكة اللاتي يحلمن بالزواج، وسأثبت لكِ ذلك يوماً.

قلتِ بتحدٍّ: سنرى كيف ستثبت ذلك يا عزيز!

تذكرت حديثنا ذاك بعد ثلاثة أشهر، أعددت لك كعكة واحدة، ودعوتكِ للخروج في نزهة بالحديقة، ارتديت بذلة رسمية كنت أرتديها عادة في احتفالات السفارة السعودية خلال الأعياد، وبقيت أنتظركِ على الكرسي حتى جئتِ.

مظهري لم يكن غريباً بالنسبة إليكِ فقط، كان غريباً لكل من كان في الحديقة، رأيتكِ تقتربين رافعة حاجبيكِ بدهشة، قلتِ ما إن اقتربتِ: ما كل هذه الأناقة؟

- ألم يعجبك شكلي؟

قلتِ برقّة وأنتِ تجلسين بجواري: لا لا، على العكس، لكن لو كنت أعرف أنك ستكون بهذه الأناقة لارتديت ما يناسبه.

- أنتِ أنيقة بكل حالاتك، انتظري لدي شيء لك.

أخرجت من كيس بجواري قطعة الكيك، مددتها لك: تفضلي.

أخذتِها وابتسمتِ بدهشة، كان وجهكِ قانياً، قلتُ: هيا تناوليها.

ضحكتِ بخجل: الآن؟

- الآن!

أخذتِ تأكلين الكعكة بخجل وبقضمات صغيرة حتى انتهت، قلتِ باستغراب وأنتِ تلعبين بورقة الزينة التي كانت تغلف الكعكة: أها؟

قلت: أعجبتك؟

- أها!

قلتُ بسخرية مبتسماً: بالعافية!

- الله يعافيك، وبعدين؟

- ولا قبلين!

قلتِ بعصبية: ما الحكاية؟

- لا حكاية ولا رواية، خشيت أن تنتهي مدة صلاحية الخليط، فقررت أن أعدّ لك واحدة.

- هكذا إذاً!

قلت وأنا أضحك: أرأيتِ كم تحلمين بالزواج؟!

قلتِ بعصبية وبوجه محرج: أرأيت كم أنك سخيف؟!

قمتِ من مكانكِ وتركتني أضحك خلفك، ناديتكِ لكنكِ لم تلتفتي إلي، ركبتِ سيارتك ورحلتِ مسرعة، أرسلت إليكِ برسالة على هاتفكِ، كتبت «كنت أمزح معكِ»!.

أجبتِ: «مزاحك سخيف وتافه».

بعثت: «دعابة، ألا تحبين الدعابات»؟.

كنت أتوقع أن تجيبي علي بـ «دعابة يعني»؟ كالعادة، لكنكِ لم تقوليها هذه المرة، ولم تردّي على رسالتي الأخيرة، فعرفت أنكِ قد غضبتِ مني فعلاً.

صالحتكِ وأرضيتكِ بعدها بيوم واحد، وقررت في نفسي أن أعوضكِ يوماً، وأن أفاجئك على حين غرة!

*****

اليوم، أجلس في مقهانا وحيداً، أمامي فنجان قهوة، وديوان نيتشه، وسجائر ملّت مني ومللت منها.

اليوم أستشعر وجودكِ في الأنحاء، أشعر بك فعلاً!، أشعر بك أنتِ البعيدة جداً، الحانقة كثيراً، والمخذولة حتى اللانهاية.

محبطة أنتِ إلى آخر حد، وأعرف إلى أي درجة من الإحباط وصلتِ، لكني أعرف أيضاً بأن إحباطي قد تجاوز حدود إحباطكِ بكثير، أنا الرجل الذي بات لا يملك شيئاً بعدكِ، والذي كان يملك كل شيء بوجودكِ معه.

لا أفهم كيف فعلتِ بي هذا، كيف استعمرتني بكل هذا العنفوان، وكيف غرستِ أوتاد حبك في قلبي بكل هذه القسوة والثبات.

نيتشه الذي يشاركني وحدتي اليوم، هو نيتشه ذاته الذي لا تحبينه، والذي أخبرتني يوماً بأنني سأموت وحيداً مجنوناً مثله.

أتصدق نبوءتكِ يا جمان فأموت مثله! أأموت كرجل بات يشاركني حياتي بصمت الموتى، ليقنعني بأن الوجود يسبق الماهية، أنا الذي لم أستوعب يوماً ماهيتكِ الغريبة، والذي لم أقدر على تفسير لغز وجودك، ولغز طغيان حضورك الذي لا يضاهيه في طغيانه حضور.

أنا اليوم لا أعرف كيف فرطت فيكِ ولماذا فعلت، كل ما أعرفه يا جمان هو أنني كنت مذعوراً من إيذائكِ، أنتِ التي لا تؤمن إلا بالعلاقات الخالدة، أنتِ التي قد يقتلها ارتباطها بي مثلما يقتلني انفصالي عنها، أنتِ التي وضعتني في مأزق الاختيار، فإما الإقدام على المجهول وإما الفرار.

لقد كنت خائفاً من تحوّر علاقتنا يا جمان، كنت أريد الاحتفاظ بكِ كما أنتِ، من دون قيود أو تغيير في نمط العلاقة.

أعترف بأن حاجتي الجسدية إليكِ تزداد تأججاً بفعل الحب، لكنني قادر على أن أكبح كل رغباتي في سبيل أن لا أخسرك بفعل الزواج.

أدرك بأنه من الصعب على فتاة مثلك أن تتعايش مع رغبات رجلٍ مثلي، امرأة متشربة بالطهر حتى آخرها لا قدرة لها على تفهّم احتياجات رجل، لكنه ليس ذنبي!، الذنب ليس ذنبي يا جمان.

أنتِ من جاءتني متأخرة! أنتِ انتي جئتني بعد أن اعتدت على تلبية حاجاتي واحتياجاتي، جئتني بعد أن أفسدني الزمن، بعد أن سلبني كل أسلحة المقاومة، جئتني بعد أن اعتدت على الاستسلام لكل رغبة تغامرني، سواء أكانت صغيرة أم كانت ضخمة، أنا رجل لم يعد يملك القدرة على التحكم برغباته يا جمانة، فقدت القدرة على السيطرة عليها، فلا تلوميني على حماقاتي.

صدقيني يا جمان، لم تشعرني الخيانة يوماً بالسعادة، أنا لا أخونكِ لأنني مستمتع بالخيانة، لكنني اعتدتها، اعتدت هذا النمط من الحياة لا نقصاً فيكِ بل عيباً فيّ.

فتاة مثلكِ تدرك أننا ندمن العادة، وأنا اعتدت هذه الحياة ولا قدرة لي على الإقلاع عنها بسهولة أو الانسحاب منها جذرياً.

أحتاج لأن تصبري يا جمانة، من يدري!، فقد أشفى من هذه الحياة يوماً.

*****

فتحت بريدي الإلكتروني ككل صباح، كنت أبحث عن رسالة تحمل اسمك من بين عشرات الرسائل الدعائية اليومية، كنت أنزل بالمؤشر بحثاً عن حروف اسمكِ ليحبطني غيابه من جديد.

وجدت بانتظاري رسالة من موقع Future Me الشهير، الموقع الذي يسمح لمستخدميه إرسال رسائل مستقبلية لأنفسهم.

جاءتني الرسالة بعنوان: «رسالة من الماضي إلى السيد عبد العزيز»، كنت قد كتبتها معكِ قبل أربعة أعوام في مقهى Mash... فتحت الرسالة وذاكرتي تحاول استرجاع ما كتبته، كنت قد كتبت فيها بأنني أجلس معكِ في المقهى، وبأن كل واحد منا يكتب الآن رسالة إلى مستقبله الذي اتفقنا على أن يكون استقبالنا له في منتصف 2008م، تحديداً في مثل هذا اليوم!

كتبت رسالة طويلة إلى نفسي، قلت فيها بأنني في أفضل حالاتي بل في أسعدها، وبأنني لم أحب يوماً امرأة بقدر ما أحببتكِ، كتبت بأنك تخنقينني بغيرتك وبأنني متأكد من أنك ستكونين قد تخلصتِ من هذا الطبع في الوقت الذي سـأستقبل فيه الرسالة، أوصيت نفسي في الرسالة أن أتمسك بكِ، وأن لا أفرط فيكِ مهما حدث بيننا، كتبت: «إن كنت معها الآن فلتحافظ عليها، وإن كانت الأيام قد فرقت بينكما فابحث عنها واستردها»، في نهاية الرسالة تركت ملحوظة صغيرة لكِ: «جمانة، عودي إلى الحروف المرفقة إن أضعتِ الحقيقة يوماً»!

قرأت الرسالة وكأنني لم أكتبها قطّ، كنت قد نسيت أمرها تماماً، جاءت تلك الرسالة من الماضي في وقتٍ دقيق وحساس وكأنها إشارة من الله إلي، إشارة إلى أن أحاول استردادكِ ودعوة لكِ بأن تستفتي قلبك!

كنا قد اتفقنا أن تبادل الرسائل فور وصولها حتى لو كنا قد افترقنا، أعدت توجيه الرسالة إليكِ، أرسلتها من دون أن أعلق عليها بحرف، بقيت أنتظر طوال اليوم أن تعيدي توجيه رسالتك إلي، لكنكِ لم تفي بوعدكِ ولم تفعلي.

كنت أفكر وأنا أنتظرك، كيف تخلفين بوعدك؟ وكيف أصبحتِ بهذه القسوة فجأة؟!

مكسور أنا «كعادتك»، قاسية أنتِ «كعادتي»!

****

مضى شهر كامل بعد انهياركِ ذاك، شهر كامل لم يعذّكِ الحنين فيه إليّ ولم تشاركيني فيه الحياة.

لا أعرف كيف قدرتِ على الغياب، وكيف تمكنتِ من أن تكوني قاسية إلى هذا الحد!، أفكر أحياناً أن الجزاء من جنس العمل، لكن يمامة مثلك لا تعرف للحقد دربا، ولا أعرف كيف قدرتِ على أن تغردي خارج السرب؟!، السرب الذي لا يشكله سوانا، أنا وأنتِ يا جمان، أنا وأنتِ فحسب.

لمحتكِ يوم أمس في الجامعة، كنتِ تجلسين في الزحام، تخفين عينيك بنظارة سوداء كاحلة، كنتِ تهزين رجلكِ كعادتك وأنتِ تعبثين بالدبلة التي اشتريناها معاً، الدبلة الي تعلقينها في سلسلة حول عنقك منذ أن ابتعناها بانتظار أن يأتي يوم أضعها فيه حول إصبعك.

سرت في جسدي رعشة خفيفة ما إن لمحتكِ، ارتبكت لرؤيتك فجلست

في ركن بعيد أرقبكِ، أرقب قدمك التي تهتز بطريقة لا يشبهكِ فيها أحد ولا يميزها أحد غيري، أنتِ لا تهزين قدمكِ بتوتر كما يفعل الناس، تهزين قدمكِ بعبث مغرور وغنج ناعم، تهزينها ببطء مكابر وكأنكِ تحركين العالم من خلالها.

رأيتك تزيحين شعركِ بنظارتكِ، رفعت نظارتكِ فوق رأسك لتطالعي هاتفك المحمول، كنتِ تكتبين شيئاً في هاتفكِ، شيئاً كنت أحترق فضولاً وغيرة وخوفاً كي أعرفه!

كنت أفكر فيما لو كنتِ قد لمحتني أيضاً، فيما لو كنت تعرفين أنني أراقبك ولو كنتِ قد رفعتِ نظارتكِ عن وجهكِ لتساعديني على ارتشاف ملامحكِ من جديد، مدرك أنا بأنكِ لا تجيدين الألاعيب، لكنني كنت أرجو أن يكون غيابكِ لعبة هذه المرة، كنت أدعو الله أن يكون ابتعادكِ عني عقاباً ستنتهي مدته قريباً، لتعودي إليّ بعد انتهاء «المحكومية» وعفا الله عمن أذنب.

فكرت فيما لو رفعتِ رأسكِ ونظرتِ إلي وابتسمتِ، فيما سأقوله وفيما سأفعله، لكنكِ لم تفعلي، أعدتِ إخفاء عينيكِ بنظارتك، لممتِ أوراقكِ وحملتِ حقيبتكِ، تركتني خلفك ورحلتِ.

كنت أرجو الله طوال غيابكِ أن يجود عليّ بلحظاتٍ ألمحكِ فيها، ولم أكن أعلم أن رؤيتكِ بهذه الصورة ستزيدني حرقة وتزيديني وجعاً.

وصلتني رسالة هاتفية انتشلتني من ولعي ووجعي، لوهلة من أمل ظننتكِ من أرسل، فتحت الرسالة بأصابع راجية، ليطالعني اسم ياسمين

Hello Husband did you miss your wife?, she missed you

تمتمت بداخلي وأنا أتلفت حولي بحثاً عن خيال عودتك: تباً لك ياسمين، لطالما كنتِ السبب!.. يا لكِ من ورطة!.

لم أجب ياسمين، ولم تعودي بعد مغادرتك، فبقيت في باحة الجامعة عالقاً بين وصالها وبين جفائك!

****

اشتقت لأغانيكِ!، لذوقكِ الغنائي الذي لا يمتّ لعمركِ بصلة، أنتِ التي تحب الأصالة بالطرب سواء أكان عربياً أم أجنبياً، من يراك لا يصدق ما تحبينه وما تسمعينه، التناقض الحاد بين عصرية مظهرك وكلاسيكية ذوقك لا يتخيله أحد ولا يعرفه سواي.

أصبحت أسمع أغانيكِ بعد غيابك، لا أعرف لماذا لم أفهم يوماً كم تشبهك أغانيكِ، كم فيها منكِ وكم منكِ فيها.

كنت أستمع إلى «نقيلي أحلى زهرة» ولـ «عاشقة الورد» لزكي ناصيف، وأنا أفكر أنّ هاتين الأغنيتين اللتين تحبينهما تشبهانكِ!، لا أعرف لماذا تحبين هاتين الأغنيتين، ربما لأن فيهما ورداً وزهراً يليق بامرأة تعشق الزنبق.

أذكر أنني سألتك في بداية تعارفنا إن كنتِ تحبين الشعر، قلتِ: طبعاً أحب الشعر، لكن ليس بأي شعر.

سألتكِ: أي أنواع الشعر التي لا تحبينها؟

أجبتني ببساطة: صل صلاصل صلاصيل!

سألتكِ بدهشة: ماذا؟!

- الشعر العامي.

- تعنين الشعر النبطي.

- نبطي، شعبي، عامي كل الطرق تؤدي إلى روما.

- شعر شعبي وروما!، قصدك كل الطرق تؤدي إلى السعودية!

ضحكتِ: بالضبط!

- بدوية ولا تحبين الشعر النبطي!

- على أساس أول مرة قابلتني فيها كنت لابسة رشرش؟!

- أنتِ طويلة لسان على فكرة!

- حرام عليك.

- وتفتين كثيراً على فكرة، تحرمين وتحللين.

قلتِ باستنكار: حرام عليك!

انفجرت ضحكاً وضحكتِ!، أنتِ هكذا دوماً، تضحكينني من دون أن تقصدي ذلك أو تتعمديه، ربما يكون هذا أكثر ما أحبه فيكِ، أحب أن تضحكيني من دون حتى أن تحاولي إضحاكي، أن لا تكابدي حتى عناء المحاولة.

أفتقد إضحاككِ إياي كثيراً، أفتقد الأغاني التي تقومين بإرسالها إلي يومياً، الأغاني التي أسخر منها كثيراً، والتي اكتشفت في غيابك أنها أجمل بكثير مما ظننت.

أذكر أول مرة أسمعتكِ فيها شيئاً من عزفي على العود، عزفت لكِ مقطوعة «ليلة القبض على فاطمة» لعمر خيرت، كان أول يوم تزورينني فيه في بيت روبرت وباتي، تلك الزيارة التي جاءت على مضض وبحذر شرقي شديد.

سخرت منكِ عندما سألتني عن المقطوعة، سألتني بغيرة نسائية متوجسة: «من هي فاطمة»؟!.

أجبتكِ مازحاً: خادمتنا التي هربت!

سألتني ببراءة: ولماذا تؤلف مقطوعة عنها؟

سخرت منكِ كثيراً بعدما ضحكت كثيراً، احمرَّ وجهكِ خجلاً وارتبكتِ

من ضحكي، براءتكِ النقية، ونقاؤكِ البريء أضحكاني كثيراً يا جمانة!، لكنكِ رددتِ لي الصاع صاعين، بعدما أنهيت عزف مقطوعة خيرت، عزفت لك: نسّم علينا الهوى لفيروز، سألتكِ بعدما أنهيتها: ما رأيك؟

أجبتني ساخرة: ما شاء الله، عبادي!

وظللتِ تنادينني بعبادي في كل مرة أمسك عودي فيها، لذا سجلت لك بعض أغاني عبادي بصوتي وبعزفي، نقلتها إلى أسطوانة موسيقية وأهديتكِ إياها في عيد ميلادك، أسمعتكِ بداية الأسطوانة في السيارة، كانت أغنية «المزهرية».

لا أنتِ وردة ولا قلبي مزهرية من خزف.

صدفة وحدة جمعتنا، شوفي وشلون الصدف!

التقينا في مدينة، وفرقتنا ألف ميناء

اغفري للريح والموج والسفينة.

كانت الرحلة حزينة... للآسف!

أذكر أنكِ مددتِ يدك وأغلقتِ الجهاز عند هذا الجزء من الأغنية، سألتكِ: ما أعجبتك؟!

قلتِ بضيق: حلوة، بس وش هالفال؟!

- تشاءمتِ؟!

- جداً!، أنت تعرفني جيداً!، أتشاءم كثيراً من هذه الأشياء الصغيرة.

يومذاك سخرت من سخافاتكِ، من تشاؤمكِ، من انشغالكِ واهتمامك ومتابعتكِ لإشارات القدر، لكنني أظن اليوم بأنكِ كنتِ محقة في توجسكِ، وبأننا قد نجلب أحداثاً سيئة من خلال الطاقة السلبية التي كانت تشع من خلال أفكارنا تجاه بعضنا بعضاً، كلانا جلب لهذه العلاقة شيئاً من التعاسة،

أنتِ بشككِ بي وأنا بخوفي من أن يحرمني الله منكِ، لو أنكِ وثقتِ بي ولو أني آمنت بأن الله سيمنحني إياكِ لربما لما حدث كل هذا، لم يكن ينقصنا سوى الثقة، الثقة والإيمان يا جمانة، لكنكِ لم تثقي ولم أؤمن، لذا لم يبق لي اليوم منكِ سوى أغان كنت أكرهها، وسراب أمل كاذب يطمئنني بأنكِ قد تعودين يوماً.

****

أشعر أحياناً وكأن الله يعاقبنا بالحب.

يظن الناس أن الحب هبة عظيمة ومكافأة إلهية يغبطون بعضهم عليها، ويدعون الله أن يمنحهم إياها ويشكرونه إن منحهم ذلك، لكنني أعتقد بأن الله يبتلينا بالحب ولا يكافئنا به، ما الحب إلا ابتلاء وأنا مبتلى بحبكِ، لذا أدعو الله كثيراً أن يرفع عني حبك، أدعوه ولا يستجيب لعاص مثلي، فأخاف أكثر وأغرق بكِ أكثر وازداد عشقاً ومرضاً وهلعاً من غضب الله الذي يصبّه بكِ عليّ!

كاد القلق أن يفتك بي، حبستني الكآبة في منزلي، لم أستطع الهرب منكِ هذه المرة إلى ياسمين، سيطرتِ عليّ بغيابكِ أكثر بكثير مما فعلتِ في حضوركِ يا جمان، لا أعرف أن كنت لم أدرك مقدار ولعي بك إلا بلوعة غيابك، أو أنني رجل يغريه الغياب أكثر من الحضور، في كل الحالات، لم أستطع انتشالكِ من جمجمتي، كنتِ تقرعين في رأسي، ترقصين وتدورين بين الأنسجة، أراكِ في عيني، أشم رائحتكِ، أستشعر حضوركِ كرجل ممسوس، عبثتِ بحواسي مثلما عبثتِ بقلبي وعقلي يا جمانة، فانزويت في البيتِ كمدمن يحاول الإقلاع عما أدمنه.

اتصلت بشبكة الانترنت محاولاً الانشغال بأي شيء سواكِ، فتحت

برنامج الماسنجر الشهير، علّكِ تشفقين عليّ وتحادثينني من خلاله، كان قلبي يخفق بقوة أثناء الاتصال بالبرنامج، كنت أدعو الله في سري أن تكوني متصلة، وفي ثواني الاتصال فكرت فيما لو وجدتكِ متصلة على البرنامج، هل سألقي عليك التحية أم أنتظركِ أن تبادري، فيما سأقوله وما ستقولينه؟، لم تتجاوز فترة محاولة الاتصال بالبرنامج سوى بضع دقائق، فكرت فيها يا جمان بكل شيء قد يخطر في بالكِ، بكل ما قد خطر فيه وفي كل ما قد لا يخطر، لكنكِ لم تكوني متصلة فتبخرت كل الأفكار وبقيتِ أنتِ غائبة.

بقيت أنتظر مجيئكِ لساعات، أرقب الشاشة كمصرفي محنك حتى رأيت تغير اسمك على الرغم من عدم ظهور اتصالك بالبرنامج، عرفت حينئذ أنك قد قمتِ بحظري وحجبي عن رؤيتكِ متصلة، ومع أننا دائماً ما نفعل ذلك في شجاراتنا إلا أن صمودكِ هذه المرة، وعدم مكالمتكِ إياي جعلاني أشعر بالضعف أكثر فأكثر، شعرت باليأس يتسلل إليّ وازداد شكي في قدرتك على المغفرة.

انتظرت أن ترفعي الحجب عني لكنكِ لم تفعلي، لذا غيرت اسمي ليظهر أمامكِ «عيد سعيد جمانة قبل الزحمة»! وأغلقت البرنامج، أخذت هاتفي وأرسلت إليكِ بعد تردد: «أعرف أنك حاظرتني، بس كنت بقولك عيد سعيد قبل الزحمة»، اضطجعت على سريري وأنا أفكر فيما ستفكرين به عندما تقرأين رسالتي وفيما ستردين عليّ به، لكنكِ هزمتني أيضاً هذه المرة ولم تجيبي على رسالتي، كان تجاهلكِ لي خانقاً ولم أعد أستطيع احتماله، أرسلت لك بعد ساعة من الانتظار«كانت تهنئة لا أقل ولا أكثر»، غيرت ملابسي وغادرت المنزل، وقد قررت أن أعاقبكِ بالعبث ككل مرة.

****

كنت مع أحمد صديقي الذي لا تحبينه، تظنين أنتِ أن أحمد من يفسدني، تثورين غضباً في كل مرة أخرج معه فيها، ترمقينه بالازدراء وتصفعينه بتلميحاتٍ حادة عن سوء أخلاقه من دون أن تكترثي لما قد يفسره، أنت هكذا، لا تخجلين من غيرتكِ عليّ وكأنني زوجك فعلاً!

رأيت اسمك يضيء على شاشة هاتفي فجأة، كان هذا بعد حادثة الماسنجر تلك بيومين، وكأنكِ شعرتِ بوجود أحمد معي، كنا نسهر في أحد النوادي الليلية الصغيرة، وكنت في حالة غضب حاولت التنفيس عنها بجو صاخب وكأس بيرة.

أعرف بأنكِ لن تصدقينني لكنني لم أكن أبحث عن أحد هناك يا جمانة، كنت بحاجة إلى مكان أنتقم بوجودي فيه منكِ ليس أكثر.

أعرف أنكِ لا تفهمين كيف يكون ذلك ولما يكون، لكنه شأن رجولي معقد كالكثير من شؤونهم التي تكرهينها ولا تفهمينها!

أجبتكِ ما إن رأيت اسمكِ ومن دون أن أفكر فيما قد يفعله أثر الخمر في صوتي عليكِ، أو فيما قد يفعله الصخب الذي كان حولي، أجبتك بلهفة: هلا!

كان صوتكِ يرتجف: كيف حالك يا عبد العزيز؟

شعرت بأنكِ تطعنيني بسؤالكِ ذاك، كان سؤالكِ مهيناً يا جمانة ولم أقدر على تحمله، أجبتك: كيف حالي؟!، كيف حالك أنتِ؟، ما الذي ذكركِ بي؟!

أذكر أنكِ قد قلتِ شيئاً عن النسيان، وأنكِ لم تنسني لتذكريني، حينها انفجر كل ما في أعماقي عليكِ، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أشهق دمعاً، كنت أصرخ فيكِ بلا شعور: لماذا اتصلتِ؟!، أحاول أن أنساكِ لماذا تتصلين الآن؟!

اعتذرتِ على اتصالكِ وأردتِ أن تنهي المكالمة، أرعبتكِ ردة فعلي فيما يبدو، لكنني صحت بكِ محذراً: هيه! تعالي، لا تغلقي الهاتف، تعالي وكلميني، كلميني!

كنت أشعر بأنفاسك تتصاعد خوفاً على الطرف الآخر، بينما كان جميع من في النادي يرمقونني بنظرات متوجسة؛ فعلى الرغم من صخب المكان وخفوت أضوائه إلا أن رؤية شاب عربي الملامح يصرخ ويبكي على الهاتف لم تكن مطمئنة في 2008م.

ثرثرت كثيراً عليك بفعل الشوق وفعل الغضب وفعل السكر، لا أذكر كل ما قلته لكِ لكنني أذكر أنني قلت لك إنني سأطلّق ياسمين أو إنني طلقتها!، طلبت منكِ أن نتزوج، وأخبرتكِ أنني مستعد لفعل أي شيء يرضيك.

قلتِ لي بعتب إنك لن تفكري بشيء الآن، وأنك تفضلين أن تتركيني لأكمل سهرتي!

كنت أعرف أنكِ تبثين لي غيرتك وعتبك بأسلوبك وطريقتك اللتين لم تتغيّرا على الرغم من الغياب، قلت لك إنني سأعود إلى البيت الآن، وإنني سأحدثك من فراشي، وطلبت منك أن لا تنامي قبل أن تحادثيني، رجوتكِ أن تفعلي وأغلقت الهاتف راكضاً نحو سيارتي على الرغم من سخرية أحمد مني!

لا أعرف كيف وصلت إلى البيت ومتى وصلت، كان وصولي كالحلم، أذكر أنني دخلت غرفتي، خلعت حذائي وتمددت على سريري بملابسي لأهاتفك، لأستيقظ في عصر اليوم التالي وبيدي الهاتف من دون أن أكلمكِ وبملابسي كلها!

لا أعرف كيف نمت في متل تلك السرعة، أظن أن مكالمتك لي تلك الليلة جاءت كمخدر انتزع مني كل آلامي، فنمت كما لم أنم منذ مدة.

شعرت بأنني قد أفسدت كل شيء بعدم اتصالي، كنت أعرف أنك لن تصدقي نومي، وأن أفكارك ستحلق بك في عوالم قذرة، لذا أرسلت لك رسالة

متغابية، كتبت: «جمانة، حلمت بأنكِ اتصلتِ ليلة أمس، لطالما كنتِ جميلة في أحلامي».

أرسلت الرسالة وأنا أعرف أنكِ لن تجيبي عليها، تمنيت أن تخذلي يقيني تلك المرة وأن تردي عليّ، لكنكِ لم تفعلي وازداد الأمر تعقيداً!

****

**Look into my eyes, you will see**
**What you mean to me**
**Search your heart, search your soul**
**And when you find me there**
**you›ll search no more**

**Don't tell me it's not worth trying for**
**You can't tell me it›s not worth dying for**
**You know it's true**
**Everything I do, I do it for you**

كنت أجوب الشوارع بسيارتي وأنا أستمع لأغنية براين أدمز **Everything I do, I do it for you** وابتسامتكِ تصهر ذاكرتي وتجلدها... مضى أكثر من شهرين على انفصالنا ولا أزال أشعر بأنني عالق ما بين شيئين لا قُدرة لي على تفسيرهما، أنا لا أفهم ما الذي أشعر به وما الذي أريده أن يحدث!

أريدك أن تعودي بأي صفة كانت، لا أريد أن أفكر في مسمياتٍ لعلاقتنا، ولا أريد أن أفكر في مستقبلنا، أريدك أن تعودي فحسب، أن تنتشليني من حالة الضياع هذه من دون أن نفكر في أي شيء سوى حاضرنا وفي أي أحد عدانا.

لم أعد أقدر على تحمل غيابك، حياتي تنهار بعيداً عنكِ، ولا قدرة لي على ترميمها من دون وجودكِ فيها يا جمانة!

انحرفت إلى طريق بيتك، قدت سيارتي إليكِ من دون أن أفكر فيما سأفعله أو سأقوله، كنت أشعر بيد براين أدمز وهي تربت على كتفي وهو يغني:

**Don't tell me it's not worth trying for.**

كنت أتمتم طوال الطريق: **it's worth a try، it's worth a try!**

والحق أنني كنت مستعداً لأن أحاول كثيراً يا جمانة، لم تكوني تستحقين محاولة فحسب، كنتِ تستحقين أن أحاول استرجاعكِ طوال الحياة، ركنتُ سيارتي أمام بيتك وأنا أغنّي مع براين

**Don't tell me it's not worth fighting for**

**I can't help it, there's nothing I want more**

**You know it's true**

**Everything I do, I do it for you**

**There's no love, like your love**

**And no other, could give more love**

**There's nowhere, unless you're there**

**All the time, all the way**

لم أكن أعرف ما الذي سأفعله، لكنني كنت أدرك أن الأمر يستحق أن

أقاتل من أجله، ترجلت من سيارتي وصعدت إلى شقتك، قرعت الجرس وسمعت شهقة هيفاء وهي تطالعني عبر العين السحرية التي تتوسط الباب، لكنها لم تفتحه، فطرقت الباب بيدي وأنا أحاول الاتصال بهاتفكِ بلا إجابة.

كنت أعرف أن ظهوري فجأة أمام الباب سيثير ذعركِ وهيفاء، لذا لم أرحل، عرفت بأنكما تحتاجان لبعض الوقت لاستيعاب حضوري، فبقيت أمام الباب بانتظار أن تهدآ، أجبتِ على هاتفكِ بعد دقائق، قلت لكِ من دون أن أسلم عليكِ: أنا على الباب، افتحي!

أجبتني بصوتٍ خائف وناعس: ماذا تريد؟!

قلت: افتحي جمانة.

مرت دقيقتان أو ثلاث حتى فتحتِ لي الباب، كنتِ ترتدين منامة وردية برسوم طفولية، وترفعين شعركِ بـ«تسرحية النوم» كما تسمينها، وهيفاء تقف خلفكِ تطالعني بوجه غاضب خائف.

سألتني بدهشة: عزيز! أيش فيك؟ أيش جابك؟

- جمانة، أحتاج أحكي معاك، أنزلي معاي شوي.

- ننزل لوين؟!

- إلى أي مكان نحكي فيه لَوحدنا.

قلتِ بكبر: ما في شيء نحكي فيه.

- لو سمحتِ جمانة، جيتك برجليني، ما تستاهل جيتي تسمعين لي شوي؟

قلتِ بتردد: زين، انتظرني على الرصيف اللي قبال العمارة.

نزلت خلاف ما صعدت، لم يكن يفصل نزولي من شقتكِ عن صعودي إليها سوى دقائق قليلة، لكن رؤيتك غسلت قلبي بسرعة لا تصدق!

وقفت بجوار مقعد على الرصيف المقابل لشقتك، وأشعلت سيجارة وأنا أدندن بصوتٍ خافت

**Don’t tell me it’s not worth trying for**

**You can’t tell me it’s not worth dying for**

كنت أحاول تهدئة أفكاري وطمأنتها، رأيتكِ تقتربين بشعر مبلل وقد ارتديتِ كنزة صوفية ضخمة كنت قد أهديتكِ إياها في شتاء سابق، جلستِ على طرف المقعد فأطفأت سيجارتي، سألتني بعد لحظات من الصمت: بتظل ساكت؟

جلست بجواركِ من دون أن أتكلم، كان كتفي يلامس كتفك، شعرت بأنني أريد أن أحتفظ بتلك اللحظة إلى الأبد، قلتِ وقد ضقتِ بصمتي: جيت عشان تسمعني سكوتك؟

كنت أشعر بالرغبة في أن أتراشق معكِ العتاب، لكنني اخترت أن أتخلى عن عنادي وكبريائي هذه المرة، أجبتك: لا!، جيت لأني اشتقت لريحتك!

قلتِ بعتب غاضب: مو أنتا اللي تقول دائماً أن روائح النساء تتشابه؟.

– لكنك مو امرأة، أنتِ ملاك.. اشتقت لريحة السماء اللي تملأك.

سكتنا معاً، كنا نتأمل المارة ونتشارك الصمت، قلتِ لك بعد صمت طويل: تطلّقنا!

التفتٌ: أيش؟

– طلّقتها، طلّقت ياسمين.

كنتِ تبحلقين بي بأعين متشكّكة، استرسلت: ماراح أقولك أن اللي بينا انتهى لأنه ماكان بيننا شيء من الأساس.

– جيت عشان تقولي أنك طلقتها!

- جيت لأن دروبنا راح تلتقي دائماً مهما افترقنا.

قلت وأنتِ تنظرين بعيداً: ولو قلت لك إنّ في حياتي شخصاً جديداً؟

شعرت بعضلة قلبي تنكمش، كنت أعرف أن ضميركِ يدفعكِ لأن تبوحي بشيء لم أكن أريد سماعه في تلك اللحظة.

عرفت يا جمانة وقتذاك أنك تلمحين لزياد، لكنني لم أرغب سماع ذلك، أردت إنكاره وأن تنسيه أيضاً، حاولت تغيير الموضوع، سألتك إن كنت تذكرين بأنك قد قلت لي يوماً بأن «قلب الله يسعنا حينما نحب»، فأجبتني بأن جبران من قال ذلك، أخبرتك أن قلب الله وسعني حينما أحببتني فنهرتني عن قول ذلك قائلة لي بأنه كفر وإن كان ناقل الكفر ليس بكافر.

قلت: ممكن أسألك سؤالين؟

- تفضل.

- تعتقدين أنك تقدرين تسامحيني؟

- وأيش سؤالك الثاني؟

أشرت بيدي إلى نافذة شقتك، كانت هيفاء تراقبنا من الشباك، سألتك: هيفاء ليه متعلقة بالشباك؟

نظرتِ إلى الشباك بدهشة، وانفجرت ضحكاً، شعرت بأن الناس يرقصون من حولي، وأن أصوات العصافير بدأت تعلو بالتغريد، شعرت بالألوان تسترجع زهوها وبأن الأكسجين أخيراً بدأ يسري في جسدي.

أخذت تمسحين دموعك المنهمرة من شدة الضحك، وأنتِ تنظرين باتجاه هيفاء محاولة التوقف عن الضحك عليها، شعرت بالرغبة في أن أحتضنكِ بقوة، أن أخفيكِ في داخلي، مددت يدي ومسحت على شعركِ المبلل: شعرك رطب، منتي بردانة؟

- إلا.

وقفت من مكاني وخلعت معطفي مددته لكِ: ألبسيه.

نظرتِ إلى الشباك مجدداً وهززتِ رأسك رافضة: لا شكراً.

فهمت أنكِ تخشين أن تراكِ هيفاء وقد أخذتِ معطفي مني، لم أشأ إحراجك، سألتكِ وأنا أرتدي المعطف: جمانة، شرايك نصير أصدقاء؟

- ممكن تتحول الصداقة إلى حبّ، لكن الحب مستحيل أن يتحوّل إلى صداقة.

- بنكون أصدقاء لفترة، لحد ما أسترجع حبك لي وثقتك فيني.

أخذتِ تتأملينني بحيرة، كنت أرى الخوف في عينيك، الخوف من خيبة جديدة وخذلان لا ينتهي، قلتِ: يمكن!

ابتسمت لك، فابتسمتِ، قمتِ من مكانكِ من دون أن تودعيني، رأيتكِ تدخلين باب العمارة وأنا أفكر أي يوم عظيم هذا!، رفعت رأسي لأجد هيفاء لا تزال تراقبني في مكانها، تمنيت في تلك اللحظة أن تموت هيفاء، وأن تموت ياسمين وأن يموت زياد!

****

عدتِ باستحياء، عاملتني في الأيام الأولى من عودتك بكبر أحياناً وبعتب أحياناً أخرى، لكنكِ عدتِ!

حقنتني بإكسير الحياة بعودتك، ضخختِ الأوكسجين في جسدي، فانتعش قلبي وعادت إليّ الحياة بعد نزاع واحتضار.

أنتِ مثلي يا جمانة، جبانة مثلي وتخشين الحقيقة مثلي، لم تسأليني بعد عودتكِ عن شيء يخص ياسمين، لم تسأليني كيف تزوجت ومتى عرفتها، إن

كنت أحببتها أو حتى إن كنت قد نمت معها! لم تسأليني سؤالاً واحداً يتعلق بشيءٍ مما حدث! وكأنكِ قد قمتِ بحذف الشهرين الأخيرين من حياتكِ وحياتي، وكأنكِ انتزعتِ ذلك الفصل من كتاب الحياة، انتزعته تماماً، مزقته، أحرقته ونثرتِ رماده بعيداً عنا.

لم ترغبي بحقيقة تؤلمك، أردتني وأردتِ ما بيننا، وآثرتِ أن لا نتشارك حقيقة ما جرى، أردتِ النسيان أكثر بكثير مما أردته، فصمتُّ وصمتِّ وكأن شيئاً لم يحدث.

لم يتغير فيكِ شيئ إلا أن ظنونك تضاعفت، ولم يكن يزعجني هذا لأنني أردت فعلاً أن أتغير من أجلي ومن أجلك، صدقيني يا جمانة أردت أن أتغير فعلاً، لم أرغب بخسارتك مجدداً، أبداً يا جمانة، أبداً!

ما تغير فعلاً هو علاقتي بزياد، فعلى الرغم من أنني لا أعرف فعلاً ما حدث بينكما أو حتى إن كان قد حدث شيء أم لم يحدث، إلا أنني لم أعد قادراً على أن أتجاهل مشاعر زياد تجاهك أكثر مما تجاهلتها، لم أرغب بمواجهتها مثلما لم أرغب بتجاهلها، لذا فضلت أن أبقي زياد بعيداً عنا قدر المستطاع.

لم يكن من السهل عليّ أن أخسر زياد يا جمانة، زياد الذي لم يُسيء إليّ يوماً ولم يتخلَّ عني قطّ على الرغم من كل ما أقحمته فيه طوال السنوات الماضية، لم يخذلني زياد إلا بسببكِ أنتِ يا جمان، ولا قدرة لي على لومه أو لومك أو لوم نفسي.

عرجت على بيت محمد بعد عودتكِ بأيام، فوجئت بوجود زياد هناك، سلَّم عليّ بتوتر واستأذن مغادراً متعذراً بارتباطه بموعد لدى طبيب الأسنان، سألني محمد بعدما غادر زياد: ما أمرك أنت وزياد؟

- أي أمر؟

- من الواضح أنكما على شجار!

- أبداً، لم يحدث شيء بيننا .

وضع محمد يده على صدره وقال مستنكراً: عليّ ذا الكلام؟!

- والله ما صار شيء!

- أجل! وش السالفة؟

- ما في سالفة، كل شيء كويس.

أسند محمد ظهره إلى الأريكة قائلاً بغير اقتناع وهو يمسح شعره: طيب الحمدلله، وأنت شلونك؟

- الحمدلله.

- وجمانة كيفها؟

قلت بحزم: الحمدلله، مشغولة بامتحاناتها، تعرف لما يكون الواحد باقي له سنة على التخرج يتحمس له.

- أيه، الله يعينها ويوفقها.

- آمين.

قرب محمد علبة بسكويت مني، وسألني وهو يسكب الشاي ودون أن ينظر إلي: وأنت وش ناوي؟

- بخصوص؟

- بخصوصكم، أنت وجمانة؟

- كل خير إن شاء الله.

رفع محمد رأسه وأخذ يحلق بي مستغرباً من طريقتي في الكلام عنكِ، أنا الذي لم أكن أتوانى عن الحديث عن تفاصيل علاقتنا وبدون حتى أن

يسألني أحد، فهم محمد أنني لا أرغب بالحديث عن الأمر معه وأن شيئاً ما قد تبدّل، فغيّر من مجرى الحديث على الرغم من استغرابه الذي كان جلياً على ملامحه، قال: الله يكتب لنا ولكم اللي فيه الخير، أخوي بيجيني زيارة بعد أسبوعين، توصي شيء من الرياض؟

قلت بسخرية: وأيش الشيء السحري اللي مو موجود إلا بالرياض عشان نوصي عليه؟

قال محمد مستنكراً: حرام عليك ياخي، والله منى عيني اخلص وأرجع لها.

- الله يهني سعيد بسعيدة.

- المهم، إذا بغيت شيء، قهوة، تمر، جبن كرفت أي شيء علمني من بدري.

- ما تقصر يا بوحميد!

ارتفع صوت هاتف محمد فاستأذنني بالرد على والدته، كنت أتأمل ملامح محمد وهو يسألها عن إخوته وأجداده وأهله والرياض! وأنا أفكر في تلك البعيدة التي يحبونها على الرغم من قسوتها، أفكر في الرياض التي ستأخذكِ مني، أفكر كيف ستتركينني بعد نحو الثمانية أشهر، كيف سأعيش بعيداً عنكِ وكيف ستعيشين بعيداً عني؟!

****

لا أعرف إن كنت سأصبح أباً يوماً!

الحقيقة أن الأطفال لم يكونوا بالنسبة إليّ حلماً أو رغبةً في يوم من الأيام، لم أتخيل يوماً شكل أطفالي ولا حتى أسماءهم، على العكس تماماً

دائماً ما كنت أقول بأنني لن أفكر بإنجاب طفل ما إلى هذه الحياة، كنت أقول إنني قد أتزوج في نهاية المطاف لكنه سيكون زواجاً بلا أطفال.

لا أعرف حقيقة لماذا كنت أخشى فكرة أن يكون لي أطفال؛ من المؤكد أنني لا أحبذ فكرة العائلة والمسؤولية وارتباط مصائر مجموعة من الأفراد ببعضهم بعضاً، كانت تخيفني فكرة التنازلات، التضحيات، الالتزام، الارتباط، المسؤولية وكذلك الفقد الذي قد نتعرض له يوماً.

لكن قناعاتي تبدلت ما إن أحببتكِ يا جمانة، أصبحت أتخيل دوماً ملامح أطفالنا، طباعهم، أصواتهم وروائحهم، أتخيل المزيج الذي قد ينتج مني ومنكِ، فيبهرني جمال الخيال والتوقع وأذوب شوقاً ليوم أحمل فيه طفلة أو طفلاً يشبهني ويشبهك.

أنا مؤمن تماماً بأنني لن أصبح أباً إلا معكِ، وبأنني لن أفكر بالأبوة مع امرأة غيرك، أنتِ أيضاً تدركين ذلك في قرارة نفسكِ، لذا، وعندما تطلبين مني شيئاً أو أمراً أرفضه تقولين لي: بو صالح! عشان خاطري.

تسألينني دوماً باسم طفلنا «الحلم» لأنك تدركين بأنني لن أقاوم نشوته وسأستجيب.

أدرك أنكِ تبتزينني بـ «أبو صالح»، لكن ابتزازكِ يعجبني، فأنساق خلف استغلالكِ للاسم منتشياً به وبفكرته.

أفكر أحياناً بـ «حلا وصالح»، طفلينا اللذين خلقا فينا قبل أن يخلقا منا، أفكر فيما لو خسرتهما قبل أن يجيئا، فيما لو خذلتهما بخذلاني لكِ فأفقدهما بفقدي إياكِ، أشعر أنني تورطت معكِ بأطفال لم يتكونوا بعد، وهذا يخيفني كثيراً على الرغم من توقي الحاد إليهم.

في الحب تتضاد الأشياء، نريد ولا نريد، نخشى ونأمل، نسعى ونهرب

بسبب الرغبات والحاجات والأشياء ذاتها، لذا أنا متناقض الأفعال معكِ، لا لأن التناقض سمة شخصية بل لأنه ضرب من ضروب الحب، وأحد وجوهه الكثيرة.

أنتِ تريدين الكثير وأنا أريد الكثير، والحب يريد أكثر فأكثر فأكثر!

****

لم أكتبْ منذ مدة طويلة، تركتُ الكتابة أو هي من تركتني، لن أقول بأنني هجرتها أو أنها هجرتني، سأقول إننا انفصلنا منذ رجوعكِ إلي.

لا أعرف ما الذي يحدث لي، أشعر أنني فقدت القدرة على الكتابة، الحق أنني لم أكن أكتب إلا لأبقيكِ مشدوهة، لكنني لم أعد أقدر على الإنتاج منذ أن عدتِ، وكأن التوقف هو ثمن عودتك الذي لا بد لي من سداده.

تستنزف الكتابة فيّ أشياء كثيرة، ولا أظن بأنني قادر على أن أمنحها ما تستحقه وما تحتاجه في هذه الفترة، الكتابة تتطلب تركيزاً وجهداً عاطفياً ونفسياً ومعنوياً وجسدياً، جهد لا قدرة لي على بذله، فتركيزي الآن منصب عليكِ ولا حاجة لي للتركيز على غيرك حتى وإن رغبت بذلك.

أطلع على البريد الإلكتروني الخاص بالصحيفة الإلكترونية التي أكتب بها، لأجد عشرات الرسائل أسبوعياً لقراء زاويتي من زملاء مبتعثين ومواطنين مهتمين وفتيات مررن في حياتي ولا يزلن يتابعن ما أكتبه فضولاً وحنيناً ومكيدة أحياناً!

يثير هذا النوع من الرسائل اشمئزازي، يضحكنني اللاتي يظهرن في حياتك بعد انقطاع إما لثروة حققتها وإما لشهرة وصلت إليها وإما لإفساد علاقة عاطفية تعيشها!

كان استرجاع الفتيات اللاتي عبرن في حياتي في ذهني ممتعاً أحياناً، استرجاع المواقف، الذكريات، المخاطر، الأحداث، البدايات والنهايات، كلها كانت تمتعني، لكنها لم تعد كذلك الآن.

الآن أحاول صرف أي فكرة تقودني لامرأة ماضية، لا أعرف لماذا أصبحت هكذا! لا أعرف لماذا باتت تزعجني الذكرى، لماذا غدت تؤذيني!

أذكر بأننا كنا في إحدى دور السينما قبل عامين، كان قد تبقى على عرض الفيلم أكثر من نصف ساعة فبقينا نحتسي ما تبقى من قهوتنا في الخارج، كنتِ تحكين لي بحماس قصة الرواية التي حولت إلى ذاك الفيلم الذي كنا نعتزم مشاهدته، حينما وقعت عيني على «غادة»، إحدى الفتيات اللاتي كنت على علاقة بهن قبل معرفتي بكِ بسنة واحدة فقط.

كانت غادة تقف مع صديقاتها على بعد أمتار مني ومنكِ، كانت تسدد نظراتها إلي مباشرة، لدرجة أن رعشة دبت في جسدي من هول المفاجأة، ومن بجاحة النظرات ومباشرتها!

كان توتري ملحوظاً لدرجة أنكِ التفتِ إليها، لم يكن الأمر محتاجاً للكثير من العبقرية لتفهمي من نظراتها المباشرة إلي أن شيئاً ما يحدث، نظرتِ إلي وعقدتِ حاجبيك متسائلة، قلتِ: من هؤلاء؟

- من تقصدين؟

قلتِ بعصبية: أتتغابى؟!، هؤلاء الفتيات؟!

- لا أعرف!

- كيف لا تعرف؟!، هل تعتقد أنني عمياء أم غبية؟

- لا عمياء ولا غبية، شدتني ملامحهن الشرقية، ولا بد أن ملامحنا شدتهن أيضاً.

قلت بعصبية وسخرية: لا والله!

- طبيعي، فضول سعوديين.

- أشعر بأنك تكذب عليّ.

سحبتكِ من يدك قائلاً: دعكِ من هذه الأفكار المجنونة، تأخرنا على الفيلم.

دخلنا دار العرض، ولا أظن بأن أحداً منا شاهد الفيلم فعلاً، كنتِ أنتِ غارقة في ظنونك وغيرتك، وكنت أنا غارقاً في خوفي من أن تسلّم غادة أو أن تقوم بأي فعل يدينني أمامك، كان قلبي مقبوضاً طوال مدة العرض، أدعو اللي في جوفي أن لا نصادف غادة في طريقنا عند الخروج وأن لا نقابل غيرها يوماً.

سحبتكِ من يدك بعد نهاية الفيلم وخرجنا مسرعين، سألتني في الطريق أن كنت أعرف الفتيات أو إحداهن، وأنكرت ذلك بل نهرتكِ على شككِ بي، حلّفتني على أنني لا أعرف إحداهن وحلفت بالله كذباً، صدقتني لأنك تصدقين من يحلف بالله، وبقيت أتلوى لأيام طويلة من كذبي عليكِ ومن حلفي الكاذب.

في تلك الليلة، جاءتني رسالة هاتفية من رقم غير مسجل لديّ: مساء الخير عبد العزيز، كيف حالك؟

لم أكن أعرف صاحب الرقم فأجبت: بخير، من معي؟

- أنسيتني بهذه السرعة؟ أنا غادة.

شعرت بالتورط حينما قرأت الرسالة، فكرت بأي فتاة وضيعة هذه التي ترسل لرجل كانت على علاقة سابقة به بعدما رأته مع فتاة أخرى، كتبت لها بحزم: ستندمين لو أرسلتِ إلي مرة أخرى.

أجابت بعد عدة دقائق وكأن الرد قد فاجأها: الله! لماذا كل هذا التهديد؟! على كل حال أردت أن أسلم عليك فحسب.

لم أجب على رسالتها، تركتها لتفهم من صمتي أنني جاد في طلبي منها بأن لا ترسل مجدداً مثلما أنا جاد في تهديدي أيضاً.

في تلك الليلة، فكرت كثيراً فيما لو صادفت حبيبة سابقة أخرى، فيما لو سلمت عليّ إحداهن أو تعرفت إحداهن عليكِ، فكرت في الخسارة التي ستحل بي، وفي العلاقة التي قد تنهار من وطأة الماضي الذي لا يموت.

لم أنم تلك الليلة من وجع الضمير، آلمني كثيراً أنني كذبت عليكِ، وأنني حلفت بالله كذباً، الحق أنني لم أنزعج من كذبي عليكِ بل من تصديقكِ إياي!

سألتكِ يوماً: لماذا تغارين من اللواتي عبرن في حياتي؟! من اللواتي مضيْن وانتهين بالنسبة إليّ؟

قلتِ: لو مر في حياتي رجلٌ ما، ألن تنزعج؟

- بلى.

قلتِ: عندما تحيرك ردود أفعالي وتثير مشاعري استغرابك، ضع نفسك في موقفي وفي مكاني، تخيّل لو كنت أنت من يتعرّض لهذا الموقف، ما الذي كنت ستشعر به، وما الذي كنت ستفكر فيه.. صدقني حينئذ ستفهم أفكاري وستشعر بمشاعري.

وعدتكِ أن أفعل وفعلت! تخيلت في أيام كثيرة لو أنكِ كنتِ على علاقة بأحد ما قبلي، تخيلت لو أنك نمتِ مع غيري، أو أنكِ كنت على علاقة برجل آخر أثناء علاقتنا، فكرت بالكثير يا جمانة، بالكثير!، والحق أن تلك الأفكار عذبتني لدرجة جلد الضمير، لكنني لم أقدر على دفن الماضي أو شطبه، يطل الماضي عليّ وعليكِ برأسه بين الحين والآخر ولا قدرة لي على أن أحجبه عنكِ إلى الأبد!

****

أشتاق لله على الرغم من خطاياي وذنوبي!

تظنين أنتِ بأنني متنصل من الدين تماماً، تلمّحين إلى ذلك دوماً، وتصرحين به أحياناً قليلة، يخيفكِ بعدي عن الله، تقولين إنّ من لا يصون الله لا يصون الناس مهما أحبهم، قلت لك يوماً: ومن قال لكِ بأنني لا أخاف الله؟!

- من الواضح أنك لا تخافه.

- وهل دخلتِ قلبي واطلعتِ على نيّاتي؟

أجبتِ: لو كنت تخشاه لما عصيته، الخوف من الله ينهى عن الفحشاء والمنكر.

- أنتِ أيضاً عاصية يا جمان، مثلاً أنتِ لا تتحجبين، ألا تخافين الله؟

قلتِ بانفعال: أنا لا أرتكب الكبائر، مرتكب الكبيرة ملعون، هناك فرق بين المعصية وبين الخطيئة والكبيرة.

- أنتِ تبررين معصيتكِ ليس إلا، أنا أيضاً قادر على تبرير معاصيّ وخطاياي.

- الكبائر لا تبرَّر.

- الله وحده من يطلع على النفوس، ومن يعرف ما فيها يا جمان، ولا حاجة لي بتبرير أي شيءٍ لأحد.

أشحتِ بوجهك بغير اقتناع، وأنا أفكر كيف لك كل هذه الجرأة للجزم بأنني لا أخاف الله؟!، كيف تفعلين بنفسكِ ذلك؟

صدقيني يا جمانة، أنا متعلق بالله أكثر مما تتخيلين ومما يتخيل الآخرون، يظن الجميع أنني منحل دينياً لمجرد أنني عاصٍ، لكنني أعرف يا جمانة بأن الله

يسكنني على الرغم من معصيتي له، وأعرف أن كل الناس ترتكب الخطايا، وأن لا أحد معصوم عن المعصية، مؤمن أنا بأن طريقي سيفضي إلى الله في نهاية المطاف، لأنني لا أريد أن أنتهي في طريق غير الله، لكنني أخاف كثيراً أن أموت قبل ذلك، أخشى أن لا يمنحني الله التوبة فأموت قبل التطهُّر بها.

أستعيذ دوماً من الموت الفجائي، أسأل الله أحياناً حسن الخاتمة بنفس منكسرة من ثقل المعاصي، أطلب من الله كثيراً أن لا يعاقبني بكِ، أن لا يكون ابتلائي فيك، وأن لا يحرمني منكِ مهما أخطأت وقصرت وعصيت.

أنا لم أنشأ نشأة دينية يا جمان، لم يأمرني والدي عليها بسبع ولم يضربني عليها بعشر، لم يأخذني يوماً معه إلى المسجد، ولم يسألني يوماً إن كنت قد أقمت صلاتي، وحينما كنت أرفض مرافقة أهلي لأداء مناسك العمرة في كل رمضان من كل عام، لم يضغط عليّ أحد منهم لأرافقهم، ومع ذلك، لا أحد منهم يشبهني؛ فجميع أفراد عائلتي من بنين وبنات ملتزمون بالعبادة وكأن أصولها زرعت فيهم بالفطرة، وبدون أن يأمرهم أحد بها.

أنا أيضاً أحب الله وأخشاه بفطرتي، لكن الشيطان متمكن مني بفعل الكثير من الأمور، أدرك بأنني أعين الشيطان على نفسي أحياناً، وأدرك بأن يد الله لطالما كانت ممدودة إلي مرحبة بالتوبة، والله يشهد كم مددت يدي نحوه راجياً العفو والمغفرة، فيزلّني الشيطان من جديد وتتوه خطواتي عن الطريق مرة أخرى.

أفكر في كل مرة أخدعكِ فيها كم سيقتص لك الله مني!، أتقيأ أحياناً من ضخامة ذنبي ومن ضعف نفسي أمام الذنب، أفكر هل سيغفر الله لرجل عاص يتلاعب بطاهرة تحاول أن توصله إلى درب الله؟!، فتفزعني الفكرة وتبث فيَّ الرعب.

صدقيني يا جمانة، أنا لا أريد الاستمرار على هذه الحال، أنا لا أريد أن يجتثكِ الله مني بسبب معصيتي، أخاف الله يا جمانة وأحبه كما لا أحب أحداً، أحبه وأطلب منه أن يحفظ لي من أحب، أن يحفظكِ، أنتِ التي بعثها الله إليّ لتذكرني بقصد ومن دون قصد أن أبواب الله دائماً مفتوحة، وأن الله غفور رحيم لمن تاب وندم.

أدعو الله كثيراً أن لا يأخذني عاصياً، وأن يأخذني تواباً تقياً صادقاً في توبته، لكن لا أحد منا يدرك متى يموت وكيف يموت وبأي أرض يموت، لذا أدعوه أن لا يأخذني عاصياً أينما مت وكيفما مت، ربي لا تأخذني عاصياً، ربي لا تأخذني عاصياً!

****

تباً للنسيان!

تباً لنسيان ينسيني اللقاء الأول، أحاول أن أذكر أول لقاء جمعني بزياد ولا أستطيع استرجاع تفاصيله على الرغم من أن اللقاءات الأولى هي ما تحفر عادة في ذاكرة البشر.

نحن نذكر دائماً تفاصيل اللقاء الأول، نذكر المظهر العام، تسريحة الشعر، الملابس التي كنا نرتديها وحتى الحوارات الأولى، لكنني لا أذكر شيئاً من لقائي الأول بزياد وكأنه ولد معي فكبرت وأنا أعرفه!

لا أعرف كيف أصبحنا أصدقاء على الرغم من اختلافنا الكبير، كيف نلتقي دوماً من دون أن تلتقي أفكارنا أو تتشابه هواياتنا، أحلامنا ومساعينا.

لا أظن بأننا أردنا شيئاً واحداً مشتركاً عداكِ يا جمانة، أنتِ النقطة الوحيدة التي كانت تجمعنا من دون أن نعترف بذلك لا لبعضنا ولا حتى لأنفسنا.

لطالما أنكرت في داخلي مشاعر زياد تجاهك على الرغم من يقيني اللاوعي أو الواعي المتعامي.

كنت أعرف أن نبل أخلاق زياد لن تشكل خطراً بالنسبة إليّ، كنت أعرف أنه لن يقترب منكِ يوماً شهامة ونبلاً، زياد رجل أخلاقي بالفطرة، رجل مجبول على الوفاء.

مؤمن أنا يا جمانة أن خسارة زياد هي من أعظم خساراتي بعد خسارتي إياكِ، صديق كزياد لا يعوّض على الإطلاق مهما كان لدي من أصدقاء، لا أحد كزياد، لا أحد!.

أذكر بأنني قد أقمت عنده لأكثر من أسبوعين أثناء ترميم باتي وروبرت لبعض ملاحق منزلهما، تعلمت في تلك الفترة ما لم أتعلمه طوال حياتي، أذكر بأننا كنا نشاهد فيلما معاً، مد إلي بجهاز التحكم عن بعد وقال: لا توقف الفيلم، أكمل المشاهدة، سأعود بعد قليل.

التفت إلى غرفة المكتب المجاورة حيث توجّه، رأيته يفرش السجادة ليصلي بهدوء وخشوع صادق، عاد إليّ بعد صلاته واستكمل الفيلم معي، وظل يقوم بالأمر عينه خلال إقامتي، يقوم من مكانه وقت الصلاة ليؤدي فرضه ويعود إلي من دون أن يدعوني لأداء الصلاة أو أن يسألني لِمَ لم اصلِّ، كل ما فعله هو أن جاء إلى غرفتي في أول ليلة أقمت فيها عنده، طرق الباب وبيده سجادة الصلاة، وضعها على الكرسي وقال: السجادة هنا، وأشار بيده إلى زاوية الغرفة قائلاً: القبلة بهذا الاتجاه.

شكرته وخرج مبتسماً، بعد ذلك بأيام كنا نتحدث عن أخلاق العرب وشهامتهم، كان يحاول إقناعي بأن العرب الحقيقيين هم أرقى شعوب الأرض خلقاً، قال لي: أتعرف المطعم ابن عدي والبختري ابن هشام؟

- أهما من شعراء العرب؟

- بل من كفار قريش ومن سادتها، أحدهما أجار رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن عاد من الطائف على الرغم من كفره، والآخر نقض عهد الحصار الذي أقيم على رسول الله وصحبه على الرغم من كفره أيضاً.

- ولماذا فعلا ذلك إن كانا كافرين؟

- لم يفعلا ذلك حباً في رسول الله ولا نصرة للإسلام، بل لأنهما من أصحاب الخلق العربي الأصيل.

- لم أكن أعرف أن من كفار قريش من يفعل هذا.

استرسل بحماس: لاحظ كم هي عظيمة أخلاق العرب، وكم هي أعظم أخلاق الإسلام، فحينما انتصر المسلمون في بدر وأسروا الكثير من قبيلة قريش قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «لو كان المطعم بن عدي حياً فكلمني في هؤلاء النَّتْنَى لأطلقتهم له»، أي لو تشفع لهم لقبل شفاعته فيهم على الرغم من كفره وذلك وفاءً من الرسول عليه الصلاة والسلام للمطعم بن عدي.

دمعت عيناي فجأة، شعرت بالدمع ينسكب على وجنتي من عظيم خلق الرسول (ص)، شعرت بقلبي ينقبض وبروحي تنتفض من جمال وفائه، شعر زياد بتأثري فاسترسل: كما أن الرسول أوصى الصحابة من مهاجرين وأنصار ممن شاركوا في غزوة بدر بأن لا يقتل أحد منهم البختري ابن هشام والعباس ابن عبد المطلب على الرغم من مجيئهما غزاة وعلى الرغم من كفرهما وذلك عرفاناً لهما عن دفاعهما عن رسول الله عليه أفضل الصلوات والسلام.

قلت له وأنا أمسح دمعي بيدي: سأبحث عن هذه القصة، هزتني جداً.

قال زياد وهو يضرب بيده على ركبتي: إقرأ معي سيرة الرسول عليه

أفضل الصلوات والسلام، ستدهشك أخلاق العرب على الرغم من جهلهم، وستبهرك أخلاق الإسلام أكثر، ألم يبعث الرسول عليه الصلاة والسلام ليتمم مكارم الأخلاق؟

- طبعاً.

قرع جرس المنزل ليقطع محمد يومذاك علينا ذلك الحوار، كنت أفكر أثناء تبادل زياد ومحمد أطراف الحديث، أفكر في كم تتشابهان أنتِ وزياد!، كم تتحدثان بشغفٍ عن العروبة وعن الدين، وكم تغضبان لو مس أحد ما شيئاً يتعلق بهما حتى لو كان عن طريق المزاح، أفكر أحياناً كم أنك تلتقين وزياد في الكثير من الأمور من دون أن تدركي ذلك وكذلك هو.

لطالما أزعجني ذلك وإن لم يخيفني، فكلاكما يمجد أخلاق العرب وأخلاق المسلمين، كلاكما لا يقدر على الخيانة ولا يطعن من الخلف ولا يكذب.

أنا لا أشبهكِ يا جمانة ولا أشبه زياد، لكنني لا أقدر على خسارة أحد منكما، لماذا يجبرني القدر على ذلك؟!

****

لا أعرف إن كان هناك ما سأحكيه يوماً، فعلى الرغم من أن في جعبتي الكثير من الحكايات والذكريات، وعلى الرغم من عشرات المغامرات والتجارب، ومع ذلك أشعر بأنني لن أقدر على سرد شيء أو ذكر حكاية.

أجلس أحياناً مع نفسي وأفكر فيما أنا عليه، وكذلك بما وصلتُ إليه، فيحبطني حالي، وضعي، وموقعي في الحياة.

لكم هو مخيف أن تتنبه في منتصف الثلاثينيات من عمرك إلى أنك لم

تنجز شيئاً بعد، لكم هو مرعب أن تصل إلى حقيقة أنك لا تسعى فعلاً لأن تنجز أمراً ما في هذه الحياة!

أشعر هذه الأيام وكأنني شخت فجأة، وكأنني نمت ليلة البارحة وأنا في منتصف عشرينياتي لأستيقظ اليوم في منتصف الثلاثينيات، أشعر وكأنني كبرت عقداً كاملاً في غضون ليلة واحدة.

لا أعرف كيف مر هذا العمر بلمح البصر!، كيف عبرت السنوات برمشة عين، وكيف عشت كل هذا الزمن من دون أن أشعر بالعمر يتسلل مني.

أتأمل وجهي في المرآة وأنا أحلق، تدهشني الشعرات البيضاء الصغيرة النامية في ذقني، يدهشني أنني لم أتنبه لها يوماً وكأنني كنت ضريراً، أبحث في ملامحي بهلع لأجد خطين صغيرين وخفيفين في جبيني، خطين لم يكونا موجودين قبلاً!

أعتقد بأن الشيب، وشيئاً من التجاعيد التي بدأت ترسم آثارها بإبرة ناعمة خفيفة قد زادتني وسامة، لكنها جاءت لتوقظني من عسل الشباب وخمره اللذين لطالما شعرت بأنني لن أستيقظ من سكرتهما أبداً.

أدرك اليوم أنني خسرت عقداً من عمري في لاشيء، قضيت عقداً كاملاً لا أفعل شيئاً سوى المتعة، كانت تلك الأيام ممتعة بحق، تمتعت بليال شهية، وقضيت أوقاتاً أخاذة، لكن لا شيء تبقّى لي منها الآن سوى الذكرى، الذكرى التي لن تسند مستقبلي من دون شهادة، ومن دون عائلة وظيفة.

أشعر اليوم وكأنني كتبت شيكاً بعشر سنواتٍ من دون رصيد من العمر، أشعر بأنني تورطت، وبأن عليّ أن أسدد ديني من السنوات لأعوض ما فاتني قبل أن أتورط مع العمر والحياة أكثر فأكثر.

وضعت خطة قصيرة الأجل وقليلة الأهداف للعامين القادمين، كانت

قائمتي تتضمن هدفين فقط: أن أنهي الماجستير وأن أحصل عليكِ قبل أي شيء، وكل شيء!

أخذت هاتفي وأرسلت رسالة إليك: أجندتي للعامين القادمين، أنتِ والماجستير.

أرسلتِ باختصار: يا حلوك!

جاءت رسالتكِ القصيرة، فرحة، مؤازِرة، مغازلة ومدللة!

ابتسمت عندما قرأتها، أخذت أفكر كيف تسعدينني بكلمتين، كيف تبثين في داخلي كل هذا القدر من الأدرينالين من دون جهد ومن دون إسهاب.

أسعدتني كلماتكِ يا جمانة، لكنني انتبهت «أخيراً» إلى أنكِ فقدتِ معي «الثرثرة»، أخافني كثيراً فقدكِ إياها!

****

مات جدي!

أيقظتني رسالة وليد، شقيقي الصغير، الغائب الحاضر في حياتي! كتب لي: «أبوي عبد العزيز يطلبك الحل، توفى البارحة بعد صلاة العشاء وسنصلي عليه اليوم»!

جاءتني الرسالة هكذا! باثنتي عشرة كلمة باردة، تخبرني وأنا في فراشي بأن جدي مات! جلست في فراشي، فركت عيني وقرأت الرسالة مجدداً، وسؤال كبير يصدح في أعماقي: أبهذه البساطة يموت جدي؟!

كيف يموت جدي فجأة! كيف يبلغني وليد بموته هكذا؟ برسالة نصية سخيفة وقاسية وباردة؟! كيف يموت أبوي عبد العزيز وأنا بعيد عنه في غربتي؟!

عدت إلى سجل المكالمات، كان قد اتصل بي قبل خمسة أيام ولم أرد عليه، كنت أتابع مباراة كرة قدم مع أصدقائي أثناء مكالمته فآثرت أن أعاود الاتصال به لاحقاً لكنني نسيت، نسيت أن أتصل به مجدداً، ومات من دون أن أحدثه، ومن دون أن أجيب!

كل ما فكرت به في تلك اللحظة هو خذلاني إياه، فكرت في مدى حقارتي لأفضّل مباراة كرة قدم على كهل كنت أتسلق ظهره وهو يصلي، ليحملني على كتفه بعدما ينتهي من صلاته متجولاً بي في أنحاء منزله الكبير على الرغم من انحناء ظهره ووهن عظامه.

تذكرت ابتسامته الكبيرة عند كل عودة إلى الرياض، يستقبلني على باب مجلسه بابتسامة مشعة وهو يلوح بيديه وبالسبحة في يمناه: حيا الله الأمريكاني هلا بأبوي هلا!

أبتسم لكلمته ولإصراره على أنني أعيش في الولايات المتحدة الأمريكية، أقبّل رأسه ويده فيقبل رأسي ويدي، أحتضنه بقوة لتتشرب ملابسي بدهن عوده الفواح، أجلس بجواره وهو يربت بيديه الضعيفتين المترهلتين على كتفي وظهري ورأسي وكأنه يتأكد من أن كل عضو وجزء فيّ بخير وكما كان، يقول لي في كل استقبال وبفرح لا يعقل: ما شاء الله وجهك زين!

وكأنه كان يصارع فكرة أن لا أكون بخير، فيطمئن قلبه ويرتاح حالما يراني.

لطالما استعاذ جدي من أرذل العمر، كان يدعو الله دوماً بأن يجعله صغيراً في عينه وكبيراً في عيون الآخرين، وها هو جدي يموت بصحته وبكامل قواه الذهنية، صغيراً في عينه وكبيراً في عيون الناس.

فتحت درج مكتبي وأخرجت منه مظروفاً كان قد أهداني إياه في زيارتي الأخيرة إلى الرياض، كان قد كتب على الظرف وبخط عربي جميل: «إلى الابن عبد العزيز بن صالح، شرهة العيد من أبوك عبد العزيز»، كان داخل الظرف خمسة آلاف ريال. عوّدني جدي أن يهديني إياها في كل عيد وفي كل زيارة.

الغريب أنني لم أصرف هديته الأخيرة ولم أتصرف بها، بقيت النقود في الظرف منذ أشهر من دون أن أصرف منها ريالاً واحداً على غير عادتي.

وضعت الظرف على المكتب وأنا أعتصر رأسي، كنت مختنقاً بالخبر، لكنني لم أستطع البكاء ولم أحزن بمقدار الخسارة.

بعدي عن الحدث، عن أهلي، عن الموت، عن رؤية جدي وهو مسجى بكفنه أوقعتني في مأزق الاستيعاب.

كان صعباً عليّ أن أفهم هذا الموت وبهذه الطريقة، لم أكن قادراً على أن أفهم هذه الخسارة، كيف أستيقظ فجأة لأقرأ رسالة تبلغني بسطر ونصف السطر أن جدي مات ورحل، وأنني لن أتمكن من رؤيته مجدداً!

كيف أستوعب فكرة أن أعود إلى الرياض من دون أن يستقبلني على باب مجلسه، فاتحاً ذراعيه وملوحاً بيديه مرحباً، والسبحة السوداء تنسدل من بين أصابع يده اليمنى.

كيف أسامح نفسي على عدم الرد عليه، وعلى حرمانه من قول ما أراد قوله لي؟!

أردت أن أبكي، فالبكاء هو جزء من تقدير الخسارة ومن فهم مقدارها، أردت أن أبكي كثيراً لكنني لم أقدر على ذرف دمعة واحدة.

أخذت هاتفي واتصلت بكِ، أجبتني بصوتٍ ناعس: لا أصدق أنك مستيقظ في هذا الوقت!

- صباح الخير.

- صباح الورد حبيبي، أقامت أمريكا بغزونا؟

-بل غزانا الموت.

قلتِ بقلق: يا ساتر! لِمَ هذا الحديث؟

- أبإمكانكِ المجيء إلي؟

سألتني بدهشة: الآن؟!

- نعم، الآن.

- خير إن شاء الله! مابك؟!

- توفي جدي.

شهقتِ بفزع: جدك عبد العزيز؟!

- وهل لدي جد غيره على قيد الحياة؟

- يلا يلا، لن أتأخر!

قمت واستحممت، جلست تحت الماء الدافئ، وصوت انهماره يملأ رأسي.

دائماً ما أهرب في أوقات انزعاجي إلى الماء، أجلس وأتركه ينهمر فوقي حتى يكاد أن ينقطع أو أن يتبخر حزني تحت وطأة حرارته.

لطالما كانت قضية الماء هذه محل خلاف بيني وبين باتي وروبرت، حتى انتهت بتكفلي بدفع فاتورة الماء كاملة سواء أكنت من أسرف باستخدامه أم لم أفعل، جاء هذا القرار المريح بعد شجارات كثيرة بيني وبينهم حيال دفع حصتي من الفاتورة، لذا طلبت منهم أن أقوم بدفعها كاملة من دون أن يشاركا بدفع أي مبلغ فيها مقابل أن لا يفسدا عليَّ متعة الراحة تحت الماء، وهكذا كنت أهرب من كل ألم يلم بي إليه من دون منة ولا فضل من أحد.

كنت بحاجة لأن أقضي أياماً تحت الماء، لكنني كنت أعرف أنكِ ستهرعين إلي، بقيت تحته لدقائق عله يبث في شيئاً من السكينة، ارتديت ملابسي وأعددت قهوة بانتظار مجيئك، كان روبرت وباتي في الخارج يمارسان رياضة المشي مع بعض أصدقائهما كالعادة.

جلستُ على الأرجوحة في الخارج أنتظرك، كان صباحاً بارداً ملبداً بالغيوم، يوماً رمادياً وكئيباً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان.

رأيت سيارتكِ تقترب، أوقفتها أمام المنزل ونزلتِ مهرولة، لم أقف لاستقبالك، شعرت بأنني منهك وبأن قدمي مكبلتان، جئتِ وجلستِ بجواري، وضعتِ مفاتيح سيارتك على الطاولة أمامنا ومن ثم وضعتِ يدك على رأسي، قلتِ وأنتِ تمسحين على شعري: ليش جالس هنا عزيز؟ برد عليك.

-حتى لا يصبح الشيطان ثالثنا.

- لم أفهم!

- روبرت وباتي في الخارج.

رفعتِ حاجبيكِ: أهاااا، دعابة يعني؟

ابتسمت على الرغم مني: دعابة.

وضحكنا!، كنا دائماً ما نستخدم هذه الكلمة حتى في أكثر حواراتنا حدة وجدية، دائماً ما كنتِ تسألينني بعدما أقول أي شيء يستفزك أو حتى يزعجك إن كان ما قُلته دعابة، ساخرة من محاولتي للسخرية منكِ.

أسندتِ ظهركِ إلى مسند الأرجوحة وأخذتِ تتأملين الشارع معي بصمت ناعم، مددت لكِ بكوب قهوتي، أخذته وقلتِ من دون أن تنظري إلي: بماذا تشعر الآن؟

- لا أعرف. بعد لحظة صمت واسترسال قلتُ:

ـ أتعرفين بأنني قد أخبرته عنكِ؟

- حقاً؟!

أومأتُ برأسي: نعم، أتذكرين اليوم الذي قابلتكِ فيه في بيت عمك بالرياض؟

ضحكتِ: في حديقة البيت وبينما الناس يتناولون عشاءهم.

ابتسمت: في ذلك اليوم، وبعدما تركتكِ خلفي في بيت عمك، توجهت إلى بيته، كنت مضطرباً جداً من ذلك اللقاء، كان حرماني من رؤيتكِ ومن عدم مقابلتك تلك الإجازة يكاد أن يقتلني، لم يكن في مجلسه أحد حينما دلفت، كان يجلس في مجلسه أمام النار، فرح كثيراً لرؤيتي، وأقسم بأن يصب لي القهوة بنفسه.

ابتسمت: يا حبيبي هو.

- سألني بعدما شربت قهوتي عمّا بي، قال لي بأنني لست على عادتي، فسألته إن كان قد أحب يوماً، فأجاب بأنه قد أحب ابنة الجيران أثناء مراهقته، لكنه لم يتزوج منها لأنها كانت مخطوبة لابن عمها منذ أن ولدت، وأخبرني أن والدي كان يحب فتاة فلسطينية اسمها هديل، لكن جدي لم يسمح له بالزواج منها، فتزوج من أمي وأسمى أختي هديل عليها من دون أن تدري أمي عن وجود تلك المرأة.

- يؤ!

- لم أكن أعرف هذه المعلومة من قبل، لم أتخيلها أصلاً، لا أستطيع أن أتخيل والدي رجلاً عاشقاً لدرجة أن يسمي إحدى بناته على اسم محبوبته التي افترق عنها منذ أكثر من أربعين عاماً.

- أأخبرت أمك؟

- لا طبعاً لم أخبرها.

- كان يُفترض أن تخبرها.

- ألا تلاحظين بأنكِ فتانة؟

- لا أحب أن أرى امرأة يستغفلها زوجها.

- كل الرجال يستغفلون زوجاتهم، تعايشي مع الواقع.

- بدأت أعصب!، نعود إلى موضوعنا الأساسي.

- المهم، قال لي جدي بأنه وعلى الرغم من حبه لجدتي إلا أنه لا يزال يتذكر حبيبته التي كانت طفلة بين الحين والآخر، وبأنه لا يزال يتذكر ملامحها وأحاديثهما القصيرة العابرة، مثلما يفعل والدي بشكل من الأشكال وبلا شك، أتدرين لماذا؟

- لماذا؟

- لأنهما حرما من الزواج بمن أحبا، الحرمان هو ما يبقي الآخر شهياً وما يبقيه مرغوباً وما يبقيه استثنائياً مهما مرت علينا السنوات، قد لا يكون أي حب من هاتين العلاقتين حباً حقيقياً لكن عدم تمكنهما من أن يحصلا على المرأتين جعلهما صاحبَتَيْ تأثير وسطوة عاطفية وذكرى لا تنسى.

- هذا منطقي.

- أعتقد لو أنهما تزوجا من هاتين المرأتين لربما بات حبهما لهما أخف وأبسط بكثير مما هو عليه الآن، الحرمان هو ما جعل هاتين المرأتين عالقتين بالذكرى.

- وماذا قلت لجدك عنّا؟

- قلت له عن كل شيء، أحبكِ كثيراً، وفرح كثيراً من أجلنا، ووعدني أن يخطبكِ إليّ بنفسه.

همستِ: الله يرحمه.

قلت بسخرية: الآن احلمي أني أخطبك خلاص، ما في أمل.

نظرتِ إلي وقلتِ بعد صمت: دعابة يعني؟

- دعابة!

وضحكنا!

شعرت بأن أفكاري ومشاعري بدأت تستقر بعد مجيئكِ، وجودكِ بجواري أراحني كثيراً يا جمانة، خيم الصمت علينا فسرحت بعيداً، حيث الرياض، الأرض التي تليق بالموتِ وحشمة الموت، الرياض حيث أحب أن أموت وحيث ينام جدي عبد العزيز نومته الأبدية.

أخذت أفكر في والدي وأعمامي، في وليد وفي أبناءِ عمومتي، أخذت أفكر في جدي الذي مات ولاتزال كلماته التي أراد أن يقولها لي عالقة في حلقه، سألتكِ: ستكون الليلة أول ليلة ينام فيها داخل القبر وحيداً.

أخذتِ يدي ووضعتها بين راحتيكِ، استرسلت: سيكون القبر مظلماً كالليل الدامس، أتعرفين بأنه يخاف الظلام ولا ينام إلا بجوار أبجورة خافتة مضاءة بقربه؟

كانت عيناكِ تلمعان وتدمعان: سيتركونه في القبر وحده يا جمانة، في الظلام وحده.

قلتِ: هناك أقوال بأن سكان المقبرة من الموتى يستقبلون الميت الطيب، لا تخشَ عليه، لقد ذهب إلى من هو أرحم مني ومنك يا عزيز.

- اتصل بي قبل أيام، كان يريد أن يقول لي شيئاً لكنني لم أردّ على اتصاله.

- يحتاج إلى دعائك الآن، عمله منقطع إلا من ثلاث، ودعاؤك له إحداها.

أسندت رأسي وتركت الدمع ينسكب بلا مقاومة، كنت تمسحين وجنتي

بأصابعكِ وأنا أسمع نشيجكِ، التفت إليكِ بعدما شعرت بروحي تهدأ، قلت: أنا أبكي على جدي، أنتِ لماذا تبكين؟

أجبتني وأنتِ تمسحين دموعك: عشانك خلاص ما راح تخطبني.

سألتكِ: دعابة يعني؟

انفجرتِ ضحكاً من بين دموعك: دعابة!

أسندتِ رأسكِ إلى كتفي فأسندت رأسي إليه، كنت قد عقدت العزم على أن أتصدق بما منحني إياه جدي حينما أعود إلى الرياض، لا أعرف كيف سأعود إليها! كيف ستستقبلني الرياض يوماً من دون أن يستقبلني فيها جدي عبد العزيز، كيف ستكون بعدما خسرت أجمل وأحن وأرق ما كان فيها!

أخذت أفكر في حال والدي، وكيف ستمر أيام العزاء عليه، فكرت في الأيام الصعبة التي لطالما لم أكن موجوداً معه فيها، وكيف اعتاد على أن تمر أفراحه وأحزانه من دون مشاركة مني أو حتى وجود.

أخذت أفكر في رسالة وليد التي جاءتني كأي غريب عليه وعلى العائلة، فكرت في إقصائهم لي، وعلى نبذي عنهم بشكل غير مباشر.

فكرت كثيراً في إن كان أحد منهم سينتظر عودتي هناك، أحد يحتاج لأن أعود إليه ويشتاق عودتي حقاً، أحد ما غير جدي عبد العزيز الذي منحني كل شيء بما فيه اسمه، فكرت في الكثير يا جمانة، في الكثير لكن سؤالاً واحداً ظل يتردد صداه في وجداني «كيف يموت جدي من دون أن أجيب عليه»؟!

لِمَ فعلتها يا جدي!

****

كان عيد الأضحى في العام الماضي قاسياً عليكِ كثيراً، تعبتِ ليلة العيد، كانت هيفاء في زيارة لأهلها في الكويت فمررتِ بوعكة الوحدة المعتادة.

كنتِ تشتكين من آلام قولونكِ العصبية ومن عدم قدرتكِ على تناول شيء، كنتِ تتقيأين كل ما يدخل جوفكِ حتى أعياكِ الجوع والألم ليلة العيد، فحملتك تلك الليلة إلى المستشفى، وقرر الأطباء تنويمك ليومين حتى تستعيدي صحتكِ وتتجاوزي مرحلة الجفاف التي كادت تفتك بك.

نمت تلك الليلة عندك، على الأريكة وفي الغرفة ذاتها، كنت أستيقظ بين الحين والآخر لأتفحص ملامحكِ وأنتِ نائمة وقلبي يرقص من نشوة المشاركة.

كانت تلك أول وآخر ليلة ننام فيها في مكان واحد، لم تكن المرة الأولى التي أراكِ فيها نائمة، فلطالما نمتِ بجواري في السيارة، لكنها كانت المرة الأولى التي أراكِ تنامين فيها على سرير، المرة الأولى التي ننام فيها معاً تحت سقف واحد وطوال الليل.

قمت بعد منتصف الليل، كان النوم على الأريكة مزعجاً بالإضافة إلى أنني كنت سعيداً لدرجة النشاط، جلست على كرسي بجوارك، أخذت أتأملكِ، تنامين على جنبكِ محتضنة وسادة جانبية، ويدكِ الصغيرة موصولة بأنابيب المغذي، أخرجت هاتفي وصوّرتكِ، أضاء فلاش الكاميرا وجهكِ ففتحتِ عينيكِ بانزعاج، قلت لكِ: آسف حبيبتي، أزعجتكِ.

وضعتِ يدكِ على عينيكِ: ماذا تفعل؟

- أصوّرك.



- عشان شكلي مو حلو، صح؟

- شكلك عصفورة.

ابتسمتِ بعذوبة، فسألتك: تنامين دائماً على جنبك؟

- دائماً، وأنت؟

- أنام على ظهري وأحط رجلاً فوق رجل.

- ما شاء الله، حتى بنومك كاشخ!

- طبعاً.

- نومة وزراء هذي.

ضحكتُ فابتسمتِ، أخذتُ أتأمل ملامحك، أنتِ جميلة حقاً، جمالكِ هادئ، حقيقي وغير مفتعل، لكن شيئاً ما يجعلكِ أجمل مما أنتِ عليه حقيقة، شيء ما لا أعرفه ولا أفهمه، سألتكِ: لماذا أراكِ أجمل من على هذه الأرض؟

قلتِ مداعبة: لأنني الأجمل.

- لستِ كذلك، لكنني أراكِ الأجمل بالفعل.

ابتسمتِ: ربما لأنك تراني بعين الحب، الحب هو من يجعلني في عينك أجمل.

- حكيمة أنتِ.

اعتدلتِ في جلستكِ وجلستِ على طرف السرير، سحبتِ ساعتكِ الموضوعة على المنضدة، قلتِ: اليوم العيد، ما الذي يفعله أهلنا الآن باعتقادك؟

- يأكلون اللحم.

امتقع وجهكِ فجأة، رأيت الدماء تتفجر في وجهكِ وأذنيكِ، وضعتِ يديك على وجهكِ وبكيتِ كطفلة، جلست على الأرض أمامكِ، قلت لكِ وأنا أسحب يديكِ من على وجهك: لماذا تبكين يا وجعي؟ ما بك؟

- لا أحب أعيادنا هنا.

- أتفتقدين أمكِ؟

- بل أفتقد الجميع، أريد أن أعود إليهم.

- وأنا؟ لمن تتركينني؟

-أشعر أحياناً بأنك لا تحبني.

رفعتُ قدمكِ ووضعتها على صدري، فوق قلبي مباشرة، قلت: أمتأكدة أنتِ من أنني لا أحبك؟

أومأتِ برأسك موافقة، قلت لكِ: أنظري إلى عيني.

سألتني بدهشة: ماذا؟

- أنظري إلى عيني مباشرة.

نظرتِ إلي، ونظرت إليكِ، كنت أحاول أن أحدثكِ من خلال عينيّ، كنت أريد أن أقول لكِ إنني أحبكِ من دون أن أنطق بها، شعرت بعينيكِ تشدانني إليهما، رأيت حبكِ لي أكثر مما رأيتِ أنتِ في عيني، دخت من رقة ما في عينيكِ واضطربت، شعرت بقلبي ينبض بسرعة لا تعقل، رأيتكِ ترفعين حاجبيك بدهشة وموطئ قدمكِ يهتز فوق صدري من سرعة تنفسي واضطراب نبضاتي، قلت لكِ مبتسماً: أرأيتِ؟

- أحبك.

رفعتُ قدمكِ وقبلّتُ موطئها، قلتِ لي: ألا يخدش غرورك أن تقبّل قدمي.

قلت وأنا ألعقها بلساني: لا، لكن لا تخبري أحداً!

ضحكتِ، فرقص الفرح في قلبي وانتشى!

****

وجدت رسالة جديدة من ياسمين في بريدي، كانت هناك ثلاث رسائل في بريدي منها، ثلاث رسائل أرسلت خلال الشهرين الماضيين ولم أتجرأ

على قراءة ما فيها أو فتحها، الغريب أنني لم أعد أقرأ حتى رسائلها الهاتفية، فما أن أجد أن اسمها في خانة المرسل حتى أحذف الرسائل من دون قراءة وكأنني أخشى قراءة ما فيها!

بعض الرسائل همّ! تشعر بأنك مذنب حين قراءتها، وبأن عينيّ مرسلها تتلصصان عليك أثناء القراءة، فكرت أن أحذف كل الرسائل الثلاث من دون قراءة، لكنني قررت أن أواجه كلماتها هذه المرة.

كنت أتوقع أن في رسائلها دهشة وعتاباً من غياب مفاجئٍ وغير مبرر، ربما لهذا السبب لم أجرؤ على قراءتها، ربما لأنني لم أرغب قراءة عتابها، وربما لأنني لم أرغب بأن تذكرني بما لا يزال عالقاً بيننا، وكأن تجاهلي إياها سينهي ما بيننا، وكأنه لم يكن يوماً!

كتبت برسالتها وباللغة الإنجليزية:

«عزيز! لا أعرف لماذا لا ترد على رسائلي! ولا أعرف لماذا اختفيت فجأة بعد زواجنا، من الواضح أنك ندمت على ما أقدمنا عليه، الحق أن كلانا ندم على ما وقع، لا أعرف بماذا كنا نفكر يومذاك، المهم أنني حتى الآن لا أفهم لماذا اختفيت فجأة، فحتى ولو أنك كنت نادماً على ما حدث فهذا لا يجعلك تختفي بهذه الشكل، خصوصاً وأنك لست مطالباً بشيء يخص هذا الزواج، ظننت أن علاقتنا لا يقيدها قيد لكنك فررت هارباً ما إن تزوجنا وكأنك تخشى أن أطالبك بشيء ما، أريدك أن تطمئن، فعلاقتنا ستظل كما هي مثلما ستظل مرحّباً بك في بيتي في أي وقت، ستظل علاقتنا بلا قيود وما يجمعنا أكبر بكثير من ورقة زواج! على فكرة، نحتاج لأن نبطل هذا العقد قريباً، اتصل بي في أقرب وقت لنباشر في ذلك، أرجو أن لا تتجاهل رسالتي هذه المرة أيضاً».

نهارك سعيد

ياسمين

شعرت أن عبئاً ثقيلاً أزيح من على صدري بعدما قرأت الرسالة الأخيرة، وإن تبقّى منه شيئ لا يزال جاثماً على قلبي، فكرت أن أتصل بياسمين، لكنني خفت أن يفتح اتصالي بها باباً لا أريده أن يفتح، فقررت أن أرسل لها رداً مختصراً على بريدها، كتبت:

«الجميلة ياسمين، أرجو أن تكوني بخير، أعتذر لعدم الرد عليكِ في الفترة الأخيرة، مررت ببعض الظروف، سأتصل بكِ قريباً لنباشر بإبطال الزواج، كان جنوناً منا لكنها ستكون ذكرى لطيفة بلا شك، انتظري اتصالي قريباً وكوني بخير دائماً».



محبتي

عبد العزيز

أرسلت الرسالة وأنا أفكر، إلى متى سيظل هذا الموضوع معلقاً؟! أدرك أن ما يوقعني في الكثير من المشاكل هو تسويفي لكل شيء، أنا هكذا، أهرب من مواجهة المواقف الصعبة وكأنها ستنتهي أو تمحى بهروبي من مواجهتها، لكن ما يحدث حقيقة هو العكس تماماً، تتفاقم الأمور كثيراً حينما أؤجلها، تتعقد وتتشابك وتتفرع وأنا وحدي من يندم في نهاية الأمر على تأجيلها، لكنني لا أريد العودة إلى موضوع ياسمين الآن، لا أريد مواجهته، أريده أن ينتهي ويختفي من دون مواجهة وإن كنت أعرف بأن اختفاءه ليس إلا ضرباً من ضروب المستحيل.

لست فخوراً بما فعلت، ليس فيما يتعلق بياسمين فقط، بل بأشياء كثيرة فعلتها في حياتي من دون تفكير مني، أفكر أحياناً في بعض ما فعلته خلال

حياتي، في كل ما فرطت فيه وفي كل ما فقدته، أفكر في الصورة التي رسمت في أذهان الآخرين عني، الصورة التي لم تكن تزعجني يوماً حتى بت أراها في عينيكِ أنتِ.

لو تدرين لكم يخنقني أن لا تصدقيني حينما أكون صادقاً! تقتلني نظرة التكذيب في عينيكِ وإن لم تنطقي بها، يؤلمني هذا الشك الذي تعيشينه حيالي، الحق أنه لم يكن يؤلمني سابقاً لكنه بات يفعل حينما أكون معكِ صادقاً.

ليتكِ تصدقينني يا جمانة، ليتكِ تفعلين وليت ياسمين تختفي!

****

انتهى العام الدراسي، تبقّى على تخرجكِ وعودتكِ النهائية إلى الرياض أقل من عام، ستسافرين إلى الرياض بعد أسبوعين، وتقضين الصيف هناك قبل أن تنهي عامك الأخير هنا وتعودي لأهلكِ إلى الأبد.

خشيت من عودتك إلى الرياض هذه المرة، خشيت أن تؤثر عليك رواسب ما حدث بيننا حينما تبتعدين عني فأخسرك، لذا قررت أن أحسم الأمر.

اتصلت بوالدي، سألته بعد حوار تقليدي ومعتاد: أتذكر الموضوع الذي حدثتك عنه قبل أشهر؟

- أي موضوع تقصد؟
- موضوع يتعلق بي، كنا قد تحدثنا عنه قبل عدة أشهر.

قال بصرامة: ذكّرني!

- موضوع الزواج.
- ظننتك صرفت النظر عن الموضوع.
- ولِمَ قد أصرف النظر عنه؟

- لم تفتح الموضوع معي أو مع والدتك مرة أخرى، فاعتقدنا أنك صرفت النظر.

- كنت مشغولاً بالدراسة خلال الفترة الماضية، بالإضافة إلى أنني لا أستطيع التقدم للفتاة وأنا هنا، لا بد من حضوري عند طلبها.

- أيعني هذا أنك لا تزال ترغب بالفتاة نفسها؟

- حتماً.

- متى ستجيء إلى الرياض؟

- بعد ثلاثة أسابيع.

- قل بعد ثلاثة أسابيع «إن شاء الله».

رددت خلفه كطفل صغير وأنا أرشح عرقاً: بعد ثلاثة أسابيع إن شاء الله.

- نتفاهم على الموضوع حينما تصل إن شاء الله، مبدئياً لا مانع لدي مثلما أخبرتك سابقاً، المهم أن تكون جازماً على الأمر وأن لا تحرجنا مع الناس.

- أنا جازم..... إن شاء الله!

تنفست الصعداء بعدما أغلقت من والدي، إلهي لكم هو صعب عليّ أن أحادثه! في كل مرة أتكلم معه فيها أشعر بقامتي تتضاءل وبالأعوام تعود سريعاً إلى الخلف لأغدو أمامه طفلاً صغيراً مرة أخرى.

لا أعرف متى أتخلص من عقدة «والدي» هذه، متى ستنتهي هذه الأزمة التي نشأت بيننا منذ سنوات طويلة وظلت مثلما بدأت، بالحجم ذاته والقدْر ذاته، والوطأة ذاتها.

لكم كنت متمسكاً بأمل أن تمحي سنوات البعد ما حدث بيننا، كنت آمل أن أعود يوماً ابن والدي!، أن أعود ابنه الكبير، سنده، ظهره والابن الذي

يتفاخر به أمام العائلة والناس، لكن البعد لم يزدْنا إلا جفاءً وبروداً وتخلياً، البعد منح وليد الأحقية بالفخر، وهبه الأولوية في كل شيء يخص والدي حتى مشاعره، وقد يكون هذا أحد أسباب برود علاقتي بوليد على الرغم من أنه شقيقي الوحيد.

يخيل إلي أحياناً أن علاقتي بوالدي ستعود مثلما كانت من خلالكِ أنتِ، أشعر بأن زواجي منكِ قد ينقذ علاقتنا السقيمة ويشفيها.

أشعر بأنني سأكسب عائلتي مجدداً بسببكِ أنتِ يا جمان، أنتِ وحدك القادرة على أن تعيد أواصرنا من جديد.

أعّول كثيراً على زواجنا يا جمانة، ليتكِ تعرفين كم أعّول عليه!

****

دعوتكِ بعد نهاية العام الدراسي بمناسبة «قرب» تخرجك، كنت أريد أن أفتح معكِ موضوع الزواج جدياً ونهائياً هذه المرة، فكرت أن أدعوكِ إلى مكان استثنائي لكنني وجدت أن المقهى الذي التقينا فيه أول مرة قبل أربع سنوات هو المكان الأنسب ليوم كهذا.

أنت فتاة رومانسية، تفكر كثيراً في رمزية الأشياء، تهمكِ هذه التفاصيل الصغيرة، التفاصيل التي قد لا يلحظها غيرك وقد لا تهم أحداً سواك، لذا كان المقهى الخيار الأفضل بالنسبة إليّ على الرغم من تواضع المكان وبساطته إلا أنني اتكأت على رمزيته بالنسبة إلينا نحن الاثنين.

سبقتكِ إلى هناك على غير العادة، عادة ما أجدكِ بانتظاري هناك حتى وإن جئت بموعدي، دائماً ما كنت تسبقينني في الحضور إلى الموعد حتى أنني قد سألتكِ مرة إن كنت تنامين في المقهى كل يوم!

جئت مبكراً بساعة كاملة، ذهبت أفكر فيما سأقوله، وكيف سأفتح الموضوع معك، كنت أدرك أن هذا الموضوع سيفتح مواضيع قديمة وكثيرة، كنت أدرك أنني تأخرت كثيراً في هذا الطلب، وأنني شوهت قيمته وجماليته في عينيكِ خلال العام المنصرم، هذه المرة يا جمانة راودتني الشكوك فيما ستجيبينني به!

طلبت لي كوباً من القهوة، وطلبت لك قهوتكِ المعتادة وكعكة الزنجبيل التي تحبينها، رأيتكِ تدلفين من باب المقهى بوجه منزعج على غير العادة، وقفت قائلاً: تأخرتِ كثيراً!

قلتِ بضيق وأنتِ تسحبين المقعد لتجلسي: لن يضيرك الانتظار!

كان من الواضح أنكِ منزعجة لسبب ما، لذا لم أجادلك هذه المرة، تشاغلت بحاسبي المحمول، وشعرت بكِ تفتحين حاسبكِ أيضاً، أرسلت لكِ حينما رأيتكِ متصلة في برنامج الماسنجر: «طلبت لك قهوتك وكعكة الزنجبيل».

كتبتِ: متى تترك هذه العادة؟

رفعت عيني إليك لأجدك تبحلقين في شاشة حاسبك معقودة الحاجبين، أجبتكِ على الماسنجر: أي عادة؟

– أن تقرر عني كل شيء.

– أنتِ تشربين القهوة ذاتها وتأكلين الكعكة نفسها منذ أربع سنوات وحتى الآن، ما الذي تغير بالموضوع؟

– فلتفترض أنني اشتهيت غيرها.

– سأفترض أنك مضطربة الهرمونات اليوم لأغفر لك عنفكِ هذا.

قلتِ بسخرية غاضبة: من الواضح أنك تفهم بأمزجة النساء أكثر مما أفهم!

كان من الواضح أنكِ في أسوأ حالاتكِ، فكرت في أن أؤجل طرح الموضوع معكِ ليوم آخر، ترددت كثيراً لكنني خشيت أن يباغتنا القدر بحدث ما يعرقل حكايتنا من جديد، شعرتُ بأنني فقدت الثقة بالقدر وبأنني لم أعد آمن جانب الحياة وتقلباتها.

جاءت النادلة بكوب القهوة لكِ، سلمتِ عليها وشكرتها، أخذت أراقبكِ وأنتِ ترتشفين القهوة من دون أن تنظري إلي وكأنكِ تجلسين وحدك، فتحت على موقع Hallmark الشهير، أخذت أتصفح بطاقات طلب الزواج الإلكترونية، كانت هناك بطاقة باللونين الأبيض والأسود لحبل غسيل علقت عليه ملابس داخلية رجالية ونسائية، راقت لي رمزية الصورة، اخترت البطاقة وكتبت لكِ فيها «أحتاج لأن أشاركِ كل شيء، حياتي، أفكاري، مشاعري، مستقبلي، بيتي وأطفالي وحتى ملابسي الداخلية، تزوجيني ياعصبية»، سجلت عنوان بريدك الإلكتروني وأرسلت الرسالة إليه.

سمعت صوت استقبال رسالة يعلو من جهاز حاسبك، رأيتك تعقدين حاجبيك بتركيز، ومن ثم ارتفع حاجباكِ بدهشة من دون أن ترفعي عينيكِ إليّ وأن تنظري لي، عدتِ بظهركِ إلى الوراء، سحبت ربطة شعرك التي كانت تطوق معصمك ورفعتِ شعركِ على هيئة ذيل حصان، كان وجهكِ وردي اللون فعلاً!

انحنيتِ باتجاه حاسبك، كتبتِ لي على الماسنجر: يا أخ؟

كتبت لك: نعم يا أخت!

سألتني إن كنت جاداً فيما أرسلته، أخبرتك أنني لم أكن جاداً كهذا اليوم، وأنني أريد أن أمر بتجربة الزواج التي جعلت سقراط فيلسوفاً، سألتني متى سأتقدم لكِ، قلت: حالما تنزلين إلى الرياض، بعد أربعة عشر يوماً!

رأيتكِ تنظرين إلي، رفعتِ أحد حاجيكِ بغرور لذيذ، ابتسمتِ وانحنيتِ من جديد على حاسبك، ارتفع بعدها بدقائق صوت استقبال رسالة في بريدي، كان عنوان بريدكِ المرسل، فتحتها لأجد البطاقة الإلكترونية نفسها وقد كتب عليها بالإنجليزية «فلنقم بذلك»!

****

سافرتِ قبلي إلى الرياض، أردتِ أن تطرحي موضوع ارتباطنا مع أهلكِ أولاً، كنتِ مختلفة في الأيام الأخيرة قبل سفرك، ففي كل مرة نتناقش فيها بخصوص الموضوع، كنت أرى سحابة من التردد تبرق في عينيكِ، كانت هناك لحظات من التراجع الخفي تنتابكِ وتجتاحك، وإن حاولتِ مقاومتها.

طلبتِ مني أن أتحفظ على موضوع زواجي من ياسمين وأن لا أتطرق إليه معهم مهما حصل، قلتِ بأن عائلتكِ لن تسمح لك بالزواج من رجل سبق له الارتباط مهما كان نوع هذا الارتباط ومهما كانت أسبابه.

في حديثكِ عن الموضوع لم تسمّي ياسمين ولم تسمّي العلاقة، قلتِ باقتضاب: لا داعي لأن يعرف أهلي بما فعلت يا عزيز.

سألتكِ: أي فعل هذا؟

قلتِ وأنتِ تشيرين بيدكِ بنفاد صبر واشمئزاز: حكاية مونتريال تلك.

كان من الواضح أنكِ لا تريدين مناقشة الموضوع معي ولا تسمية الأفعال والأشخاص والأشياء المرتبطة بهذا الموضوع، فعلياً أنتِ لم تفتحي هذا الموضوع منذ أن استعدنا علاقتنا، لم تسأليني عن شيء يتعلق به على الرغم من أنك امرأة/ سؤال!، امرأة فضولية تسأل عن أدق التفاصيل وعن أتفه الأشياء.

كنت أدرك أن تلك التفاصيل كانت لتؤلمكِ كثيراً، لذا اخترت طوعاً أن لا تسألي عنها، وأن تبقى مجهولة بالنسبة إليكِ وباختياركِ؛ فالحقيقة قبيحة غالباً، وأنتِ لم تعودي ترغبين إلا برؤية الجمال في علاقتنا.

قلت لك إنني لم أكن لأخبرهم بلا شك، مثلما لن أخبر عائلتي بذلك، قلت: هو أمر سخيف على كل حال، مضى وانتهى ولا يستحق الذكر.

رمقتني بنظرة حقد لا تليق بك، كنتِ دائماً ما تنظرين إلي بعتب، كنت أرى العتب في عينيكِ في كل مرة أقسو عليك فيها، لكنني رأيت الحقد في عينيكِ جلياً هذه المرة وإن لم تفصحي.

كنت مختلفة جداً يا جمانة، شيء فيكِ لم يعد كما كان! أعرف بأن «الحقد» هو أبسط حقوقكِ بعد كل ما حدث، لكنني لم أتخيل أن تجيديه يوماً، امرأة مثلكِ لا تعرف أبجديات الحقد فكيف تبثه إلي بكل هذه المباشرة حتى وإن كان عن طريق النظر!

أوصلتكِ إلى المطار، أمسكتِ معطفي بيديكِ حينما أعلن عن قرب إقلاع طائرتك، قلتِ بشيء من الشكّ والخوف: أتظن بأن الأمور ستجري على ما يرام؟

- أظن ذلك.

- وعد؟

قلت مطمئناً: أعدكِ يا جمان، أعدك!

تركتكِ تلحقين بطائرتكِ مطمئنة بوعدي، أخذت أرقبكِ وأنتِ تبتعدين وسط الزحام، كنتِ تلتفتين بين الحين والحين، وكأن وجودي خلفك يضمن الوفاء بوعدي، كنت ألوح لكِ كلما التفتِ وأنا أفكر، ماذا سيخبئ لنا القدر

في قادم الأيام وفي تلك البقعة البعيدة؟! فكرت كيف ستكون عودتكِ إلى هنا، هل ستعودين وحدكِ أم سنعود معاً على متن طائرة واحدة؟ وبأي صفة سنعود؟

أخذت أبحث في سيارتي عن قرص للأغاني سجلت فيه منذ سنتين أغنية طلال مداح «ما أوعدك» بصوتي، وجدت القرص بعد بحث، أدرته في طريقي إلى البيت، أخذت أفكر وأنا أستمع إليه، كم كنت أظن أن صوت طلال مداح بائساً ومحبطاً وهو يغني هذه الأغنية، لكنني اليوم أدركت بأن صوتي وأنا أغنيها أكثر بؤساً وإحباطاً، كان صوتاً معبراً عن اليأس :

ما أوعدك من يضمن ظروف الزمان

لا تصدقي من قال للدنيا أمان

ميعادنا خليه في كف الظروف

لا تحرجيني بالزمان وبالمكان

أخذت أردد في نفسي: من يضمن ظروف الزمان يا جمانة؟، من يضمن ظروف الزمان؟!

****

اتصلتِ بي حينما وصلتِ إلى لندن، كنتِ بانتظار رحلتكِ التالية إلى الرياض، قلتِ لي بأنكِ تفكرين جدياً بالهرب، قلتِ بسخرية: العروس الهاربة!

كنتِ تحبين فيلم جوليا روبرتس ذاك، ضحكتِ: أنا خائفة جداً!

- لا شيء يخيف، المهم أن تختاري الوقت المناسب لمناقشة الموضوع، صدقيني كل شيء سيكون على ما يرام.

همستِ: إن شاء الله.

- بمناسبة الحديث عن الهرب، ألا تلاحظين أن أمنية الهرب هذه تراودكِ منذ مدة؟

- طبيعي، الهرب حلم كل فتاة سعودية، بسبب ومن دون سبب.

ضحكت: هذا حلم المقموعات، لا يليق بكِ حلم كهذا.

قلتِ بخيبة: ليتنا نستطيع الهرب من أقدارنا.

دسستِ كلمتكِ المخذولة تلك في قلبي، وركبتِ طائرتكِ متوجهة إلى الرياض، اتصلتِ بي بعد وصولكِ بساعات، باغتتكِ عائلتكِ في المطار فلم تتمكني من أن تسرقي لحظات تحادثينني فيها، كانت مكالمتكِ تلك سريعة، هامسة ومسروقة ككل مكالمات الوطن، وعدتني أن تتصلي بي بعد ساعة أو ساعتين، لكنكِ لم تفعلي، تأخرتِ كثيراً فاتصلت بكِ.

أجبتني بصوت مخنوق، بحه البكاء وأعياه، سألتكِ: ما الأمر؟ لماذا تبكين؟

قلتِ بصوت يرتجف بكاء: لا شيء، سأتصل بك لاحقاً.

صحت فيكِ: لن أنهي الاتصال، تحدثي معي، أخبريني ما الأمر؟

قلتِ وأنتِ تشهقين: لا شيء، لكنني أجلس مع أمي الآن.

قلتِ كلمتكِ هذه لتخبرينني بطريقة غير مباشرة أنكِ قد تكلمتِ مع أمكِ بشأني، أحبطت كثيراً لأنكِ تحدثتِ معها بهذه السرعة، ومن دون أن تمهدي الموضوع إليها، كنت في موقف سخيف مع والدتكِ أصلاً، وإنهائي المكالمة معكِ بعدما عرفت أنها بجواركِ سيعزز صورتي كمراهق في عينيها، لذا قررت أن أواجه الموقف كرجل واثق وناضج.

سألتكِ: أهي بجوارك؟

- نعم.

- أعطها هاتفك، أريد أن أكلمها.

قلتِ بدهشة: لماذا؟

- سأتحدث معها.

همستِ: لا داعي لذلك.

قلت لكِ: جمان، لا تخشي شيئاً، سأحل الموضوع معها، لا تقلقي.

سمعت صوتكِ وأنتِ تقولين لها: يريد أن يتحدث معكِ!

قالت أمكِ بصوتها الوقور: أهلاً.

- مساء الخير يا خالة، كيف حالك؟

- بخير، كيف حالك أنت؟

- أنا بخير الحمدلله، منذ فترة وأنا أود أن أتحدث معكِ يا خالة، هو يوم مبارك الذي استطعت أن أتكلم معكِ فيه.

قالت: عبد العزيز، اتصل على هاتفي بعد خمس دقائق رجاءً، أعتقد بأنك تعرف رقمي.

قالت جملتها الأخيرة بتهكم، كان من الواضح أنها لا تريدك أن تسمعي ما سيدور بيننا، أو أنها تنوي أن تسمعني ما لاتريدكِ سماعه، قلت لها: حاضر، سأتصل بعد خمس دقائق، تأمرين أمراً يا خالة!

كانت أطول خمس دقائق في حياتي كلها! حاولت أن أرتب فيها أفكاري وما سأقوله لأمكِ، لكنني لم أكن أعرف ما سأقوله!، فكرت فيما سأرد عليها لو لامتني على مكالمتي لها قبل أشهر، وكيف سأدافع عن نفسي أمامها، فكرت فيما لو قالت لي بأنني لا أنفع لكِ زوجاً ولو طلبت مني أن أبتعد عنكِ، فكرت فيما لو شتمتني، لو هددتني، لو أخطأت عليّ بحديثها! فكرت بأسئلة كثيرة بلا إجابات، خشيت أن أتأخر عليها، فتزداد غضباً، فاتصلت بها بلا خطة ولا فكرة.

سألتني بعدما سلمت عليها: كيف حال والديك؟

أجبتها: بخير الحمدلله، سيسعدان كثيراً بلقائكم قريباً بإذن الله.

رميت الكرة في ملعب أمك سريعاً، لم أرغب بمراوغتها ولا إتلاف أعصابي في أمر كهذا، يبدو أن هذا أراحها كثيراً ووفر عليها عناء المجاملة، قالت: بإذن الله، لكن أمور الزواج لا تحسم بهذه السرعة يا عبد العزيز، لا بد أن يفكر الإنسان ألف مرة ومرة قبل الإقدام على خوض أمر أبدي كهذا.

- حتماً يا خالة، لا تظني أن رجلاً بعمري لم يفكر ملياً قبل الإقدام على خطوة كهذه.

- على فكرة يا عبد العزيز، أنت في منتصف الثلاثينيات، ابن عائلة معروفة، مرتاح مادياً ومتعلم، لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

كانت أمكِ مباشرة جداً، ولم يكن من الحكمة مخادعتها أو التذاكي عليها، لكنني أجبت: لأنني لم ألتقِ جمانة قبلاً، وحينما وجدتها نويت الزواج منها.

- وما الذي يوجد في جمانة برأيك ولا يوجد في غيرها؟

- ألا يكفي أنني أحبها لسنوات؟

- وهل تعتقد أن الحب كل شيء؟ الحب وحده لا يضمن زواجاً ناجحاً.

- قطعاً هو لا يضمن نجاح الزواج، لكنه إحدى ركائزه، والركائز الأخرى موجودة في علاقتنا، نحن متكافئان اجتماعياً وعلمياً وثقافياً، متفاهمان على أهم الأشياء، ولدينا اهتمامات مشتركة وتصور مشترك عن الحياة بعد الزواج، فلماذا لا ينجح زواجنا؟

- المعذرة يا عبد العزيز، لكن هناك أموراً كثيرة تقلقني تجاه هذا الزواج، فارق العمر بينكما ليس بسيطاً، عشر سنوات كاملة تفصل بينكما، عزوفك عن

الزواج طوال هذا العمر على الرغم من أنك تعيش في الغربة منذ سنوات هو أمر مقلق كذلك، والسبب الأهم من كل هذه الأسباب هو تصرفك الذي قمت بي تجاه جمانة، مكالمتك تلك تنم عن طيش لا يليق بعمرك ولا بمستواك التعليمي ولا بأخلاق عائلتك، بالإضافة إلى أن تصرفك لم يكن يحمل من النبل والشهامة شيئاً، كدت أن تنهي مستقبل الفتاة بمكالمتك تلك لولا تعقلي ومعرفتي الجيدة بابنتي.

لم أعرف بماذا أرد على أمك، لا أعرف كيف لم أفكر في يوم كهذا قبل أن أتصل بها قبل أشهر! أظن أن الغيرة أفقدتني صوابي يومذاك، فحينما نوشك على إنهاء علاقتنا بمن نحب لا نفكر بالعواقب أبداً، نشتاط غيرة وغضباً فنشوه كل ما يربطنا به من دون أن نفكر في عواقب ذلك الغضب، حينما نغضب نشعر بأن النهاية حانت، لذا نفقد توازننا وتتساوى الأشياء لدينا ولا نكترث لما قد نفعله ونفقده بعد ذلك، من دون أن يطرأ في أذهاننا ولو للحظات احتمالية الاستمرارية أو العودة يوماً.

لم أفكر في يوم كهذا، ولم أتوقع عودة المياه إلى مجاريها، لذا وقفت عارياً أمام أمكِ إلا من خطيئتي الفادحة، لم يكن هناك شيئ سيبرر فعلتي لديها، ولم تكن المكابرة ستجدي نفعاً، لذا قلت لها مقراً: معكِ حق يا خالة، كان جرماً عظيماً ولا أعرف كيف أقدمت عليه.

- من يعمه الغضب بهذا الشكل، شخص يفتقد الحلم والحكمة، وهذا قد ينبئ أحياناً بشخص انفعالي وعصبي وربما عنيف، وهذا ما لن أقبل به ولن أقبل بتوريط ابنتي فيه.

_ أتفهم مخاوفك، لو كانت ابنتي لفكرت بذلك أيضاً، ولا شيء سيبرر

ما قمت به، لكنني لست كما تظنين، هذا ليس من طباعي وما فعلته ليس من عادتي، أنا أعرف جمانة منذ أربع سنوات، ولم أقدم يوماً على مسها أو إيذائها، وبإمكانكِ أن تسأليها عن ذلك.

- عين المحب ضريرة يا عبد العزيز.

- جمانة ليست بعمياء يا خالة، جمانة حساسة البصر والبصيرة، وتستطيع أن تفرق وتميز بين السيء والجيد صدقيني، لو كنت عابثاً لما استمررت معها في علاقة لمدة أربع سنوات.

- ولماذا لم تتقدم بخطبتها قبلاً؟ لماذا بعد أربع سنوات؟

كان سؤال أملِ صعباً هذه المرة، كنت أعرف أنني سأفشل بالإجابة مهما كانت، فأنا لم أفكر في سؤال كهذا، لم أتوقعه منها لذا لم يكن في أرشيف إجاباتي إجابة شافية عليه، صمت قليلاً وقلت وأنا أبتلع ريقي: لأنني لم أكن مستعداً للزواج.

- لم تكن مستعداً لماذا بالضبط؟ من الواضح أنك جاهز للزواج من نواحٍ مادية واجتماعية وعمرية، فما الذي كان ينقصك لتقدم عليه ما دمت تحب جمانة منذ سنوات؟

شعرت بأنني لن أقدر على مبارزة أمك أكثر، فكرت في أن أسلم إليها كل أسلحتي وأن ألجأ معها إلى التفاوض، قلت: لم أكن جاهزاً نفسياً وعاطفياً للزواج، كنت بحاجة لأن أتأكد من مشاعري، فكلما تأخر الشاب عن الزواج أصبح قرار الزواج صعباً عليه.

- وهل يستغرق التأكد من المشاعر أربع سنوات كاملة؟

- لم أكن مستعجلاً ولم تكن جمانة مستعجلة كذلك.

- وما رأي أهلك في هذا الزواج؟

– هم يباركونه بلا شك، وإلا كيف سأتقدم لخطبتها؟

– أيعرفون عن علاقتكما؟

فكرت أن أخبرها أن والدي يعرف، لكنني خشيت أن يزعجها الأمر فقلت: لا، لا أحد يعرف، يعرفون أنها زميلة في الجامعة فقط.

– أمتأكد أنت من ذلك؟ أهلك لن يعاملوا ابنتي بطريقة تليق بها إن عرفوا أن حكاية حب كانت بينكما، أنت تعرف أن مجتمعنا محافظ ولا ينظر إلى الحبّ كما تنظر له أنت وجمانة وكما أنظر إليه أنا!

شعرت بأعصابي تتنهد بعد جملتها الأخيرة، أحسست وكأنها تقول من خلالها بأنها تبارك الحب لكنها تخشى علينا من نظرة الآخرين القاصرة له، قلت: لا تقلقي يا خالة، أنا لن أسمح بأن يمس جمانة أي شيء، أو أن يجرحها أحد، هذا وعد.

– انتبه يا عبد العزيز، أنا لن أسمح بأن ينتقص أحد من قدر ابنتي ومن مكانتها، كما أعرف جيداً أنّ والدها لن يقبل بأن تتزوج بهذا الشكل، أنت لا تعرف مكانة جمانة عند والدها ولا تعرف كم يحبها، والدها لن يرضى برجل ماطل في علاقته معها لأربع سنوات حتى يتأكد من مشاعره تجاهها، إخوتها لن يقبلوا بذلك.

– أفهم هذا وأقدره.

_ أنت شاب وتعرف كم يغار الشباب على أخواتهم، وتعرف ماذا قد يحدث لو عرف أحد منهم بأن أحداً ما مسّ أختهم بقصد أو من دون قصد.

– مفهوم مفهوم.

سكتت قليلاً وقالت بهدوء: الله يكتب اللي فيه الخير، لما تتقدم رسمياً بيكون لنا كلام طويل بإذن الله.

- بإذن الله.

صمتت أمك فاسترسلت: أتمنى أن لا يؤثر ما يحدث على علاقتكما أنتِ وجمانة يا خالة، جمانة تحبكِ كثيراً وغضبكِ منها سيدخلها في دوامة كبيرة لا أظن بأنها تستحق أن تدخل فيها، هي سعيدة بعودتها إليكم وتستحق أن تستمتع بهذه العودة وأن تهنأ بكل لحظة تقضيها معكم، وأنا متأكد أنكِ افتقدتِ وجودها كثيراً، كلاكما يستحق أن يسعد بوجود الآخر حوله ومعه.

قالت أمكِ باقتضاب في محاولة واضحة لإنهاء الحوار: طبعاً، هي ابنتي ولن يفرق بيني وبينها إلا الموت.

- أطال الله في عمرك يا خالة، لدي طلب إذا سمحتِ.

- تفضل.

- هل بإمكاني أن أتصل بجمانة الآن؟

- سأتحدث معها أولاً ومن ثم سأدعها تتصل بك.

كان من الواضح أن أمك تدرك أننا سنتصل ببعضنا، شاءت أم أبت! لذا وافقت على مكالمتي إياكِ، لم ترغب بخسارة موقفها كمسيطرة وكملمّة بما يحصل، أرادت أن تدور المواضيع بمتابعتها وبعلمها بدلاً من أن تحاك أمورنا في الخفاء، كان ذكاءً من أمكِ بلا شك، كنت أعرف أن امرأة حكيمة وذكية مثلها ستتخذ هذا الموقف برجاحة عقل وتروّ، لذا استأذنت منها في مكالمتِكِ، أردت أن أمنحها دور المتحكمة بالأمور لأعفيها من الوقوع في حرج أن تكون مجبرة ومغصوبة.

أتاني صوتكِ بعد نصف ساعة من الانتظار، جاءني مهموماً، ممتلئاً بالتوجس والخوف، سألتني فيما تحدثنا به طوال هذا الوقت، أخبرتكِ بما دار بيننا وبأن والدتكِ دست لي بعض التهديدات في حديثها، قلتِ بحروف باكية: هذا ليس عدلاً! ليس بعد كل ما مررنا به.

كنتِ غاضبة من القدر الذي كان واضحاً أنه لن يتساهل كثيراً في موضوع زواجنا، طلبت منكِ أن تثقي بي وأن تدعي الأمور تسلك دروبها التي قدر لها أن تسلكها، تركتكِ تنامين وأنتِ ترجفين كعصفورة تحتضر، تمنيت لو كنت بجوارك، كم أمقت الأيام التي تسافرين فيها بعيداً عني!

****

لم يزد موت جدي كآبة الرياض إلا كآبة!

حينما فتحت أبواب الخروج من المطار في وجهي، قلت في نفسي وأنا أخطو أول خطوة إلى الرياض «اللهم أكفينها بما شئت»! قلتها بقلب مقبوض وروح تزفر خوفاً.

في كل مرة أعود إلى الرياض، أشعر بأن حبلاً من خيش يحيط بعنقي، يضيق عليّ الخناق كلما قضيت يوماً فيها، وكأنهم يشترطون على زوارها في المطار أن لا يخرجوا منه إليها إلا بهذا الحبل الذي لا يرفع عنهم إلا بخروجهم منها.

لا أعرف حقيقة لماذا بتّ أكره هذه المدينة إلى هذه الدرجة! أدرك تماماً بأنني قد رحلت عنها مستاءً منها وزاهداً فيها، لكن مشاعري تجاهها تزداد حدة في كل يوم أقضيه بعيداً عنها.

هذه المدينة أم تعيسة، تبث التعاسة في قلوب أبنائها رغماً عنها ومن دون أن تقصد ذلك، هي امرأة عليلة بالكآبة أعدت أهلها ونقلت لهم فايروسها الكئيب ليقضوا حيواتهم فيها بـأرواح متهالكة وأحلام تقليدية، بسيطة ومتواضعة.

لم أخبر عائلتي عن موعد رحلتي هذه المرة، قررت أن أجيء فجأة، علّ المفاجأة تسعدني قبل أن تسعدهم!

أشعر أحياناً بأن المفاجآت خلقت لتسعد المفاجئين وليس المتفاجئين، هم يعدونها أحياناً من أجل أنفسهم، من أجل أن ينتشوا بردة فعل المتفاجىء، حتى في المفاجآت هناك قدر بسيط من الأنانية والرغبة في إسعاد الذات، وبما أنني أناني بفطرتي أردت أن أسعد ذاتي بمفاجأتهم لأول مرة.

حملتني سيارة أجرة من المطار إلى البيت، كانت الساعة تقارب التاسعة والنصف مساءً... إن لم تنقطع عادات أهلي ولم تتغير فهم الآن يجلسون معاً قبل موعد العشاء بساعة، عادة ما يعاقب المتخلف عن موعد العشاء، لذا لا يتأخر أحد منهم عن الموعد إلا وليد، حيث يجوز للشباب في وطني خرق قوانين المنزل أحياناً.

أخرجت مفتاح البيت من حقيبتي الكبيرة في المطار، كنت أتحسسه طوال الطريق وأنا أفكر، لما أشعر بكل هذا الضيق وأنا في وطني، متوجه إلى بيتي حيث أمي وأبي وشقيقاتي وشقيقي الذين لم أرهم منذ أكثر من عام.! كيف لا يتوق المرء لرؤية أهله؟ الحقيقة أنني متشوق لرؤيتهم، لكن ليس كما يجب عليَّ أن أكون، ليس كما ينبغي!

كنت أتأمل الرياض في طريقي إلى البيت، تبدو وكأنني قد تركتها ليلة الأمس، هذه المدينة تعود إليها لتجدها مثلما كانت، بالملامح ذاتها والرائحة ذاتها وكذلك الزينة.

تغير في الرياض كل شيء ولم يتغير فيها شيء، حينما سافرت إلى كندا لأول مرة، لم يكن متزوجاً من أخواتي سوى عهود، شقيقتي الكبرى التي تزوجت قبل سفري بأشهر، كانت مها مخطوبة، واليوم أعود بعد عشر سنوات لأجد عهود ومها ومشاعل أمهات لما مجموعه «عشرة أطفال»، أي

بمعدل طفل واحد مقابل كل سنة غبت عنهن فيها، وكأنهن كن يعوضن غيابي بالإنجاب!

أعود اليوم إلى البيت لأجد شقيقتيّ الصغيرتين هديل ولينا اللتين تركتهما وهما طفلتان، شابتين يافعتين تدرسان في المرحلة الجامعية، فهاتان الفتاتان اللتان كنت أزورهما كل عام وأحياناً كلّ عامين ليذهلني نموّهما السريع وتغيّرهما عاماً بعد العام، أجلس معهما في كل زيارة وكأنني أجلس مع قريباتٍ لي، لا أشعر بحميمية الأخوة تجاههما، ربما لأنهما كبرتا بعيداً عني وربما لأنني لا أعرفهما مثلما يجب على الأخ معرفة أخواته.

شعرت بالغثيان حينما وقفت أمام باب منزلنا، أصل إلى مرحلة الغثيان حينما تتعالى وتيرة توتري، كان قلبي يخفق كفرس تركض جامحة، لم أكن متأكداً من أن أهلي لم يغيروا مفاتيح بوابة البيت، لكن الباب فتح حالما أدرت المفتاح، لأنها الرياض التي لا يتغير فيها شيء!

كانت أضواء الفيلا مفتوحة، وصوت مذيع الأخبار يقرأ النشرة بصوت عال للغاية، صعدت الدرج بنفس متقطع لأجد أمي وأبي وهديل ولينا على طاولة الطعام يتناولون عشاءهم، لاشك أنهم ظنوا أن صوت خطواتي صادر من إحدى الخادمات أو من وليد، قلت: السلام عليكم!

شهقت أمي، وسمعت صوت هديل ولينا وهما تصرخان، بينما لم تكن عيناي ترى في ذلك الوقت إلا ملامح أبي، برأسه الحاسر وملامحه التي بدأت تشيخ، شعرت بلينا وهديل وهما تتعلقان بعنقي وبأمي تحتضنني وتشهق بكاءً وهي تحمد الله كثيراً، وقف أبي بعينين مختلفتين، رأيت فيهما عينيّ جدي!

في كل مرة كان يستقبلني والدي فيها في المطار مع أمي وأخواتي، كنت أقبّل رأسه ويده ما إن أراه ليسلم عليّ بعدها وكأنني لم أغب عنه إلا أياماً قليلة،

هكذا كنا نستقبل ونودع بعضنا بعضاً في كل عام، لكنني لم أشعر بنفسي إلا وأنا أندفع إليه هذه المرة، ضممته إلي، بقامته الفارعة ونحول الكهولة بدأ يشكل جسده بهيئة جديدة لم أعتدها.

كنت مشتاقاً إلى جدي!، لم أظن بأنني سأعود إلى الرياض من دون أن أعرج إليه بعد وصولي إلى المطار، كنت بحاجة لرائحة دهن عوده التي كانت بالنسبة إليّ «رائحة الرياض».

لا أعرف كيف مات جدي من دون أن أكون حاضراً مع والدي، من دون أن أسنده في جنازة أبيه وأبي، من دون أن أواسيه وأعزيه وأن أخفف عليه مصيبته، وأن يخفف عليّ مصيبتي.

احتضنت أبي بقدر ما كنت آسفاً ومتألماً ومجروحاً ومشتاقاً لجدي، احتضنته بقدر ما كابرت طوال الفترة الماضية، أسندت جبهتي إلى كتفه، تعلقت به كطفل صغير وبكيت كل الأشياء التي فاتتني.

قال بصوته العميق وهو يضع يده على رأسي: الحمدلله على السلامة، حيا الله ولدي!

حينئذ رفعت رأسي من على كتفه، كانت عيناه ممتلئتين بدمع لم يبرح عينيه، قلت: الله يسلمك يبه!

كانت أمي وهديل ولينا يقفن من حولنا، كانت أعيننا دامعة جميعاً، هن فرحاً وسعادة وتأثراً ببكائي وبكاء والدي، وأنا وهو لأسباب لا نقدر أن نعبّر عنها!

دعاني أبي لمشاركتهم العشاء الذي لم يتناول أحد منهم شيئاً منه بعد مجيئي، جلست بجوار أمي التي كانت تحمد الله طوال الوقت على سلامتي وعلى رؤيتي، سألني والدي عن سبب عدم إبلاغهم بموعد وصولي، أخبرني

بأنها كانت مفاجأة جميلة لم يتوقعها أحد منهم، تحدثت الفتاتان عن تغير شكلي خلال عام واحد، قالتا إنني ازددت وزناً فغدوت أكثر وسامة، واسترسلتا في أحاديث أنثوية طويلة.

قطع أحاديثهما والدي: فلتذهب لتنام الآن، لا بد من أنك متعب من السفر، لن تنام أبداً إن استمررت في الحديث معهما، أحاديثهما لا تنتهي.

قلت بسخرية ممازحاً لينا وهديل: واضح، ساعتين وصدعوا رأسي.

قال أبي مازحاً: أنا قايل لأمك، إن ما تركن كثر الحكي، بنزوجهن ونفتك منهن الثنتين.

علت أصوات هديل ولينا معترضات على فكرة الزواج، أما أنا فاستأذنت لأرتاح، كانت غرفتي مغلقة وممتلئة بالغبار حيث لم تتوقع أمي عودتي المفاجئة.

لذا نمت في ملحق الضيوف، عندما وضعت رأسي على الوسادة، ابتسمت لأن والدي اعترف بي أخيراً!

لم يناديني والدي بـ «ولدي» منذ أكثر من عشر سنوات، ولم أقل له «يبه» منذ المدة ذاتها، كان يناديني بعبد العزيز وكنت أناديه بـ «طويل العمر» أو «طال عمرك» وبـ «أبو عبدالعزيز» أحياناً!

اليوم ناداني أبي بولدي، وأجبته بـ «يبه»، جدد اليوم أبي اعترافه بأبوتي وجددت أنا اليوم اعترافي ببنوتي له!

فعلاً المفاجأة تسعد المفاجئ أكثر مما تسعد المتفاجئ، كم كنت محقاً في أنانيتي!

****

أظن أن لكل أم رائحتها الخاصة التي لا تشبهها رائحة، رائحة أمهاتنا لا تتغير منذ أن ينجبننا وحتى نموت أو يموتن، وها هي أمي تتسلل إلى غرفتي وعبيرها يسبقها إلي، ليمسح رأسي ويربت على ظهري ويلاعب ملامحي بحنان أمومي لا يضاهيه في الدنيا حنان.

شعرت بها تقترب مني، وضعت يدها على كتفي وقالت وهي تهزه بلطف: عبد العزيز، عبد العزيز.

فتحت عيناً واحدة ليطالعني وجهها بحكاياته وأيامه وتضحياته وتنازلاته، أمتلأت روحي بملامحها قبل أن تمتلئ عيناي بها.

قالت: صباح الخير يا أمي، يلا أصحى أفطر معانا.

هززت برأسي قائلاً: أبشري.

- إذا تبي تتحمم، أطلع لغرفتك أحسن يا أمي، جهزنا لك الغرفة.

ابتسمت! هي هكذا تنظم كل ما في حياتنا ما دمنا تحت جناحيها، في حضرتها يسهل علينا كل شيء ويتوافر لنا كل شيء من دون أن نطلب منها شيئاً.

صعدت إلى غرفتي، دخلت الحمام لأستحم ولأخرج منه وقد نقلت حقائبي من غرفة الضيوف إلى غرفتي، فتحت حقيبتي لأرتدي ملابسي، فخطر لي أن أرتدي ثوباً بعد طول غياب، تناولت أحد أثوابي القديمة من خزانة الملابس، لأفاجأ به ضيّقاً عليّ، كنت أعرف بأن وزني قد ازداد في الفترة الأخيرة لكنني لم أتخيل أن يكون قد ازداد إلى هذه الدرجة، لم يكن الثوب ضيقاً لدرجة القبح أو تقييد الحركة، لكنه كان واسعاً في آخر مرة ارتديته فيها قبل قرابة العام، لم أبدل الثوب ونزلت لتناول الفطور وأنا أرتديه.

كان على طاولة الطعام كل من أمي وأبي وهديل ولينا، قبّلت رأس أمي

وأبي وجلست على أول مقعد على يمين أبي كما تجري العادة حينما أكون حاضراً.

سألتني هديل وهي تشير إلى ذراعي: هذي عضلات؟!

قلت بسخرية: لا بلونة!

قالت بدهشة: لا من جد، كيف؟

- نبتت!

قالت: كيف نبتت؟

- أكلت حبة وكل يوم الصباح أشرب موية وتكبر تكبر.

قالت لينا: الظاهر تحسبنا للحين بنات صغار تضحك علينا.

ابتسمت وأخذت أتأملهما، كبرتا فعلاً، لا أعرف كيف أصبحتا فجأة في الجامعة، مؤلم أنني فوّت فرصة مراقبتهما وهما تكبران، لم أكن أعرف ماذا تدرسان، سألتهما: صحيح، كبرتما فجأة، أصبحتا عجوزتين، ماذا تدرسان بالمناسبة؟

قالت هديل: توقع ماذا أدرس؟

- طبخ؟

- طبخ؟!!

- أقصد الاقتصاد المنزلي.

قالت باستنكار: لا طبعاً!

- ماذا تدرسين؟

أجابت بفخر وحماس: فرنسي!

ضحكت: بصراحة ما توقعت، شكلك ما يعطي، وأنتِ يا لينا، ماذا تدرسين؟

قالت بلا مبالاة: قانون.

- قانون!، قانون محاماة؟!

هزت رأسها موافقة، التفت إلى والدي: هل استحدث قسم القانون للفتيات؟

قال بهدوء: القانون والإعلام.

قلت للفتاتين: أبهرتماني فعلاً، لم أتوقع هذا منكما بصراحة، توقعت أن تدرس إحداكما الطبخ وأن تدرس الأخرى الخياطة.

مدت أمي إلي كوب الشاي: خلك منهم ويلا قول بسم الله.

مددت يدي إليها وأنا أبتسم، ها هي أمي تلقنني اسم الله كطفل صغير قد ينسى ذكر الخالق، كنت أراقب والدتي ووالدي وأخواتي أثناء الإفطار، أراقب تعابير وجوههم، لغة أجسادهم، كلماتهم، أصواتهم، درجاتها ونبراتها.

حينما يعود الرجل إلى بيت أبويه، يعود طفلاً أمامهما وفي حضرتهما حتى وإن بلغ من العمر عتياً، كنت أشعر بأنني صغير أمامهما وكأنني عدت عقوداً طويلة ماضية.

غادرت هديل ولينا بعدما انتهينا من جلسة الإفطار، وبقيت مع أمي وأبي على الطاولة لأكثر من ساعة ونصف بعد ذلك.

أخذا يحدثانني عن كل ما حدث خلال العام الأخير من غيابي.. عن وفاة جدي، عن مراسم العزاء، عن الأيام الصعبة التي مروا فيها بعد رحيله ومفاجأة موته، كان والدي قد استعاد لهجته الجافة معي وكأن ليلة البارحة لم تخلف شيئاً في داخله.

الحق أنني تعلمت كثيراً من تجربة المفاجأة تلك، تعلمت منها أن

المفاجآت تفضح مشاعرنا الحقيقية، اليوم أنا أعرف أن والدي لا يزال يحبني ولا يزال يشتاقني على الرغم من سنوات الجفاء والبرودة والحدة.

ربما لا يسعدني كثيراً أن يستمر والدي في معاملته الجافة معي ولي، لكنني سأعتبر دموعه لحظة دخولي عليهم خير عزاء يواسي قلبي ويطمئنه أن شيئاً من الحب والاشتياق والفقد يعتمل في صدره تجاهي.

سألني والدي بعدما أنهت أمي سرد الأخبار عليّ: متى سنزور الجماعة؟

- أي جماعة؟

- أهل العروس، أصرفت النظر عن الموضوع؟

- لا لم أصرف النظر عن الموضوع، لقد جئت من أجله.

قالت أمي بعتب: وأهلك؟ ألم تأتِ لرؤية أهلك؟

- طبعاً جئت لأراكم ولموضوع الزواج أيضاً، بالمناسبة أين وليد؟

قال والدي: الوليد مسافر إلى هولندا، سافر من يومين.

هكذا أبي دائماً، يصحح اسم وليد بتعصب شديد، دائماً أسأل «أين وليد، كيف حال وليد»، ليجيبني أبي «الوليد مسافر، الوليد بخير» وكأن أل التعريف ستضيف إلى وليد شيئاً أو تغير فيه شيئاً!

لا يحب أبي اختصارات الأسماء ولا تدليلها، في منزلنا كل ينادي الآخر باسمه كما هو مدون في جواز سفره وفي بطاقة الأحوال الشخصية، حتى أنا صاحب الاسم الطويل الثقيل، يناديني كل من في بيتنا باسمي كاملاً «عبد العزيز»، لا ينقصه حرفاً ولا يزيده نقطة!

لا أعرف ماذا ستفعلين بأبي يا جمانة حينما يسمعكِ تنادينني بعزيز بحروف مُدَلَّلة ومُدَلِّلة، أنتِ التي لا تنطقُ اسمي كاملاً إلا أن أجرمتُ في حقّها، وكأنكِ تعاقبين جرمي بنطق اسمي بكل ما فيه.

قلت معقباً على سفر وليد: يوصل إن شاء الله بالسلامة.

قام أبي من مكانه: فلتعطِ رقم أم البنت لأمك لتتصل بها اليوم، أنا سأتوضأ للصلاة.

قالت أمي ما إن تأكدت من مغادرة أبي: والآن أخبرني، كيف تعرفت على الفتاة؟

قلت: جمانة، اسمها جمانة.

أشارت بيدها بشيء من العصبية: ما هذا الاسم! ليس جميلاً، المهم أخبرني كيف تعرفها.

- أخبرتكِ قبلاً أنها زميلتي في الجامعة.

- وهل تظن بأنك ستقنعني أنها مجرد زميلة؟

كنت أعرف أن هذا الحوار سيطرح بهذا الشكل، وأن هذه الأسئلة ستطرحها أمي عليّ لا محالة، لكنني لم أتوقع أن يفتح الموضوع بهذه السرعة بما فيه من حدة.

قلت: لأختصر عليكِ وعليّ الموضوع والوقت والجهد، هي زميلتي في الجامعة وتصغرني بعشرة أعوام وأحبها منذ أربع سنوات.

شهقت أمي: ستتزوج فتاة تقيم علاقة معها منذ أربع سنوات؟

- علاقة حب شريفة.

- أي علاقة شريفة هذه التي تربط بين فتاة ورجل غريب عنها لأربع سنوات؟

قلت بعصبية: من يستمع لحديثكِ يظن بأنني قد نمت معها!

قالت بانفعال: ولا تكون الفتاة فاجرة بنظرك إلا إن نامت معك؟

- أنا أعرف الفتاة جيداً وأعرف أخلاقها، لم أعرفها يوم أمس لأتسرع بالحكم عليها.

- من الواضح أنها غسلت مخك، «ضحكت» عليك!

- يا بنت الحلال أنا لست بمغفل ولست بساذج، أنا رجل في منتصف الثلاثينيات، لا يوجد شيء في الحياة لم يمر عليّ ولم أعرفه، أعرف الفتاة الطاهرة وأعرف الفتاة الفاجرة وأستطيع التمييز بينهما وأنتِ تدركين ذلك جيداً.

- يا عبد العزيز هذه النوعية من الزيجات لا تدوم ولا تستمر، لا تدع مشاعرك تخدعك وصدقني الزواج عن طريق العلاقات زواج فاشل ولا مستقبل له.

- شكراً جزيلاً يا أمي على النصيحة، فعلتِ ما عليكِ فعله بنصحي، دوري أن أتحمل مسؤولية اختياري وقراري.

- ولماذا تجازف بتجربة زواج نتيجته الفشل مئة بالمئة؟

- دعكِ من الإحصائيات الذاتية يا أمي!، الله وحده يعلم ما مصير هذا الزواج وما مصير غيره، قد أنجح باختياري وقد أفشل باختياركم، هذه الأمور لا يعرفها أحد غير الله.

ـ وإن لم أرضَ على هذا الزواج؟

- سترضين بمشيئة الله، لأنك تدركين جيداً أنني لم أحضر إلا من أجله، إن كنتِ لن تساعديني بإتمامه سأعود من حيث جئت، وعلى أقرب طائرة لأن ليس هناك ما أبقى من أجله هنا.

- أتتخلى عن أهلك من أجل فتاة يا عبد العزيز؟

ـ أنتِ من ستتخلين عن ابنك من أجل موروثات اجتماعية غبية، إن كنتِ ستحرمينني من حلمي لا تتوقعي أن أبارك حرمانكِ لي، من أقل حقوقي أن أبتعد عن الذين يعاقبونني بالحرمان لا لشيء إلا لأنني من اختار شريكته، ليس هم!

سكتت أمي قليلاً وقالت: ستندم كثيراً يا عبد العزيز على هذا القرار، هذا الزواج لا مستقبل له.

وصلتني رسالة نصية على هاتفي، قرأتها وأنا أقول لأمي: لن يندم أحد إن شاء الله.

كانت الرسالة منكِ، تستفسرين فيها عن تأخري بالاتصال بكِ وعن قلقكِ عليّ، لم أكن قد اتصلت بكِ بعد وصولي إلى الرياض، آخر مكالمة أجريتها معكِ كانت في المطار عند المغادرة.

طلبت رقم هاتفكِ وأمي تحدثني عن بعض الزيجات الفاشلة التي شهدتها والتي قامت على أسس الحب، أجبتني بصوتٍ فرحٍ: حيا الله هالصوت!

سألتكِ من دون أن أسلم: نورت الرياض؟

قلتِ: بس نورت؟!، جانا إلتماس كهربائي من نورك!

كانت أمي تطالعني وأنا أتحدث إليكِ بأعين متفاجئة، أردت أن أخفف من وطأة المفاجأة عليها وأن ألطف الأمر بينكما، قلت لكِ: ستكلمكِ أمي.

مددت الهاتف لأمي قائلاً: أمي، هذه جمانة، ستسلم عليكِ.

دفعت أمي بيدها الهاتف وقامت من مكانها: لا أريد أن أكلمها.

وضعت هاتفي على أذني، كنتِ صامتة، وكان من البديهي أنكِ سمعتِ ما قالته، قلت لكِ: جمانة، سأتصل بكِ بعد دقائق، انتظريني.

قلتِ بصوتٍ أقرب إلى الهمس: حسناً، سأنتظرك.

كانت آثار الخيبة والدهشة بادية على صوتكِ، لحقت بأمي وهي تصعد السلم، وضعت يدي على كتفها: الله يهديك يمه، كذا تحرجيني عند البنت؟

صاحت أمي: يهمك ما تزعل البنت ولا يهمك تزعل أمك؟

قبّلت رأسها ويدها: زعلك أهم من أي شيء ومن أي أحد عندي، وأعرف أن زعلي يهمك، أرجوك لا تحرميني من الشيء الوحيد اللي أبيه في الحياة، لا تصيرين أنتِ والحياة عليّ.

قالت أمي وقد بدأت تهدأ: وأنت يا تتزوج هالبنت بالذات وإلا أصير مع الحياة عليك؟

– أنا بحياتي ما طلبت منكِ شيئاً، أنا ماني مثل أخواني، ماني عايش معك ولا أطلب منك، لا ترديني بالشيء الوحيد اللي طلبته منك.

– أطلب أي شيء إلا هالطلب!

– وأنا ما أبي من الدنيا شيء غيره، بكرى لو صار لي شيء في غربتي لحالي راح تندمين أنك تركتيني أعيش الغربة بوحدة.

– وليه الوحدة؟ ما في بالدنيا إلا هالبنت؟ فيه ألف بنت تتمناك.

– بس أنا ما أتمنى غيرها وإن ما تزوجتها ما راح أتزوج غيرها.

– هذا كلام مراهقين يا عبد العزيز.

– هذا كلامي وما راح أغيره يا أم عبد العزيز، وأنتِ وضميرك.

تركت أمي تصعد إلى غرفتها لتصلي، دخلت إلى غرفتي، اضطجعت على السرير وأنا أفكر، ماذا لو خذلتني أمي وخانتني بحرماني منكِ؟

أخذت أفكر فيما لو خسرت أمي من أجلكِ مثلما خسرت أبي من أجل ريما سابقاً، فكرت في إن كنت قادراً على خسارة ثلثي الثاني، وإن كنت سأستطيع مقاومة الحياة كثلث وحيد.

لطالما آمنت بأنّ الإنسان يولد بثلاثة أثلاث، هو وأمه وأبوه، يخسر الإنسان ثلثاً ما إن يخسر أحد والديه، ويخسر الثالث الثاني بخسارة الآخر، ليعيش كثلث يتيم طوال حياته بلا أبويه.

هذه النظرية السخيفة المعتمدة على الأرقام، ليست نظرية رجل يتعاطى الأرقام كجزء من دراسته في علم الإدارة ولا هي تهميش لدور الوالدين وتصنيفهما كأرقام، بل هي عملية بسيطة توضح لنا ببساطة مقدار الخسارة.

أريد أن أكمل حياتي متكئاً على الثلثين، لا قدرة لي على خسارة ثلث آخر، أريد أمي وأريدكِ يا جمانة، فلا تقسوا عليّ!

****

اتصلت بعبدالله، صديق المراهقة الوحيد الذي استمرت علاقتي به منذ سفري لأول مرة وحتى اليوم، أزوره كل عام أو اثنين، أقضي في ملحق بيته الأيام التي أضطر لقضائها في الرياض.

عبدالله هو أحد وجوه الرياض التي لا تتغير، أعود كل عام لأجده كما تركته، لا شيء فيه يتغير ولا شيء فيه يتطور.

أخبرتكِ يوماً عن ثبات عبدالله وعدم تغيره في شيء، قلتِ: ربما لأنه لا يزال عازباً.

سألتكِ: وما دخل العزوبية في ذلك؟

- الزواج يغير الإنسان، الخطبة، الزواج والأبوة جميعها من مراحل الزواج التي تغير الرجل مهما كان نوعه، على أية حال أنا لا أحب صديقك هذا.

- وهل تعرفينه لتحبيه أو تكرهيه؟

- لا داعي لأن أعرفه لأكوّن انطباعاً عنه، يكفي أنه بلا زواج حتى الآن على الرغم من أنه يشارف على الأربعين.

- وإن كان؟

- هي دلالة أكيدة على سوء أخلاقه.

- وهل ترينني سيء الأخلاق؟!

- عزيز! أنا أتكلم عن صديقك.

- أنتِ تعتقدين أنه سيء الأخلاق لأنه لم يتزوج حتى الآن، أنا في عمره ولم أتزوج بعد، هل يعني هذا أنني منحل أخلاقياً؟

سكتِّ قليلاً وقلتِ بصوتٍ أقرب ما يكون إلى الهمس: ربما!

أذكر أنني قطعت الخط من دون أن أودعكِ، أنهيت الاتصال ما إن لفظتِ كلمتك المتشككة تلك، كدتِ أن تفجري هاتفي باتصالاتك ورسائلك الآسفة، لكنني لم أقبل اعتذارك إلا بعدما دفعتِ ثمن كلمتك تلك أياماً طويلة من الاعتذارات والبحث والانتظار.

الحق أنكِ أصبتِ فيما قلته، فلطالما كان عبدالله شاباً عابثاً، يجاهر بهوسه بالنساء وبعبثه في مدينة لا تحترم أطهر أنواع الحب وأشرفها ما بالكِ بزير نساء مجاهر بالعبث؟!

لكنني وعلى الرغم من ذلك لم أحب تأكيد نظريتك الخاصة بالعمر والأخلاق والزواج، لذا غضبت منكِ أو افتعلت الغضب!

أنتِ فتاة يزداد يقينها حيال الشكوك إن قابلت شكوكها بسخرية أو موافقة أو مداراة! لا تهدأ شكوككِ ولا تستكين إلا أن غضبت وثرت وعاقبتكِ على شكك بالهجر والجفاء.

يدهشني كثيراً أن تكون فتاة ذكية مثلكِ بهذه السذاجة العاطفية أحياناً!

يدهشني أنكِ مستمرة في تعاملك مع غضب الآخرين وكأنه دليل الحقيقة الذي لا يفتعل ولا يختلق ولا يكذّب!

نمت ليلتي الثانية في الرياض بملحق عبدالله، عاقبت أمي بغيابي عنها أيضاً، تركت البيت ليكويها هجري، وأنا مدرك تماماً أن هجر القريب أشد ضراوة من هجر البعيد أحياناً.

كنت أعرف أن أمي لن تحتمل غيابي عنها أثناء وجودي في الرياض، هي قادرة على أن تجاري هذا الغياب بينما تفصلنا آلاف الكيلومترات لكنها لا تقدر على غيابي ولا يفصلني عنها سوى بضعة أحياء سكنية.

قلت لها عندما اتصلت بي لتسألني متى سأعود: لا تنتظروني، سأنام عند صديقي.

- أي صديق هذا ولماذا تنام عنده؟

- صديق قديم.

- ولماذا لا تنام عندنا؟

قلت: ولماذا لا أنام عنده؟!

دسست رسالتي لأمي وأنا متيقن من حسن استقبالها للرسالة، كنت أعرف أن أمي ستفهم ما أردت أن أقوله لها بجملتي تلك، سكتت أمي قليلاً وقالت: فلتستعذ من الشيطان الرجيم، ولتعد إلى بيتك.

قلت: فلتستعيذي منه أنتِ يا غالية!

- الله يهديك!

تركت أمي لتصارع أفكارها تلك الليلة وقضيتِ ليلتي عند عبدالله، استيقظت في الصباح الباكر على ثلاث مكالماتٍ منها، قالت لي عندما أجبتها: تعال وافطر معنا، والدك يسأل عنك.

قلت: لا أستطيع المجيء الآن، نمت متأخراً، سأعرج عليكم في وقت لاحق.

قالت بصرامة: فلتأتِ الآن قبل أن يغضب والدك، سننتظرك خلال ساعة.

كان عبدالله في عمله، أبدلت ملابسي وأرسلت إليه برسالة أخبره فيها أنني غادرت البيت أثناء توجهي إلى بيت أهلي، وجدت أبي وأمي على طاولة الطعام وقد بدآ بتناول إفطارهما، سلمت عليهما وجلست من دون أن يسألني أبي أين كنت ومن أين جئت، وكأنه لا يأبه لذلك.

كانت أحاديثهما طبيعية وروتينية ومعتادة، عن السياسة وعن الأهل والجيران والحياة.

غادر أبي لإنهاء بعض أعماله المعلقة في إحدى الدوائر الحكومية، وبقيت وجهاً لوجه أمام أمي!

سألتني مجدداً عن المكان الذي قضيت فيه ليلة البارحة، قلت لها إنني كنت عند عبدالله صديق الطفولة، أخذت تسألني عن أحواله وظروفه وأهله وإن كان قد تزوج، بطبيعة الحال سألتني عن أسباب عدم زواجه حتى الآن!

استأذنت منها لأستحم، أوقفتني وهي تناولني هاتفها المحمول: سجل رقم أم البنت.

قلت لها مبتسماً: أي بنت؟

قالت بعصبية: كم بنتاً تعرف؟

- قصدك جمانة، اسمها جمانة.

- لا يهم اسمها!

- بل يهم اسمها، كي لا تخطبي إحدى أخواتها بالخطأ.

ناولتها الهاتف قائلاً: سجلت رقمها باسم أم خالد، متى ستتصلين عليها؟

قالت بنفاد صبر: تبيني أتصل الحين؟

قلت مازحاً: غايبة عن المدرسة هي عشان تتصلين الحين؟ فيه أحد يتصل يخطب الصبح؟

- خلاص أجل خلها تقعد لليل، لا تخاف ما هي طايرة، تحمد ربها اللي بتأخذك.

قلت لها وأنا أقبّل رأسها: تحمد ربها أنك حماتها.

- أيه أضحك عليّ بكلمتين.

صعدت إلى غرفتي وأنا أضحك، فتحت شباك الغرفة، فدلفت الشمس بحرارتها اللاذعة، على الرغم من أنني لم أحب يوماً حرارة الرياض إلا أنها بدت لي يومذاك في ألطف حالاتها، وكأنها تبارك حبنا على الرغم من تقليديتها وحرارتها!

****

أيقظتكِ عصراً، كنتِ قد سهرتِ معي على الهاتف في الليلة السابقة فتركتكِ تنامينَ حتى أوشكت أن تتصل أمي بوالدتكِ، أو ربما كانت قد اتصلت بها.

قلت لك بأن الحربَ بدأت، فسألتني مازحة إن كان بإمكانكِ التراجع، قلت لك: «جربي أن تتراجعي»! ضحكتِ وتركتني لتتابعي الأخبار والأحداث من ضفة بيتكم.

حاولت أن أراوغ الوقت، فأخذت أفتّش في مكتبتي القديمة، لتطالعني كتبي الجامعية التي تنام فوق رفوفها منذ أكثر من عشر سنوات بانتظار عودتي إليها لأخلصها من حالة النشاز التي كانت عالقة بها بلا ذنب ارتكبته في حقي.

طرقت أمي الباب فقمت لأفتح لها ليطالعني وجه عهود أختي الكبرى وقد فتحت ذراعيها لاحتضاني، احتضنتني عهود بكل شوق، شعرت وأنا أحتضنها بأمومتها تجاهي وإن لم يكن يفصلني عنها سوى بضع سنوات، قالت وهي تضمني بشدة: هلا بالغالي هلا بالحبيب، تو ما نورت الرياض يا حبيبي.

قبّلت رأسها ويدها، أخذت أنظر إليها وقد أدهشني كثيراً كم بدت آثار الزمان على وجهها مبكراً وكأنها تكبرني بعشر سنوات، قلت لها: النور نورك يا عهود، أيش هالمفاجأة الحلوة؟

- أنا اللي المفروض أقولك أيش هالمفاجأة الحلوة؟ ليه ما قلت إنك نازل الرياض كان تجمعنا كلنا من البارح وشفناك.

- ما فات إلا الخير، لاحقين إن شاء الله.

- لا والله مو لاحقين يا حبيبي، مها ومشاعل مسافرين مع أولادهم، تعرف الصيف كل الناس تسافر، والله لو يدرون أنك موجود إن ينهبلون.

قالت أمي التي كانت تقف خلفها: يلحقون على عرسه إن شاء الله.

ابتسمت عهود: ماشاء الله أيش هالأخبار الطيبة؟

قلت لها مازحاً: أجل تحسبوني جاي عشانكم؟

قالت وهي تضحك: توقعت والله إن عندك شيء، وأخيراً يا عبد العزيز!، ما بغيت!

- خلاص استسلمت.

سحبتني من يدي: تعال خلينا نجلس وأحكي لي مين وكيف وشلون ومتى؟

حكيت لعهود عنكِ باختصار، كنت أحدثها عنكِ بفرح لم أتوقعه ولم

أتخيله، كنت أرى في عينيها السعادة والتضامن والتأييد فيزيدني هذا فرحاً وحماساً.

قالت أمي بنبرة منزعجة: يعرفها من أربع سنين!

قالت عهود: وإذا يعرفها يمه؟ وجهاً تعرفه ولا وجهاً تجهله.

- وش هالبنت اللي تكلم واحد أربع سنين؟

- دامه يعرفها من أربع سنين فهو يعرف كيف أخلاقها وكيف تربيتها وإلا ما تجرأ وخطبها.

قالت أمي بعصبية: أنا ماني مرتاحة لهالزواج ولا أحب هالطريقة ونصحته، حنا اللي علينا سويناه، البنت وخطبناه له اليوم وهو بكيفه.

قالت عهود وهي تربت على ركبتي: موب صاير إلا كل الخير، أفرحي اليوم وأنبسطي ما صدقنا على الله بيستقر ويتزوج، لا يهون علينا الرجال.

ابتسمت لعهود ممتناً من دون أن أعلق على كلام أمي، كنت أدرك أن لا شيء قادراً على تغيير قناعاتها بخصوص علاقتنا، وأن أي تبرير أو محاولة إقناع لن تكون إلا محض فشل، لذا آثرت الصمت كي لا أدخل معها في جدال يزعجها ويزعجني.

قامت أمي من مجلسها لتوقظ هديل من نومها، قالت لي عهود وهي تهمس: الله يهديك، ليه قلت لهم أنك تعرفها؟

- أيش تبيني أقول لهم؟

- قول زوجة صديقي تعرفها ومدحتها لي، ألف أي شيء، زيك زي هالعالم.

- وليه أكذب في موضوع سخيف وهو راح ينكشف بعدين؟

- وليه ينكشف؟ نص العالم متزوجين بهالطريقة ولا أحد درى عنهم.

سألتها مبتسماً: مثل مين؟

ضحكت: مثلي بس لا تعلم أحد.

- والله!، ولا عمري تخيلت، ليتني داري وقتها كان ذبحت أبو محمد.

- أجل أذبح أبو سعود بالطريق معك.

- أي أبو سعود؟

- زوج مشاعل!

- أوف!

- نصيحة يا عبد العزيز، داري على شمعتك تقيد، الرسول صلى الله عليه وسلم قال «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان».

- معكِ حق.

- عموماً ما صار إلا الخير وإذا على أمي، يومين وترضى، لا تنكد على نفسك أنت.

- إن شاء الله.

رفعت فنجان القهوة ورشفت منه وقلت ممازحاً عهود: ياحليلك يا أم محمد، أجل أبو محمد جاء عن طريق زوج صديقتك؟

ضحكت: شفت ليه أقولك داري على شمعتك تقيد، عشان محد يذلك على السالفة زي ما أنت قاعد تذلني على سالفة مر عليها إحدى عشرة سنة.

قلت لها وأنا أضحك: أمزح معك يا بنت الحلال.

- أعرف يا حبيبي أعرف، تدري يا عبد العزيز أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال «لم يرَ للمتحابين مثل النكاح»؛ إذاً الرسول يوصي المتحابين بالنكاح ليه حنا نحرمه؟، اللي يحب أحد ينوي زواجه وإلا ما يكون حب يكون قلة أدب.

كان منطق عهود فطرياً، نقياً وشفافاً، لم تدنسه العادات ولم تشوهه التقاليد، كانت عهود وعلى الرغم من تدينها ومحافظتها تؤيد الحب وتدعو إلى الفطرة التي فطرنا الله عليها،شعرت بعد حديثي مع عهود أن في حياتي المتوقفة والمعلقة في الرياض أشياء وأشخاصاً في منتهى النقاء والبياض والجمال، شعرت بحديثها ينساب في جوفي كسلسبيل عذب، لذيذ وشاف.

حينئذ تمنيت لو كنتِ تجلسين معي ومعها، كنت ستحبين حديثها كثيراً، منطقها الذي يتناسب ويتلاقى كثيراً مع منطقكِ سيجعلكِ تحبينها مثلما سيجعلها تحبكِ.

فكرت أن ألحق بأمي لأسألها عما دار بينها وبين أُمكِ، وفكرت أن أنتظر اتصالكِ لتخبريني عما دار من جهتكِ، احترت فيما سأفعل، وقررت في النهاية أن أنتظر.

****

مر عشرون يوماً على اتصال والدتي بوالدتكِ ولم يستجد شيء منذ ذلك الوقت، كان الوقت بطيئاً معي، بارداً وثقيلاً، كان الانتظار صعباً ومقلقاً لدرجة لا تحتمل.

سألتكِ أكثر من مرة عن سبب تأخر رد والدتكِ، كنت أرى في ارتباككِ وتلعثمكِ الأسباب التي حاولتِ إخفاءها ومقاومتها.

كان من الواضح أن والدكِ أو عائلتكِ بصورة أعم ترفض ارتباطنا مثلما ترفض أمي زواجي منكِ، ومثلما بدأت أفقد مع الوقت مباركة والدي لهذا الزواج.

سألني والدي قبل أيام عن أسباب عدم اتصال أمك بأمي حتى الآن،

قلت: مشاريع الخطبة والزواج تأخذ أشهراً طويلة وأنت خير من يعرف هذا.

قال: صحيح، لكن الفتاة تعرفك ولا بد من أنها مهدت لأهلها الموضوع بشكل من الأشكال، فلماذا تأخروا في الرد علينا؟

- كل تأخيرة فيها خيرة.

صمت والدي قليلاً وقال: صحيح، على أي حال ولأصدقك القول، لا أشعر أنني مرتاح لهذا الزواج.

- لماذا؟ ما الذي تغير؟

- لم يتغير شيء، لكنني وبعدما سألت عن والد الفتاة وجدته رجلاً معروفاً وذا مكانة وقدر محترم، ولا أريد أن يحدث منك أو بينك وبين الفتاة أمر قد يحرجنا معه.

- أنت تخشى أن أحرجكم إذاً!

قال بصرامة: نعم، أخشى هذا، البنت بنت «حمولة» وعائلة محترمة، لا أريدك أن تقحمنا مع أهلها بأي إحراج، نحن عائلة معروفة ولنا مكانتنا أيضاً ولا نريدك أن تجلب لنا الفضائح أياً كان نوعها.

كنت أعرف أن والدي كان يرمي لحكاية «ريما» التي يبدو أنه لن ينساها أبداً، لذا أطرقت صامتاً وقلت بهدوء: أطمئن، لن تسمع عني إلا خيراً.

قال بصوتٍ بدأ يتسلل إليه الندم: بإذن الله.

أخذ والدي يقلب صفحات الجريدة وأنا صامت بجواره كطفل صغير، كنت أشعر بأن أنفاسي تصدر صوتاً من هيبة وجود أبي ومن هيبة حضوره، ارتفع صوت هاتفه، سمعته يتمتم وهو يحلق بالشاشة: من هذا؟!

قال وهو يضع السماعة على أذنه: مرحباً.

- وعليكم السلام والرحمة، حياك الله.

رأيته يلتفت إلي ففهمت من نظراته أن والدك المتصل، استرسل: يا هلا والله يا أبو خالد، حياك الله هذي الساعة المباركة اللي سمعنا فيها صوتك وتعرفنا فيها عليك.

كنت أستمع إلى والدي وهو يتبادل مع والدكِ المجاملات المعتادة وهو يعدد عليه معارفه من عائلتكِ وأقاربكِ، كان من الواضح أن والدي يعرف بعض أفراد عائلتكِ وأن والدكِ يعرف في المقابل بعض أفراد عائلتنا، أخذ والدي يسمي أزواج أخواتي وأخوالي لأبيكِ وحكى له عن عمله وعن وليد وقليلاً عني!

قال والدي لوالدك في نهاية المكالمة: على خير إن شاء الله، الله يجمعنا على الخير والفرح، على موعدنا بإذن الله.

قال والدي بعدما أنهى المكالمة: هذا والد جمانة.

سألته: أحدد موعداً يقابلنا فيه؟

- غداً، بعد صلاة العشاء.

ابتسمت على الرغم مني، غداً يا جمان، سأدخل بيتكِ من بوابته الرئيسة وعلى رؤوس الأشهاد، من كان ليتخيل هذا؟!

قال والدي: في الغد سنزورهم أنا وأنت لنتعارف، بعدما يوافوننا بموافقتهم بإذن الله، نزورهم مع أعمامك.

- إن شاء الله.

- قم واحلق وابتاع ثياباً جديدة.

قلت: أبشر!

ركبت سيارتي بروح تقفز، أدرت المحرك واتصلت بكِ، قلت ما إن أجبتني: وأخيراً!

كان من الواضح أنك لا تعرفين عن مكالمة أبيك شيئاً، سألتني: وأخيراً ماذا؟!

- أتصل والدك بوالدي قبل قليل!

شهقتِ: حقاً!

- قرر والدكِ بعد ثلاثة أسابيع من الانتظار أن يقابلنا! لو أنني تقدمت للأميرة ديانا بعد طلاقها من تشارلز لما استغرق الأمر ثلاثة أسابيع لترد عليّ فيها بالموافقة.

- متى سيقابلكم؟

- غداً.

- أتمازحني؟

- بإمكانكِ أن تسألي والدكِ إن لم تصدقيني!

- غريب هذا! كان رافضاً لقاءك.

- يبدو أن أمكِ مارست سلطتها وتدخلت.

- طلبت منها إقناعه لكنني لا أعرف إن كانت قد فعلت.

- لا بأس، والدي أيضاً بدأت تساوره المخاوف يا جمان، لذا علينا أن نحاول استعجال الأمر قبل أن يفسده علينا أحد.

- إلى أين أنت ذاهب الآن؟

- سأبتاع ثوباً يليق بمقام المناسبة، ما رأيك، شماغاً أم غترة؟

ضحكتِ: فلتأتِ حافياً إن أردت، المهم أن تأتي!

لا أعرف إن كنت قد قلتها مازحة أم أنكِ كنتِ مرتابة حقاً من تراجعي، يومذاك ظننتكِ تمزحين لكنني أظن اليوم أنكِ كنتِ تعنينها بشكل ما.

أغلقت منكِ حينما وصلت إلى السوق، نزلته منتشياً، كنت قاب قوسين منكِ يا جمانة، بل كنت أدنى!

*****

نستيقظ في أيام استثنائية ونحن ندرك جيداً أنها أيام لا تشبه بقية الأيام، أيام قد تغير حياتنا وإلى الأبد.

استيقظت ليلة الأمس عشرات المرات قلقاً من هذا اليوم وتوقاً إليه، اليوم ليس كأي يوم مر في حياتي يا جمانة، اليوم سأقابل الرجل الذي لولاه لما جئتِ أنتِ إلى هذه الحياة.

لطالما تخيلت كيف سيكون لقائي الأول مع والدك، كيف سأقابل الرجل الذي تحملين جيناته قبل أن تحملي اسمه.

ماذا عساي أن أقول لأبيكِ اليوم يا جمان؟! أأشكره أولاً لأنه ساهم في إنجابكِ؟! أم أشكره لأنه اختار لكِ اسماً رقيقاً يختصر النعومة والجمال والدلال في «جمان»!

أم أشكره لأنه كان من أوائل الآباء السعوديين الذين قبلوا ابتعاث بناتهم في بداية ثورة الابتعاث بالألفية الثالثة، أم أشكره على أنه من اختار كندا لكِ ومن اختار أن نلتقي هناك من دون قصد منه ولا تخطيط؟

لولا والدكِ يا جمانة لما التقينا يوماً، لولاه لما أحببتكِ!، لذا أحب والدكِ كثيراً، أحبه كثيراً وأغار عليكِ منه كثيراً لأنه الرجل الوحيد الذي ينافسني في قلبكِ.

أتذكرين إجازة عيد الميلاد الذي قضيته في الرياض وحدكِ من دوني؟! كنت ملحاحاً في طلبي لصوركِ، كنت أريد أن أعيش معكِ الشتاء هناك،

أن أعيش معكِ أيامكِ ورحلاتكِ وأوقاتكِ كلها، كنت أطلب منكِ أن ترسلي إلي عن طريق الانترنت صوراً تختصر كل ما تقومين به وما تفعلينه، كنت أرسل إلى هاتفكِ طوال الوقت«صوري، صوري»! وكنت تبعثين إلي بالصور حالما تتمكنين من الجلوس على جهازِ حاسبك.

أرسلت لي في أحد أيامكِ هناك صوراً لك قضيتها مع عائلتكِ في المزرعة، كان والدكِ يجلس مرتدياً «بشتاً» شتوياً واسعاً، وكنتِ تجلسين مختبئة في حضنه داخل البشت ولا يظهر منكِ سوى رأسكِ المسند إلى رأسه.

كنتِ قد أرسلتِ لي رسالة على هاتفي كتبتِ لي فيها «أرسلت إليك بصورة على بريدك».

فتحت جهازي بحماس وأرسلت إليكِ بينما كان تحميل الصورة جارياً «أنتظر تحميلها»!

رفعت رأسي لتطالعني صورتكِ في حضن والدك، كنتِ جميلة للغاية، وكان والدكِ وسيماً على الرغم من أعوامه الخمسين، كنت تتعلقين برقبته بحب وفرح وطمأنينة جلية، كانت الحميمية التي تجمعكما في الصورة في غاية الإزعاج بالنسبة إليّ.

أغلقت شاشة الحاسب بكل ما أوتيت من غضب أو ربما «غيرة»! اتصلت بكِ عدة مرات ولم تجيبي عليّ، أرسلت إليك «ردي علي الآن»!، اتصلت بعدها فأجبتني بصوتٍ خفيضٍ: سأتصل عليك لاحقاً.

قلت بغضب: أريد أن أتكلم معكِ الآن.

قلتِ وأصوات كثيرة تتعالى حولك: أنا مشغولة الآن.

صرخت: لا يهمني من حولك، فلتبتعدي عنهم أو كلميني بوجودهم، لا يهمني أحد.

صمت وسمعت صوت خطواتكِ في الهاتف وأنتِ تبتعدين والأصوات التي كانت حولكِ تبعد وتخفت، قلتِ بدهشة: ها قد ابتعدت، ما الأمر يا عزيز، لماذا تصرخ؟

– هل يُفترض أن أظل طوال اليوم على الهاتف لتجيبي عليّ؟

– حبيبي، أنت تعرف أنني في اجتماع عائلي، وأن حولي الكثير من الناس وتدرك أنني لا أستطيع الرد عليك بوجودهم، فلِمَ الغضب؟!

– أنا لا يهمني قطيع الخراف الذين تجلسين بينهم، يجب عليكِ أن تجيبي على اتصالاتي حينما أتصل حتى لو كنت مع أبيكِ وإخوتك.

– منذ متى؟!

صحت فيكِ: من الآن.

قلتِ بخوف: ما أمرك، يا عزيز؟ أتلبستك الجنية من جديد؟

– حتى وإن تلبستني قبيلة كاملة من الجن، لا شأن لكِ بالأمر.

صحتِ: ما أمرك لماذا تصرخ بلا سبب؟

– لأنني أكره قلة الأدب.

– أية قلة أدب؟

– صورتكِ مع أبيك قمة في الوضاعة، بل قمة الشذوذ.

– أي وضاعة وأي شذوذ؟! هذا أبي، أمريض أنت؟

– بل أنتما المريضان.

–لا أسمح لك بأن تتحدث عني وعن والدي بهذه الطريقة، إن كانت مقاييس الأبوة والبنوة والحب عندكم تختلف عن مقاييسنا فهي مشكلتك وليست بمشكلتي.

- وتحاججينني أيضاً؟! أتعلمين، لا أعرف حقيقة لماذا أناقش فتاة مثلك، أنتِ منحرفة في كل شيء.

قطعت الاتصال وأنتِ تتكلمين، أدرت جهاز الركض وأخذت أجري عليه بأقصى سرعتي كفهد غاضب، ركضت وركضت وركضت وركضت حتى كادت عضلات ساقيّ تنهار، سمعت صوت نغمة هاتفي المخصصة لكِ ترتفع، نزلت من على الجهاز وذهبت لأستحم متجاهلاً الإجابة عليكِ، جلست تحت المياه المنهمرة أفكر فيما قلته وفيما حصل، أدركت في تلك اللحظة أنني قلت ما لايجوز لي قوله، وأنني بالغت كثيراً في ردة فعلي، أزعجتني كثيراً رؤيتكِ في حضن رجل آخر حتى وإن كان والدكِ، أعرف بأن مشاعري لم تكن سوية، وأنّ ما قلته لم يكن عادياً لكنني أفقد السيطرة على مشاعري وأفكاري ولساني حينما أغضب وأنتِ خير من يدرك ذلك.

حينما خرجت بعد الاستحمام، وجدت مكالمة منكِ ورسالة كتبتِ لي فيها: «أيستحق الأمر ما قلته»؟

لم أكن أعرف بماذا أجيب عليك خصوصاً بعدما أخطأت في حق والدك المقدس القدر لديكِ، كتبت مقدمات كثيرة وحذفتها، احترت كثيراً فيما سأبرر به ما قلته، لم أكن قادراً على أن أعتذر لك اعتذاراً مباشراً لأنني ببساطة لا أمارس الاعتذار ولا أجيد مهارته.

كتبت لك بعد وقت طويل من التفكير «غرت»!

أجبتني: «لكنه أبي»!

كتبت: «لكنني غرت».

أرسلتِ «الله يهديك».

كان من الواضح من رسالتكِ الأخيرة أنك سامحتني وإن تبقى لديكِ

شيئ من العتب، حاولت أن أفسر لكِ أسباب غضبي لاحقاً، قلت لكِ بأنني فقدت السيطرة على أعصابي وبأنني لم أقصد حتماً ما قلته، وقد كنت متسامحة ومتفهمة وسريعة المغفرة معي كعادتك.

سامحتني يومذاك على ما قلته في حق والدك، لكنني لم أسامح نفسي على ما قلته، شيئ ما يهزني فيما يتعلق بوالدك، أشعر دوماً بأنني أريد أن أصبح يوماً أباً مثله، أباً يحب أبناءه كما يحبكم والدكِ ويحبني أبنائي كما تحبون أنتِ وأخوتك والدكِ.

كان يوم لقائي بأبيكِ سريعاً للغاية، مر النهار بلمح البصر، تواصلنا أنا وأنتِ عن طريق الرسائل طوال النهار، كنت أخبركِ بكل ما أقوم به، وحينما ارتديت ملابسي فتحت لك كاميرا الحاسب لتري «أناقتي» في يوم طلبي إياكِ.

بخّرتني والدتي بالعود حينما نزلت إليهم، وأخبرني والدي أنه اتصل بأبيكِ قبل قليل وأخذ منه عنوان منزلكم الذي كنت أعرف طريقه جيداً.

أخذ والدي يسرد عليّ قائمة الممنوعات من الأحاديث والحكايات، كان خائفاً من أن يزل لساني بأي شيءٍ قد يؤثر على صورتي أمام أهلك، كان حريصاً على أن أبدو بصورة لائقة، ولا أعرف حقيقة إن كان قد أراد ذلك من أجلي أو من أجل عائلتنا بأكملها، ففي بلادنا لا يتزوج الأفراد بل تتزوج العائلات وتتناسل.

كان والدي قد أنهى قائمة المحظورات «تقريباً» عند وصولنا إلى منزلكم، سألني وهو يحل حزام الأمان، ومن دون أن ينظر إلي: أهذا هو منزلهم؟

قلت: نعم.

قال وهو يترجل: لم أزودك بعنوان منزلهم على فكرة!

كنت قد نسيت تماماً أن أسأل والدي عن عنوان بيتكم، كنت منصتاً لما

يقوله ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أركن السيارة أمام البيت، كان موقفي أمام والدي محرجاً للغاية لكن تسارع الأحداث وخوفي من مقابلة والدك هونت عليّ شيئاً من الحرج، كتبت لكِ رسالة سريعة «أنا على مشارفك»، أرسلتها ولحقت بوالدي.

كانت بوابة البيت مفتوحة، رأيت والدك وشقيقيك خالد وسعود يجلسان في الخيمة المقابلة للبوابة، قام والدكِ وأخواك من مجلسهما ما إن دلفنا البيت، اقترب والدكِ مرحباً بنا: يا هلا والله ومسهلا، حياكم الله تفضلوا.

سلم والدكِ عليَّ وعلى أبي، قبّلت رأسه وانحنيتُ على يده لأقبّلها فسحبها من يدي متواضعاً، قال والدكِ بلطف مازحاً وهو يربت على كتف أبي: يا هلا والله، زارتنا البركة، أيكم العريس؟

ضحكنا جميعاً فقال والدي: لا تسمعك أم عبد العزيز تزعل علينا.

كسر والدكِ بلطفه توتر اللقاء ورسميته، كان ذكياً منذ اللحظة الأولى واستطاع بذكائه وحنكته أن يجعل لقاءنا مريحاً وعفوياً منذ البداية.

دار حوار طويل في بداية الجلسة بين والدي ووالدكِ عن معارفهما، فقد كان لديهما معارف مشتركون، أخذا يتبادلان أخبارهم متحدثين عن الحياة وعن المجتمع وعن الزواج وعن عموميات كثيرة.

كنت أتأمل والدكِ وهو يتحدث بعفوية راقية وبلطف جم وثقافة يعتد بها وقلبي يخفق من وطأة حضوره، هاهو والدكِ أمامي يا جمان، جئت إليه بقدمي ساعياً من أجلك، كنت فعلياً على مشارفك.

أخذت أتأمل إخوتكِ الشباب الذين سبق لي وأن تعرفت عليهم بطرق عديدة ومن دون أن يعرفوني، كم أصبحت أعرف إخوتكِ يا جمان، أعرف ما

يحبون وما يكرهون، أعرف ما تحبينه فيهم وما تكرهين، مثلما أعرف فيكِ أكثر مما يعرفون بكثير يا جمانة.

التفت إلي والدكِ بعد قرابة النصف ساعة، وضع يده على ركبتي وقال: حيا الله عبد العزيز، بشّر، كيف الدراسة؟

كان والدك يحدثني بلهجة الأصدقاء، ابتسمت قائلاً: أبشرك كل الأمور طيبة.

أخذ يسألني عن تفاصيل إقامتي، منذ متى أقيم في كندا، ماذا أدرس، كم تبقى على حصولي على الماجستير، أين أعيش، مع من أعيش وكيف أعيش، سألني عن هواياتي، عن أحلامي، عن خططي، وعن تصوري الخاص فيما يتعلق بمشروع الزواج! عما أنتظره من المرأة وعمّا أظن بأنني قادر على توفيره لها.

كان يستمع إلي بإنصاتٍ شديدٍ، يهز رأسه متفهماً ويرفع حاجبيه معجباً أحياناً، كان والدكِ يتمتع بثقافة الإنصات ولغة الجسد بطريقة لا تعقل من رجل في عمره وفي مجتمع لا يؤمن بثقافة كتلك.

أخبرني أن أخاك خالد بصدد إنهاء أوراقه وإكمال دراسته للماجستير في بريطانيا، تحدثت مع خالد عن مشروع الابتعاث، عن البرنامج الذي سيلتحق به، عن التخصصات المطروحة وعن البلدان التي يبتعث إليها وأفضل الخيارات التي قد يقدم عليها الطالب حينما يفكر بإكمال دراسته خارج البلاد.

كان والدك يحاول أن يشركني وإخوتكِ في الحوار، لذا وجه محور الحوار لخالد، كنت أستمع لأخيكِ بكل جوارحي، فهمت وهو يتحدث لماذا تختلفين دائماً معه.

أنتِ لا تدركين كم يشبهكِ خالد، إنه يشبهكِ في أشياء كثيرة، هو مثلكِ،

هادئ، متزن، خجول ويملك نظرة جدية تجاه العلم والمستقبل والحياة، بينما كان سعود، لطيفاً وبسيطاً وخفيف المعشر، شعرت وكأنه أخي الصغير الذي أعرفه منذ أن خلق.

لم يكن في الحوار الدائر أي شيء يخصكِ، طرح أبوك مواضيع كثيرة للنقاش لم يتضمنها أي شيء يتعلق بك، كنت أعرف أنه يريد أن يسمع آرائي تجاه بعض القضايا الحياتية، لذا أبديت رأيي في كل موضوع تطرق إليه، في نهاية الجلسة أستأذنه والدي في زيارة أمي وأخواتي لكم، رحب والدكِ بزيارتهم خلال الأسبوع، تاركاً مهمة تنسيق الزيارة للـ «سيدات» حسب تعبيره «حرفياً»!

في طريقنا للخروج، صافحت إخوتكِ مودعاً وحينما هممت بتوديع أبيكِ صافحني بقوة ممسكاً بيساره ذراعي قائلاً «إن شاء الله نشوفك قريباً يا عبد العزيز».

قلت: سأكون بانتظار اتصالك يا عم، بإذن الله أقابلك في أقرب وقت ممكن.

ابتسم ابتسامة بدت لي ذات مغزى: سأتصل بك قريباً بإذن الله.

أرسلت إليكِ ما إن ركبت سيارتي «يسلم لي أبوك وتسلم لي بنته»، لتعرفي أنني قد غادرت منزلكم، كان أبي مرتاحاً كثيراً في طريق عودتنا إلى البيت بعكس ماكان عليه حينما توجهنا إلى منزلكم، أعجب والدي بوالدكِ وإخوتكِ كثيراً، وأخذ يحذرني من أن أقدم على أي تصرف قد يحرجه معهم.

مر لقاؤنا بوالدكِ بسرعة شديدة، بل مر اليوم بأكمله كحلم سريع، وجدت حينما عدت إلى البيت شقيقتي عهود وزوجها وأبناءها في انتظاري،

كانت أمي قد أخبرت عهود عن ذهابنا لمقابلة والدك، فجاءت مستبشرة وتواقة لأخبار تفرح قلبها.

أخذ والدي يحكي لهم عمّا دار في اللقاء بينما كنت أحاول أن أوطد أواصر الحب بيني وبين أبنائها، أستأذن والدي زوج عهود لينهي عملاً بسيطاً خارج المنزل، وبقيت أسير استجوابهما، قال لي يوسف زوج عهود مازحاً: تهورت يا عبد العزيز، خانك ذكاؤك أخيراً.

قلت: كيف؟

- سأنصحك نصيحة من أخ لأخيه، أنجو بجلدك ولا تتزوج، استمر في حياتك حراً طليقاً.

- يبدو أن عهود قد كرّهتك في الزواج.

- هل ترغب برؤية الشيب الذي غزا رأسي بعدما تزوجتها؟

قالت عهود بلامبالاة: دعك منه يا عبد العزيز، هذه سخافات الرجال المعتادة، يعتقدون أنهم أكثر رجولة حينما يقولون هذا الكلام، المهم، أخبرني، هل تشعر بالراحة الآن؟

ابتسمت: الحمدلله.

- ومتى سنزور العروس؟

- رتبي هذا الأمر مع أمي.

قالت بحماس: أنا متشوقة كثيراً لرؤية من سلبت قلبك، أي فتاة هذه التي تمكنت منك؟!

قلت مازحاً: أتمنى أن تعجبكِ وأن تحبيها، لأنني لن أتزوجها إن لم تعجبك.

قال يوسف: إن شاء الله ستتزوج وسنفرح بأطفالك، مشاركة شخص ما الحياة هو أجمل ما فيها .

ضربت عهود يده مازحة: أخيراً اعترفت!

اتصلتِ بي بينما كان يوسف يمازح عهود ويذكرها ببعض المواقف الطريفة التي مرت عليهما في شهر عسلهما، استأذنت منهما وصعدت إلى غرفتي، سألتني ما إن أجبت: أخبرني عن تفاصيل التفاصيل!

أخبرتكِ أنني نسيت أن آخذ عنوان منزلكم من أبي، وأنني لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقف أمام باب البيت، حدثتكِ كم ارتاح أبي لأبيكِ وإخوتك وكم تشجع لزواجنا، اختصرت لكِ ما قيل في اللقاء وطلبت منكِ أن تستعدي للقاء أمي وأخواتي خلال الأسبوع.

كنتِ في غاية الحماسة للقاء أمي، حتى جاء يوم اللقاء، أنتابكِ يومذاك خوف العالم كله وانتابني ترقب العالم أجمع.

أوصلت أمي وعهود، هديل ولينا إلى منزلكم، كان الطريق صاخباً بأسئلة لينا وهديل: «من أين تعرفها، كيف، ما اسمها، ما شكلها»....

سألتني لينا: أجميلة هي؟

- سترينها بعد قليل.

- أيعني هذا أنها جميلة؟

- قلت لك، سترينها بعد قليل.

- ولماذا لا تخبرني أنت الآن؟

- ولماذا لا تصبرين خمس دقائق وترين بنفسك؟

-أريدك أن أعرف رأيك أنت!

- أرجوكِ يا رب ساعدني!، حمداً لله على أنني لا أعيش معكن، نعم هي جميلة.

سألت هديل: جميلة مثل من يا عبد العزيز؟

قلت بنفاذ صبر: جميلة مثل نفسها.

قالت: لم تفهمني! أقصد جميلة مثل من، مثلاً: بينوبلي كروز، تشارليز ثيرون، جوليا روبرتس.. مثل من؟!

التفت إلي أمي في المقعد المجاور: أسألكِ بالله، كيف تعيشين معهن؟

قالت عهود بسخرية: ماذا ستفعل المسكينة، مضطرة!

قالت أمي بلهجة آمرة: فلتصمتي أنتِ وإياها، لا أريد أن أسمع نفساً واحداً في بيت الناس.

قالت لينا: أتريدننا أن نموت؟

صاحت هديل: لماذا تأخذوننا معكم إن كنتم تعتبروننا أطفالاً؟

كنا قد وصلنا إلى منزلكم، قلت لأمي إنني سأعرج على صديق قديم يسكن قريباً من بيتكم، طلبت منها أن ترسل إلي برسالة حينما تريدني أن أحضر لإقلالهم.

كانت هديل آخر من نزل من السيارة، قالت لي وهي تنزل: عبد العزيز وش شعورك؟

قلت: شعوري متفشل ومنحرج أنكم خواتي والله.

قالت وهي تضحك: خلك قريب من تليفونك، برسلك المستجدات أول بأول.

أرسلت إليكِ وأنا واقف بسيارتي أمام البيت «يفصلني عنكِ بضعة

جدران، أرى الآن ضوء غرفتكِ أمامي، أمي بانتظارك، فلتنزلي إليها»، ومن ثم أرسلت برسالة أخرى «بالمناسبة، أخواتي!، امسحيهم بوجهي»!

لم تجيبي عليّ مثلما توقعت، توجهت إلى مقهى قريب من بيتكم وجلست وحدي منتظراً، لا أعرف لماذا رغبت بالجلوس وحيداً، ربما لم أرغب بأن يشاركني الانتظار أحد، كنت أريد أن أعيش تلك اللحظات وحيداً من دون أن يخفف من وطأته عليّ أي أحد.

أرسلت هديل إلي برسالة: «حلوة بس مستحية»!

حلوة! أنتِ لستِ بحلوة فقط، أنتِ حلوة ومالحة في الوقتِ ذاته، تجتمع فيكِ كل النكهات، وتتمثل فيكِ كل الملامح وكل الألوان وكل المواسم.

صيفية أنتِ وشتوية، ربيعية وخريفية، فيكِ ألوان الربيع ونضجه، وقار الخريف وصمته، بهجة الصيف وعصْف الشتاء، فيكِ من كل لون طيف، ومن كل موسم وجه ومن كل مدينة ملامح، ومع ذلك تصفكِ هديل بـ «حلوة»!.

أرسلت لي أمي باقتضاب معتاد: «تعال»!

تركت قهوتي التي لم أشربها وتوجهت إلى بيتكم، اتصلت بأمي لأخبرها أنني في انتظارها أمام البيت لتتركني قرابة الربع ساعة أمام الباب... كنت أتأمل سائقكِ الذي كان يجلس على كرسي خارجي بحسد شديد، لم أعرف لأي درجة كنت محظوظاً بمشاركتكِ السيارة إلا بعدما جئنا إلى الرياض وأصبح وجودنا معاً مستحيلاً ومنافياً للقانون.

ركبت أمي وأخواتي السيارة وهن يتناقشن على الرغم من أن المسافة التي تفصل بين السيارة وباب البيت لا تتجاوز الخمسة أمتار!، قلت لأمي مازحاً ما إن ركبت: حش، حش!، بس حش!

قالت عهود: ماشاء الله وش هالعروس يا عبد العزيز!

قالت لينا: حلوة بس قصيرة عليك.

قالت عهود: أخوك طويل، أي بنت بتكون قصيرة عليه.

مسكت يد أمي وقلت: وأنتِ يا الغالية، وش رأيك؟

قالت بهدوء: حلوة ومؤدبة!، ماشاء الله خواتها مؤدبات بعد.

- أعجبتك يعني؟

- أهم شيء معجبتك أنت!

قالت عهود مازحة: معجبتها ياحبيبي بس ماتبي تعترف شكلها غيرانة عليك.

سألت أمي: أفا يا أم عبد العزيز، ما أعجبتك؟!

- إلا والله أعجبتني، حلوة ومؤدبة وتستحي وبنت ناس، الله يتمم لكم على خير.

تنهدت من أعماق روحي، كانت مباركة أمي تعني لي وقتذاك كل الأشياء!، كنت أسمع أخواتي يتناقشن خلفي، يطرحن الأسئلة عليّ، ويسخرن مني من دون أن أميز فعلاً ما يقلنه، كنت مرتاحاً وسعيداً ومطمئناً لدرجة أنني لم أعد أشعر إلا بنفسي وهي تتنفس الطمأنينة.

أوصلت أهلي إلى البيت، أخبرت أمي أنني سأكمل سهرتي لدى صديقي، وقضيت طوال الليلة معكِ على الهاتف وأنا أجوب طرقات الرياض، كمتسكع بلا بيت أو مأوى.

قلت لكِ إنكِ أعجبتِ أمي لأنكِ مؤدبة! سألتكِ كيف حكمت عليكِ بالأدب خلال ساعة ونصف؟!

قلتِ: ربما لأنني لم أنبس بحرف طوال الوقت!

ضحكت كثيراً لأنني لم أتوقع غير ذلك، أنتِ هكذا، وأظن بأنكِ ستظلين

كذلك، مؤمن أنا بأن خجلك فطري وليس بمكتسب، خلقتِ من خجل محض وصاف، على الرغم من ثقتكِ واعتدادكِ بنفسكِ إلا أن الخجل طبعك، صفتك وسمتك التي لن تتغير.

لم يكن قد تبقى على أن نكون مخطوبين «رسمياً» إلا أن أراكِ وبشكل «رسمي» أيضاً!، قلت لك إن أمي ستتصل بأمك لتحدد موعداً أزوركم فيه لرؤيتك، سألتني لماذا أريد أن أراك وقد رأيتك آلاف المرات خلال أربع سنوات؟، قلت لك مازحاً إنني قد أجد فيك ما يعيبكِ إن رأيتكِ رؤية شرعية، لذا يجب علينا أن نرى بعضنا بشكل شرعي قبل أن نتورط في الزواج.

كنتِ متعجبة كثيراً من إصراري على أن نرى بعضنا بتلك الطريقة، ولا أدري لماذا لم أخبركِ أنني قد اشتقت لرؤيتكِ بعد أسابيع طويلة من الحرمان، لم أخبرك أنني أفتقد دفء ملامحكِ، ابتسامتكِ الخجولة، ورؤيتكِ وأنتِ تتنفسين!، كنت أريد أن أراكِ في منزلكم بحضرة أبيكِ، أراكِ تدخلين أمامي متوجهة إلي وهو بجواري مباركاً حضوركِ إلي وسعيي إليكِ، لم أكن لأفوت على نفسي لذة كهذه يا جمان، لم أكن لأحرم نفسي منها قطّ.

اتصلت أمي بأمك في اليوم التالي واتفقتا على أن أحضر لرؤيتك، اتصلت بأبيكِ واستأذنته بالحضور وطلب مني أن أجيء مبكراً لنتعرف أنا وهو على بعضنا أكثر فأكثر.

حضرت مبكراً مثلما طلب، لم يكن هناك أحد غيره حينما استقبلني، جلس معي في صدر المجلس وأخذ يحدثني عنكِ، قال لي بأن الرجل لا يشعر بأنه أصبح أباً فعلاً إلا بعدما ينجب بنتاً، قال: «فرحت كثيراً حينما رزقني الله بخالد وبعدها بسعود، لكن فرحتي بجمانة لم تعادلها في الدنيا فرحة، لطالما كانت جمانة فرحتي الكبرى يا عبد العزيز، لذا سأوصيك عليها طوال

الحياة، في يوم الزواج لن أسلم لك ابنتي يا عبد العزيز، في يوم الزواج سأسلم لك الأمانة، وسأشهد الله وخلقه على تسليمك إياها، وسأسألك عن أمانتي لديك يوم القيامة، إن أسأت إليها أو ظلمتها يوماً لن يكون حسابك عسيراً معي فحسب، سيكون الله الحكم بيننا ولا أعدل من الله حكماً وحاكماً».

كنت أستمع إلى أبيكِ بجوارحي كلها، وصدى كلماته تدوّي في نفسي، استرسل: إن لم تكن تقدر على حمل الأمانة والحفاظ عليها، لا تقدم على حملها يا عبد العزيز.

قلت: سأحافظ عليها يا عم، أعاهدك بذلك وأشهد الله على عهدي.

قال: الله خير شاهد.

سمعت صوت خطواتكِ وأنتِ تقتربين، لا أحد يستطيع أن يميز قرع كعب حذائكِ مثلما أفعل أنا! لا قدرة لأحد على أن يدرك أنك من يقترب سواي، أنا وحدي من يميز صوت اقترابك من بين آلاف البشر، وها أنا أستمع إليك تقتربين، خطوة بخطوة، رجفة برجفة، تدوسين بها على قلبي فينقبض من وجع الحب والترقب والفرح.

كان والدكِ يتحدث إلي وكنت أنظر إليه مباشرة وأنا أنصت لقرع حذائك، حينما سمعت صوتكِ: مساء الخير!

التفت إليك، وقعت عيناي بعينيكِ فابتسمتُ وابتسمتِ حباً، جلست على أبعد أريكة مني، الأريكة التي بجوار الباب من دون أن يدعوكِ والدك للجلوس، قال والدكِ وهو يشير بيده: جمانة، اقتربي يا بابا!

قمت ومشيتِ تجاهي بخطواتٍ خجولةٍ، جلستِ على يميني، قال والدك: عبد العزيز هذه جمانة، أحب بناتي وأقربهن إلي.

التفت إليكِ، ابتسمتِ لي، شعرت بالدمع يبلل عيني على الرغم مني، قلت لك: كيف حالك يا جمانة؟

ترقرقت عيناكِ بالدمع ولم تجيبي، كنا ننظر إلى بعضنا مأخوذين بسعادة الحكاية، كنتِ في أجمل حالاتكِ، بل كنتِ أجمل من على هذه الأرض، أجملهن على الإطلاق!

قال والدك بصوت هادئ وقد لمح ما في أعيننا: القهوة يا جمانة.

كنت أدرك أنكِ لا تعرفين كيف تحملين القهوة ولا تعرفين كيف تسكبينها، خشيت أن تنسكب عليك، فقمت لأصبّها، قام والدكِ من مكانه وأمسك بها حالفاً أن يقوم بذلك، حلفت أن لا يسكبها أحد غيري، جلس والدكِ في مكانه وناولته فنجان قهوة، قال لي مازحاً وأنا أجلس: كان يُفترض أن تصب لعروسك أولاً.

قلت مرتكباً: لم أكن أعرف أنها تشرب القهوة!

أبعد والدكِ فنجان قهوته من على شفتيه ونظر إلي مندهشاً وقال: فعلاً، هي لا تشرب القهوة العربية.

كان جلياً أن والدكِ قد فهم أو تأكد من معرفتنا الوطيدة لبعضنا ومن خلال خيوط الحكاية، بعدما أشرت إلى أنك لا تحبين القهوة.

أخذ والدكِ يحكي لي عن طفولتكِ وعن العائلة، سألني عن طفولتي وعن حياتي وعن أفراد عائلتي، تحدثنا عن الحياة والعمل والمستقبل، قال لي: على فكرة، حتى لا نخدعك أو نغشك، جمانة لا تجيد شيئاً من أعمال المنزل.

قلت: فتيات هذا الجيل لا يجدن شيئاً قبل الزواج ياعم، لكنني قد أساعد جمانة وأعلمها كل شيء، ما رأيكِ جمانة؟

قلت بصوت منخفض: ربما!

كان من الواضح أنك تشعرين بالإحراج لوجود والدكِ معنا، شعر والدكِ بذلك فأستأذن مني ليطلب من السائق أمراً قال: أعتبر نفسك في بيتك يا عبد العزيز، سأعود بعد قليل.

التفتّ إليكِ، كنتِ تراقبين والدكِ وهو يبتعد، فقلت: شرايك تتركيني وتلحقينه؟

ضحكتِ بصوت منخفض فضحكت انتشاءً بضحكتك، أخذت أتأملكِ، بشعركِ البني المموج، وسمرتكِ اللذيذة، أتأمل عينيكِ الواسعتين وضحكتك التي تشف عن صفين من اللؤلؤ الناصع، حركت شفتي من دون صوت: أحبكِ!

فتحتِ يديكِ حتى آخرهما وأنت تشيرين بسعادة حولنا: عزيز!، أنت في بيتنا!!

نظرت إلى الباب لأتأكد من أن والدكِ بعيداً، قمت من مكاني بسرعة، وضعت يدي على خدك الأيسر وقبلت خدك الأيمن القبلة التي لطالما حلمت بها، قبلتكِ قبلة طويلة واحدة، حكيت لكِ فيها عن لوعة قلبي وعن حلم سنواتي الماضية، عدت مكاني بسرعة وقلت: حتى لا تنسي تاريخ القبلة الأولى، ولتذكري دوماً أن القبلة الأولى كانت في بيتكم!

دخل والدكِ، فاستأذنتِ مغادرة، راح يحدثني عن السائق الذي يعيش في بيتكم منذ أحد عشر عاماً وكيف أنه يعتبره كأحد أبنائه، تحدثنا قليلاً عن الخدم، مساوئهم وحسناتهم، وبعدها استأذنته في الرحيل متفقين على أن تقوم «السيدات» بالترتيب للخطوة اللاحقة.

اتصلت بكِ ما إن ركبت السيارة، عاتبتني على القبلة وتساءلتِ عمّا كان سيفعله والدك بي إن كان قد دخل في اللحظة التي قبلتكِ فيها، قلت لكِ بأنه كان سيزوجنا الليلة، كنتِ سعيدة على الطرف الآخر، يرقص صوتكِ من فرط السعادة، كنت واقفاً أمام الإشارة أحدثكِ حينما التفتّ إلى السيارة المجاورة، كانت سيارة فارهة تركب في مقعدها الخلفي فتاة جميلة سافرة الرأس وتتحدث على الهاتف، كانت الفتاة تضع حجابها على كتفيها بلا مبالاة وكأنها تقف في مدينة غير التي كنا نقف فيها!

صفّرت بشفتي: وش هالقمر؟!

قلتِ بدهشة: ماذا قلت؟!

أردت أن أستفزكِ كالعادة، قلت: بجواري فتاة توجع القلب!

صحتِ فيني: أنت وقح لدرجة لا تطاق، لقد كنا توّاً معاً.

- بدأت حالة العته! سأغلق السماعة الآن.

- تحدث معي مثلما أتحدث معك.

- لا أريد أن أتحدث معكِ الآن!

أنهيت الاتصال، وضعت هاتفي على الوضعية الصامتة، ورميته بجواري، لم أكن أريد أن أسمع نحيباً لمجرد مزحة، كانت الفتاة قد وصلت إلى بيتها بينما أنتِ تصرخين في وجهي لمجرد أنني قد أبديت رأيي بفتاة كانت تجلس في سيارتها بجوار سيارتي!

الحق أنني أردت أن أتلذذ باستفزازك، أردت أن أثير غيرتكِ لكنكِ سرعان ما تلبستِ حالتك الدراماتيكية المعتادة، فأردت أن أنهي الأمر قبل أن يتفاقم.

كانت شاشة هاتفي تضيء باسمكِ طوال الطريق، أزعجتني كثرة اتصالاتك أخذت الهاتف لأغلقه فإذا بصديقي عبدالله يتصل، قال لي بأنه سيخرج لمخيم شبابي خارج المدينة وسألني إن كنت أرغب بمرافقته، اتفقنا أن يعرج عليّ في بيت أهلي ليقلني بعدما أبدل ملابسي وأعد العدة للنوم في الصحراء.

أرسلت إليكِ برسالة في طريقي إلى البر، قلت لكِ فيها إنني سأبيت في البر مع أصدقائي، وطلبت منكِ أن لا تتصلي لأنني لن أرد عليك حتى تتأدبي.

كان عبدالله يثرثر طوال الطريق عن أصدقائه الذين كنا في طريقنا إليهم، أما أنا فكنت أفكر في أحداث هذا اليوم، لا أعرف لماذا انطفأت حماستي فجأة تجاه زواجنا، شعرت بثقل كبير يجثم فوق قلبي وكأنني رجل آخر غير الذي لم ينم ليلة الأمس توقاً للقائك، لا أعرف لماذا فترت فجأة، ربما أخافني كلام والدكِ كثيراً، شيئ ما في كلماته هزني وقبض فؤادي بصورة لم أفهمها، وربما لأنني توقعت أن تواجه زواجنا عراقيل كثيرة فتفاجأت حينما تيسر كل شيء بصورة سريعة لا تصدق، فاختلّت موازيني بعض الشيء.

الحقيقة أنني لا أعرف ما الذي اعتراني، لكن الخوف من الزواج بدأ يدب في نفسي حالما خرجت من باب منزلكم، لا أعرف إن كنا قادرين على أن نعيش حياة أبدية معاً، لا أعرف إن كنا ننفع كزوجين من الأساس!

أحبكِ كثيراً ولا أظن بأنني قادر على أن أحب امرأة أكثر مما أحببتكِ وأحبك، لكني لا أعرف إن كنت مستعداً فعلاً لأن أتزوج الآن، الحق أنني لا أعرف إن كنت سأفكر في الزواج الآن لولا ماحدث بيننا خلال العام الماضي، ولولا أنكِ ستعودين قريباً إلى الوطن وإلى الأبد.

الخدش الذي حدث في علاقتنا واقتراب موعد عودتكِ وترككِ لي في الغربة وحدي، كانت عوامل ضغط بالنسبة إليّ، جعلتني لا أفكر إلا في أن أستبقيكِ بأي صورة كانت.

بقدر ما كنت سعيداً ومتعجلاً في موضوع الزواج، بقدر ما بت أشعر بالتورط يا جمانة، أخاف أن أتورط في قفص لم أستعد له، وأخاف أن أورطكِ مع رجل غير جاهز لأن يكون زوجاً بعد.

ربما استعجلنا يا جمان، ربما استعجلنا الأمر كثيراً!

****

مضت ثلاثة أيام على زيارتي لكِ في بيت أهلك، طلبت من أمي أن لا تتعجل بالترتيب مع أمكِ لشيء، قلت لها إننا بحاجة لبعض الوقت لنرتب أوضاعنا وجداولنا قبل البت بأي أمر يخص الزواج.

كنت مضطرباً للغاية، شيء ما في داخلي كان يتأرجح، لا أعرف حقيقة ما الذي انتابني، كل ما أعرفه هو أنني كنت بحاجة لأن أختلي بنفسي، وأن أبتعد عنكِ لأفكر وحيداً من دون أية ضغوط عاطفية منكِ.

لم أقدر على أن أشرح لكِ هذا، ولم تفهمي أنتِ أنني بحاجة لبعض الوقت لأرتب أفكاري وأولوياتي ومشاعري، كنتِ تلحين عليّ باتصالاتكِ وبرسائلك، كنت ملحاحة لدرجة أفقدتني الصبر والحلم واللطف!

قلت لك في اليوم الثالث وحينما سألتني: ما هي الخطوة اللاحقة؟

- هل استخرتِ الله أولاً؟

سألتك بدهشة: فِيمَ أستخير الله؟!

- في زواجنا.

- أتطلب مني الآن بعدما تسهّل كل شيء أن أستخير؟!

- وماذا في ذلك؟ أرجوكِ استخيري قبل أي شيء.

كنتِ مندهشة من طلبي، مثلما كنت مندهشاً أنا من نفسي!

ربما طلبت منكِ أن تصلي صلاة الاستخارة لأنني كنت أتمنى من أعماقي أن تطلبي أنتِ تأجيل الزواج أو التراجع عنه، كنت أريدكِ أن تطلبي ذلك مني، لم أرغب بأن أكون من يطلب هذا الطلب وبعد كل هذا.

كنت أعرف أن فتاة مفرطة الحساسية مثلكِ لن يمر عليها أمر كهذا مرور الكرام، فتاة مثلك قد لا تشفى من هذا الأمر أبداً، كنت أدرك أن التراجع عن الزواج سيوشم على قلبك وأنكِ ستتألمين بسببه طوال العمر، ليس لأنكِ حساسة فحسب، بل لأنكِ فتاة معتدة بذاتها على الرغم من التنازلات.

تشاجرت معكِ بعد طلبي بساعات، كنتِ متوجسة بعدما طلبت منك أن تستخيري، سألتني إن كان قد استجد في حياتي شيء أو أحد، أزعجني اتهامك كثيراً، غضبت منكِ، تشاجرت معكِ وتركتكِ تغرقين في دوامة أفكارك وحيدة.

كنت منزعجاً للغاية بعدما أنهيت اتصالي معكِ، لم أكن أعرف ماذا أفعل وماذا سأفعل، كنت ضائعاً ما بين حبي إليك وما بين عدم قدرتي على الالتزام حالياً، أزعجني أيضاً أنكِ شككتِ بي على الرغم من أنني لم أفعل شيئاً.

فتحت جهاز حاسبي ورحت أبحث عن بعض الصور الإباحية لأنتقم منكِ بها! كانت هذه حيلتي الدائمة لأنتقم منكِ في داخل نفسي، في كل مرة تظنّين بي ظلماً، أبحث عن صور أؤذيك فيها من خلالها، كنت أعرف أنك

ستنزعجين كثيراً منها وستعدينها خيانة عظمى في عرفكِ الدرامي السخيف، لذا كنت أنتقم منكِ بمشاهدتي لصور تعتبرين مشاهدتي لها خيانة!

لم أتمكن من الوصول إلى شيء، كانت كل المواقع المخزنة في جهازي محجوبة من قبل مدينة العلوم والتكنولوجيا، لمع في رأسي فجأة اسم «ريما»! لطالما فكرت ماذا فعلت الأيام في ريما.

لم أكن أعرف رقم هاتفها، ولا أعرف حقيقة إن كانت قد عادت إلى الرياض أم أنها لا تزال مغتربة، كان قد مضى على آخر اتصال بيننا أكثر من تسع سنوات، عقد كامل غابت عني فيه وغبت فيه عنها.

لا أظن بأنها تزوجت، ولا أظن بأنها قد عادت، لكن عقداً كاملاً كفيل بأن يغير كل شيء في مبادئنا وأفكارنا ومشاعرنا ومصائرنا.

فتحت على موقع الـ Facebook، سجلت اسمها في خانة البحث وأعددت نفسي لليلة طويلة من البحث، ليفاجئني وجود اسمها وصورتها كأول اسم في القائمة؛ أنحنيت أبحلق في الشاشة مندهشاً، لم أكن أتوقع أن أجدها بهذه السرعة أبداً!

كانت صفحتها خاصة ومحمية، كانت بياناتها الظاهرة والموجودة في صفحتها تتضمن اسمها، تاريخ ميلادها، إقامتها في ميتشغن في الولايات المتحدة، وحالتها الاجتماعية التي لم تكن عزباء ولا مخطوبة ولا متزوجة، بل كانت «معقدة» حسب ما وضعت في صفحتها!

أخذت أتأمل صورتها، لم تتغير كثيراً، بدت لي أجمل مما كانت، كما بدت أصغر بكثير من عمرها الحقيقي، ابتسمت حينما رأيت صورة ريما، تذكرت جنوننا وطيشنا والليلة التي غيرت في حياتي كل شيء.

أخذت أفكر في حالتها الاجتماعية المعقدة! ماذا قد تعني؟! أهي معلقة في زواج، ليست زوجة فيه ولا مطلقة؟ أم أنها على علاقة برجل لا تستطيع الزواج منه؟! ربما رجل متزوج وربما رجل ليس بمسلم ولا سعودي، أو ربما هي على علاقة بامرأة أخرى! فحدود ريما تتسع لفكرة كهذه.

خطرت في بالي احتمالات كثيرة وأفكار أكثر، كان لدي فضول شديد لأعرف ماذا حل بريما وماذا تفعل في الحياة الآن، فكرت كثيراً وترددت كثيراً، كنت أعرف أن أي اتصال بامرأة ثانية سيزعجكِ كثيراً مهما كان نوع الاتصال، ومهما كانت أطرافه، لكني أدرك أنك لن تعرفي شيئاً ولن تصلي إلى شيء، كما أنني لا أرجو علاقة من ريما ولا عاطفة.

ترددت كثيراً لكنني حسمت أمري، فتحت أيقونة الرسالة، كتبت «مرحباً ريما، أتمنى أنكِ لاتزالين تذكرينني، وقعت عليكِ عن طريق المصادفة، لم أصدق عيني قطّ، أرجو أن تكوني بخير وسعادة، أتوق كثيراً لمعرفة أخبارك، طمئنيني عنكِ، عبد العزيز».

أخذت أبحث في الموقع عن أصدقاء قدامى لعلّي أجد أحدهم مثلما وجدت ريما بأقل من خمس ثوان، بعد دقائق من البحث وجدت أيقونة الرسائل تشير إشارة حمراء دلالة على وجود رسالة، لم أصدق أن ريما أجابت بهذه السرعة، كتبت ريما: «من أين جئت!، اتصل بي»، منهية رسالتها المختصرة برقمها الأمريكي الطويل!

أخذت هاتفي وأنا أتمتم: أي ليلة هذه!

****

جاءني صوتها متوهجاً كالماضي، لن أقول إنني تذكرت صوتها حينما سمعته، لأنني لم أنسَ صوتها، فعلى الرغم من أنني أقمت علاقات كثيرة وطويلة على سماعة الهاتف، ومع أنني لا أذكر أصوات جميع من عرفت، لكن صوت ريما كان مرتبطاً بالنسبة إليّ بأشياء كثيرة لا تنسى، صوتها كان الصوت الأول الذي كان يجعل قلبي يخفق كلما سمعته.

قلت لها: لم يتغير صوتكِ قطّ!

قالت: ألا تزال تذكر صوتي؟

- قطعاً، صوت المرأة الأولى لا ينسى.

- وصوت الرجل الأول كذلك.

ضحكت: لكنني لم أكن الرجل الأول.

ضحكت أيضاً: لذا نسيت صوتك!

أخبرتني بشكل مختصر أنها تعيش في الولايات المتحدة منذ قرابة العام للحصول على شهادة الدكتوراه في القانون الدولي، أخبرتها أنني لا أزال أسعى للحصول على الماجستير في إدارة الأعمال وأنني لا أزال في كندا، استغربت أن نتجاور إلى هذا الحد من دون أن ندرك ذلك، فقد ظنت أنني قد عدت إلى الرياض أو أنني قد سافرت إلى أرض أخرى بعدما أنهيت دراستي «حسبما ظنت».

سألتها: ما حكاية «complicated» هذه؟

- لم أفهم!

- حالتكِ الاجتماعية في Facebook لماذا هي «معقدة»؟!

- حكاية طويلة، سأحكيها لك لاحقاً، ماذا عنك، ما هي حالتك الاجتماعية؟

قلت بلا تفكير: Single!

قالت باستغراب: أعزب تماماً؟ ألا يوجد في حياتك أحد؟

- لا يوجد في حياتي حالياً أي علاقة جادة.

قلتها وانقبضت معدتي بشدة مؤنبة إياي على الكذب!

لا أعرف لماذا قلت لريما ذلك، لم أكن أنتظر من ريما أي شيء، حتى حوارنا وحديثنا كان عقلانياً محضاً، لم أهتز لسماع صوتها ولم أشعر بأي إثارة من أي نوع كانت.

كنت سعيداً لمعرفة أخبارها وكان لدي فضول شديد حيال حياتها حالياً وليس أكثر من ذلك؛ ومع أن ريما لم تكن من النوع الذي قد يتحفظ عن الحديث مع رجل مرتبط إلا أنني تنصلت منكِ تماماً أثناء حديثي معها، وكأن لاوعيي يأبى أن تطلّي على حديثنا بأي شكل من الأشكال، شعرت بأنني أريد أن أقصيكِ تماماً من حياتي وقتذاك، ربما هرباً من وجع قد يلحق بي إن شعرت بأنني أؤذيكِ بحديثي معها.

تحدثنا لقرابة الساعتين، تأكدت فيهما من أن ريما لا تزال كما كانت، المبادئ ذاتها، وكذلك الأحلام والطموحات والقيم.

كان من الواضح أن السنوات العشر الأخيرة لم تزدها إلا جموحاً وتحرراً وتنكراً لكل ما يبقيها مرتبطة بالوطن، كنت أجد في أفكارها أشياء كثيرة مني، نتشابه أنا وهي في أفكارنا مثلما تتشابهين أنتِ وزياد في أفكاركما، كان ليخيفكِ هذا التشابه مثلما أخافني تشابهكِ أنتِ وزياد.

تركتها لتكمل يومها ولأنهي يومي، متفقين على أن نكمل حديثنا لاحقاً، دخلت فراشي وأنا محموم الأفكار والمشاعر، كنت سعيداً ومنزعجاً في

الوقتِ ذاته، سعيد لأنني التقيت بماضيَّ بشكل من الأشكال، ومنزعج لأنه عاد في وقت غير مناسب، أزعجني أنني فتحت على نفسي هذا الباب، أنني كذبت عليها وأنني سأخبئ عليكِ.

وصلتني منكِ رسالة: «مع من تتحدث لأكثر من ساعة؟! هاتفك مشغول من أكثر من ساعة»!

عدلت إعـدادات هاتفي، فعلت خاصية انتظار المكالمات تحسباً لمكالماتكِ اللاحقة، أرسلت إليكِ برسالة «هاتفي كان مع صديقي عبدالله، لم يخرج من عندي إلا الآن، أشعر بصداع قوي ولا أستطيع الحديث معكِ الليلة، تصبحين على خير».

أجبتني «سلامتك!، تصبح على خير».

كنت أعرف من طريقتكِ في الكتابة ومن اختياركِ للكلمات ماذا تعنين وما تشعرين، أنتِ لم تصدقيني!

تقولين: «بسم الله عليك» حينما أخبركِ أنني متعب أو مريض، وتقولين «سلامتك» إن كنتِ لا تصدقين ادعائي أو إن كنت غاضبة مني لسبب ما، تقولين« أنت الخير كله» في كل مرة أقول لك «تصبحين على خير» وتردين: «تصبح على خير » إن كنا متشاجرين أو إن كنتِ تشكّين في أنني سأنام!

كان من الواضح أنك قد بدأتِ تشكّين بي، زادني هذا انزعاجاً، وضعت هاتفي بجواري وأخذت أتقلب طوال الليل وأنا أفكر، لماذا أورط نفسي دوماً في أمور لا أعرف ما قد تفضي إليه!

****

كم أكره الإلحاح!

أنا مؤمن بأن معظم علاقات الحب تنتهي حالما تطغى صفة الإلحاح على أحد الأطراف، غالباً الفتيات هن من يمارسن الإلحاح وكأنه جينٌ من جيناتهن، لذا يهجر الرجال النساء عادة، وغالباً ما يقدم الرجال على إنهاء العلاقة أكثر بكثير مما تقدم عليه النساء.

أصبحتِ لحوحة فجأة! تلحين على كل شيء، «لماذا لم تتصل، لماذا لم تسأل عني، أين كنت، متى ستتصل، متى ستعود، من تكلّم، لماذا تغيرت، لماذا، متى، أين، كيف، لماذا لماذا لماذا لماذا»!.

أصبحتِ تسألين طوال الوقت، وأصبحتِ تنتظرين إجابات ترضيك، لا يرضيك اختصار، ولا تقبلين بتأجيل أو صمت أو تحفظ، ترغبين بإجابة كاملة، مفصلة، صادقة وغير جارحة!

أنا أعرف أنكِ بت هكذا بسبب تعليقي لأمر زواجنا بلا أسباب، أعرف أن انشغالي عنكِ في الفترة الأخيرة محل شك واستغراب واستهجان، أعرف أن لديكِ أسبابكِ في الإلحاح، أفهم ذلك لكنكِ لا تفهمين أنني بحاجة لأن تبتعدي عني لبعض الوقت، وأن تمنحيني مساحة كبيرة أختلي فيها بنفسي بعيداً عنكِ لأفكر، وأخطّط وأجرب، واستعرض المكاسب والخسائر والمزايا والمساوئ.

أعرف أنكِ لم تخطئي في شيء، وأعرف بأن الذنب ليس ذنبكِ، لكنني أحتاج لأن تعتقيني قليلاً، أحتاج لأن تطلقي سراحي لبعض الوقت، لأعود متيقّناً ومؤمناً بدل من أن أظل متشككاً ومنافقاً معكِ.

إلحاحكِ لم يزدني إلا بعداً عنكِ يا جمانة، وجدت في الحديث مع ريما شيئاً كنت أحتاجه في ذلك الوقت، كنت أناقش معها أفكاري ومشاعري من دون أن تستهجن فكرة أو تزدري رغبة، معها كنت على طبيعتي، بعيوبي وأخطائي، ربما لأنها كانت تشابهني في كل شيء، وربما لأنني لم أكن أعنيها أصلاً.

سألني والدي: «الجماعة» لم يتصلوا علينا، ولم تجعل أمك تتصل عليهم، ما الأمر؟

قلت: لا أمر، نريد أن نرتب جداولنا وأمورنا قبل إعلان الخطبة، عائلة جمانة لن يعلنوا عن خطبة طويلة، لن يعلن أهلها خطبتنا ولن يباشروا في أي خطوة لاحقة إلا إن حددنا تاريخ الزواج، وهذا لن يحدث قريباً.

- ولماذا لا يحدث قريباً؟

- تبقّى لديها تسعة أشهر لتتخرج، ترى هي أن الزواج في عامها الأخير من الدراسة الجامعية قد لا يساعدها على المذاكرة، لذا ترغب أن تنهي دراستها أولاً.

- لماذا خطبتها الآن إذاً، لماذا لم تؤجل خطبتها حتى تتخرج؟

- حتى تعرفوا ويعرف أهلها أنني أريدها، يكفي أن يعرفوا هم بأمر خطبتنا، لا داعي لأن تعرف عائلتها الكبيرة ولا عائلتنا حتى يحدد موعد الزواج.

أشار والدي بإصبعه مهدداً: عبد العزيز لا تفشلنا مع الناس ولا تحرجنا معهم، بنات الناس مو لعبة!

- لا تخاف يبه، أرقد وآمن!

خفت كثيراً من أبي! تخيلت كيف ستكون ردة فعله إن تأكد من أنني قد تراجعت عن مشروع الزواج «حالياً» على أقل تقدير!، كنت أرى الشك في عينيه فيرتجف الطفل الذي في داخلي أمامه.

كنت أعرف أنني أقحمت نفسي وإياكِ في دوامة كنت أستطيع أن أجنبكِ وأجنب نفسي الدخول فيها، لكنني لم أختر أقداري يا جمانة، ولم أكن أعرف أنني سأجبن، صدقيني ليس من السهل عليّ أن أجرحكِ، ليس من السهل أن أخذلكِ مجدداً، لكن خذلاني لكِ الآن أفضل من أن أخذلكِ بعد زواجنا ألف مرة ومرة.

كنت أحادث ريما فجراً حينما اتصلتِ، كنت أرى اسمك في الشاشة وأعصابي تغلي من إلحاحكِ الغريب، استأذنت من ريما لدقائق، اتصلت عليكِ ليجيبني صوتكِ الغاضب: مع من كنت تتحدث في هذا الوقت؟

قلت: كان هاتفي مع عبدالله.

- مسكين عبدالله لا يملك هاتفاً لدرجة أنه يقضي الساعات على هاتفك، فهاتفك طوال الوقت إما مع عبدالله وإما معك بحيث تقضي الساعات مع أختك هديل على الهاتف!

- ما الذي تقصدينه يا جمانة؟

_ أتظن بأنني ساذجة إلى هذه الدرجة؟

- كنت أتحدث مع الجن الأزرق، ما دخلكِ أنتِ بي؟

صرختِ: لقد وعدتني أن تتغير، ما الذي دهاك فجأة، أين ذهبت وعودك؟

قلت: «بليها وأشربي مويتها» وأغلقت هاتفي!

لم أكن أعرف ما سأفعل، لم أكن أعرف ما أريد! باتت مكالمتكِ تزعجني كثيراً، بإلحاحكِ وشكوككِ وبتأنيب ضميري أيضاً.

قررت أن أحسم أمري، حجزت تذكرة سفر، واتصلت عليكِ، قلت لك إنني لم أعد أحتمل ظنونكِ وإنكِ ستظلين تشكين بي طوال الحياة وهذا ما سيدمر علاقتنا، أخبرتكِ أن أي رجل يتمنى أن تكوني زوجته، لكن زواجنا ليس بقرار سليم، وأن انفصالنا الآن خير من أن ننفصل بعد الزواج، قلت: أن ننفصل بحب أفضل بكثير من أن ننفصل لاحقاً ونحن نكره بعضنا.

الحق أنك لم تسهّلي عليّ المهمة الصعبة، كنت تقاومين كلماتي، تلومينني حيناً، تذكرينني بحبكِ لي وبتضحياتكِ وتنازلاتكِ من أجلي حيناً آخر، كان انهياركِ وعتبكِ جارفاً وقاسياً إلى حد الوجع!

أخبرتكِ أنني عائد إلى تورنتو، وأنه يتوجب عليكِ أن تخبري أهلكِ بأنكِ من تراجع عن الزواج حفاظاً على كرامتكِ وكرامتهم.

أخبرت أهلي أن هناك مشكلة في جداولي الجامعية وأنه يتوجب عليّ أن أعود لأحلها، طلب مني والدي أن أرجئ السفر لحين عودة الوليد الذي كان سيعود بعد سفري بيومين، لكنني أخبرته بأن الأمر لا يؤجل.

تركت أهلي، وغادرت الرياض كارهاً لكل ذكرى تربطني فيها، كرهتها أكثر بكثير مما كنت أفعل طوال حياتي!!

****

معقّدة!

كانت حالة ريما معقدة فعلاً، لم تكن على علاقة برجل متزوج فحسب،

ولم تكن المشكلة في أنه رجل يكبرها بأكثر من عقدين من الزمن، كانت المشكلة أنها أحبت صديق والدها!

قابلت ريما العم يوسف في بداية إقامتها في نيويورك، في أثناء زيارة والدها لها، طلب منها والدها أن ترافقه لزيارة أحد أصدقائه المقيمين في المدينة نفسها، فرافقته لتصدم أقدارها بأقداره، كان صديق والدها يقيم في نيويورك لأكثر من عامين بسبب ظروف زوجته الصحية والتي كانت تتعالج في أحد المستشفيات من مرض عضال .

وقعت ريما في يوسف منذ اللقاء الأول، كان رجلاً مثقفاً وحكيماً وجذاباً على الرغم من أنه يقارب عقده السادس، عرفت منه أنه قد درس في الجامعة ذاتها التي تدرس بها قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وطلب منها أن تبقى على تواصل مستمر معه، وأن تعدّه في مكانة والدها في الغربة.

توطدت علاقة ريما بيوسف بعد سفر والدها، كانت تقابله كل يوم وهي تعرف أنه يترك زوجته المريضة لوحدها فقط ليراها، شعرت أنها شابت معه، وشعر هو بأنه شبّ معها، أحبت فيه رجاحته وحكمته، وأحب فيها شبابها وجموحها وتمردها.

كان من الواضح بالنسبة إليّ أن استمرار علاقتهما ضرب من ضروب المستحيل، لم يكن ليسمح والدها بأن تتزوج أحد أصدقائه حتى وإن كان من أكثر رجال جيله تحرراً، لكنها كانت مؤمنة بأنها ستجد سبيلاً للوصول إلى يوسف، كانت تؤمن أن بإمكانها تبسيط كل معقّد، وأن كل مشكلة في العالم خلق لها حل ما، حل موجود لكننا نجهل الوصول إليه، وقد كانت مصرة هي على إيجاد حل!

لم تكن حالة ريما المعقدة فقط، كانت حالتي أشد تعقيداً من حالتها،

غادرت الوطن هرباً من قيد يكبل معصمي ومعصميكِ، لتلفحني سموم فقدكِ ما إن وطأت قدماي أرض المطار.

كنت أتأمل الشوارع والمباني في طريقي إلى البيت، كيف سأمر منها كل يوم من دون أن تكوني بجواري في السيارة، أو أن تكوني معي على الهاتف؟! كيف سيمر كل واحد منا منها كل يوم من دون أن يكون الآخر في حياته؟! كيف سأعيش غربتي من دونك؟ وكيف ستعيشينها بعيدة وقريبة مني؟!

لم يكن روبرت في البيت حينما وصلت، استقبلتني باتي بوجه يشع من فرط الحماسة والترقب والفضول، قالت لي ما إن دلفت إلى داخل البيت وهي تساعدني في جر حقيبتي الصغيرة: عزيز، كيف جرت الأمور؟

- كل شيء على ما يرام يا باتي.

- هل باركت عائلتك وعائلة جمانة زواجكما؟

- نعم، لكن الأمور لم تجرِ مثلما أردنا.

عبست باتي وقد ازدادت تجاعيدها تعرجاً: يا إلهي! ماذا حدث؟

قلت لها وأنا أجلس: لا أعلم يا باتي، صدقيني لا أعلم.

- كيف لا تعلم؟ أين جمانة؟، ألم تأتِ معك؟

- جمانة لا تزال في السعودية، أظن أنها ستعود إلى هنا في نهاية الصيف.

- كدرتني كثيراً، ظننت أن الأمور ستجري جيداً، كنت وروبرت في غاية الحماس لزواجكما.

- كنت أتمنى ذلك أيضاً.

- هل أنت بخير؟

- أظن ذلك.

- ماذا عن جمانة؟، كيف حالها؟

- ستكون بخير، لا تقلقي.

تنهدت بعمق: أتمنى أن تكون بخير، جمانة فتاة رائعة حقاً، أرجو أن تصطلح الأمور بينكما.

- من يدري يا باتي، قد تصطلح الأمور يوماً.

- فعلاً، من يدري!

غمغمت وهي تتجه إلى المطبخ: أنت لا تستطيع العيش من دونها على أي حال!

حملت حقائبي ودخلت غرفتي لأنام بعد رحلة العودة الطويلة المنهكة، كانت صورنا معاً والتي كانت تملأ جدران الغرفة في استقبالي، بدّلت ملابسي وأخذت أتأملها صورة صورة، كان لكل صورة عمر وتاريخ وحكاية، صدمني نضج علاقتنا، تغيّرها من صورة لأخرى خلال أربع سنوات وكأننا عشنا عقوداً مع بعضنا على الرغم من ملامحنا الفتية، كنت أتفرج على الصور مبتسماً وأنا أفكر، كيف كنت سأقضي السنوات الأربع الأخيرة من دون أن تضفي على حياتي كل هذه الألوان؟!

افتقدتك كثيراً خلال الأسابيع الماضية، افتقدتك بقدر ما أذيتكِ، وبقدر ما خذلتكِ، وبقدر ما جبنت.

كنت أشعر بأنكِ تبحلقين بي من خلال الصور، تنظرين إلي بخيبة وقسوة ومقتٍ وعتب، على الرغم من ابتساماتك الناعمة واللمعة التي تشع من عينيكِ في كل صورة.

أفسدت الأمر بيننا، بل أفسدت حياتي إلى الأبد، أنا أدرك الآن أن لا شيء قادراً على إصلاح الأمور بيننا، تراجعي وخذلاني إياكِ هذه المرة لن يصححه شيء ولن يخفف من حدته أحد.

انتهى ما بيننا، بل أنهيت أنا ما بيننا لسبب لا أعرف مكمنه، لا أعرف لماذا أسعى إليكِ بضراوة، وحينما أصل إليكِ أفر هارباً جزعاً، وكأن ملائكتكِ الحارسة تدفعني بعيداً عنكِ لتحميكِ مني أو لتحرمني منكِ!

قوة إلهية عظمى تفصلكِ عني وتردني عنكِ، قد يكون الخوف والتردد والرهبة والجزع كلها موانع إلهية تحيل بيني وبينكِ لسبب لا يعرفه إلا العظيم وحده عز جلاله.

أطفأت الأنوار كي لا أراكِ حولي، وضعت سماعة الـ ipod في أذني وأدرت أغنية Only time لـ Enya.

Who can say where the road goes
Where the day flows, only time
And who can say if your love grows
As your heart chose,
only time!

Who can say when the roads meet
That love might be in your heart
And who can say when the day sleeps
If the night keeps all your heart
Night keeps all your heart
Only time!

أغمضت عينيّ بقوة وأنا أردد في نفسي: «الوقت فقط يا جمانة هو القادر على إخبارنا، الوقت فقط»!

****

مرت ثلاثة أسابيع على عودتي، قضيت معظمها وحيداً على غير العادة، كان معظم أصدقائي في الوطن حيث يقضون إجازاتهم الصيفية التي كانت تشارف على الانتهاء، كنت أعرف بأن كثيرين منهم سيعودون خلال هذا الأسبوع حيث أن أبواب الجامعات ستفتح خلال أيام، مثلما كنت أدرك أن موعد عودتكِ قريب بلا شك، فأقع بين انتظار عودتهم وبين الخوف من نتائج عودتكِ.

لم أفعل الكثير منذ أن عدت، شاهدتُ بضعة أفلام وحيداً، قرأت ثلاثة كتب، أعدت ترتيب غرفتي، أزلت صوركِ من على الجدران، ولملمت كل الأشياء التي تتعلق بكِ ووضعتها مع صوركِ في صندوق كرتوني أحكمت إغلاقه، كتبت عليه My past وخبأته «عني» تحت السرير!

لم أقدر على تحمل وجودكِ حولي، كان الحنين يقرع أجراس قلبي كلما وقعت عيناي على صورة لك، لذا أبعدت كل الماديات التي تذكّرني بك على أمل أن يجتثكِ النسيان مني.

اتصلت بياسمين، هربت إليها كعادتي، اعتذرت لها عن غيابي في الفترة الماضية، أخبرتها أنني مررت بظروف قاهرة، ومن ثم سافرت إلى الرياض، كانت ياسمين مستاءةً مني على غير عادتها، كان قد مضى على آخر اتصال جمع بيننا أكثر من خمسة أشهر، حاولت أن أحتوي غضبها وأن أتفهمه،

وعدتها أن أزورها خلال أسابيع لنتفاهم على كل ما يربط بيننا فأغلقت راضية.

لا أعرف ماذا انتابني في الفترة الأخيرة، وكأن لعنتكِ قد أصابتني حقاً، أشعر بالزهد في كل الناس، وبالملل من كل شيء. تراجعت صداقتي أنا وريما خلال الأسبوعين الماضيين، انحسرت مياه الفضول بعد أسابيع من النهل منها، فتبقّت بيننا بضع رسائل تجيء بين الحين والآخر، مجاملة أحياناً وباحثة عن شيءٍ يكسر الملل أحياناً أخرى.

رأيتك ليلة البارحة في حلمي، استيقظت مبتسماً، فرحاً برؤيتكِ!

رأيتكِ تخرجين الصندوق من تحت السرير، قمتِ بفتحه وأخذتِ تعيدين الصور مكانها بينما كنت أراقبكِ مضطجعاً على سريري، استيقظت من حلمي قبل أن تنتهي من تعليق الصور! شعرت بالراحة حينما استيقظت، لا أعرف إن كانت رؤيتك قد أسعدتني أم أن رمزية الحلم هي التي فعلت ذلك، قد يكون الحلم مجرد حديث من أحاديث النفس، لكنني أحببته كثيراً.

ظللت طوال اليوم أفكر في الحلم وما خلفه في نفسي من راحة وأمل، أخذت أفكر فيكِ، في العصفورة التي ملأت حياتي تغريداً فحاولت إسكاتها مللاً، لأصدم بأيام صامتة ومملة بلا تغريد ولا تحليق ولا عصفورة.

فكرت أن أتصل بكِ عندما حل الليل، لم أكن لأتصل على هاتفكِ المحمول كي لا يظهر رقمي لديك، لذا قررت أن أتصل عبر هاتف المنزل، علّي أحظى بشيءٍ من صوتك وإن لم أكن متأكداً من عودتك.

كانت أنفاسي مضطربة، وضعت يدي على السماعة كي لا تسمعيها، أدرت رقمكِ وبقيت أنتظر، فقدت الأمل بإجابتكِ بعد النغمة الخامسة، ظننت

بأنك لم تعودي بعد، أبعدت الهاتف عن أذني لأنهي الاتصال لأسمع صوتكِ يهمس من بعيد: Hello!

كنت قد عزمت على أن أسمع صوتكِ، وأن أتأكد من عودتكِ فقط، لكنني وجدت نفسي أقول: عدتِ إذاً!

صمتٌ، حبستِ أنفاسك فلم يصلني منكِ أي شيء، ظللتِ صامتة من دون كلمات ولا حروف ولا أنفاس، كنت أعرف أنك ستنفجرين دمعاً، قلت: أرجوكِ جمان، لا تبكي، لا تغضبي ولا تنفعلي، لا تهدري عمراً آخر في حزن وبكاء.

جاءني صوتكِ قاسياً بهدوئه: لماذا تتصل؟

– تعرفين لماذا أتصل!

– لا تتصل بي مجدداً.

– تعرفين أنني لن أقدر على أن أعدكِ بهذا.

– أعرف بأنك تقدر على كل شيء، لا تتصل بي مجدداً.

– لا بأس يا جمانة، اتصلي بي إن احتجتِ لأي شيء، سيسعدني كثيراً أن أكون حاضراً في أي وقت تحتاجين فيه لشيء.

قلتِ بعتب: لا والله فيك الخير!

ودعتكِ وأنهيت الاتصال، كنتِ مختلفة هذه المرة، كنت صارمة، باردة وحازمة أكثر من أي وقتٍ مضى، الحق أنك لم تكوني يوماً هكذا، ولم أتخيل أن تصبحي يوماً بهذه الصورة القاسية مهما فعلت بكِ وفيكِ ومعكِ.

بدا لي من مكالمتنا القصيرة أنكِ انتهيت مني وأنكِ تجاوزتني، لكن قلبي

لا يصدق هذا يا جمان!، كيف تنتهين مني وأنا غير قادر على الانتهاءِ منكِ؟!

كيف تقدرين على فعل هذا يا جمان؟!

****

عاد زياد أيضاً، كنت في بيتِ محمد حينما جاء، يعيش زياد ومحمد في البناية ذاتها، لذا يتزاوران دوماً من دون مواعيد ولا استئذان.

كان كل واحد منهما يملك مفتاح بيت الآخر، ومع ذلك، لم يستخدم زياد مفتاحه بل قرع الجرس، ليفاجأ بي حين دخوله مثلما تفاجأت به أيضاً.

ارتبك زياد حينما رآني، وارتبكت كذلك، كنت جالساً على الأريكة، مد يده إلي وأنا جالس: السلام عليكم، هلا عبد العزيز!

وقفت واحتضنته مثلما يحتضن الأصدقاء بعضهم بعضاً بعد طول غياب، جلس وهو الذي كان قد وصل صباح اليوم، وأخذ يحكي لنا عن رحلته التي تأخرت، وعن تعقيدات الرحلة التي كانت من أصعب رحلاته، لاعناً الخطوط الجوية التي سافر عليها محذراً إيانا من التفكير بالسفر عليها يوماً.

أخذنا نتحدث عن أفضل الخطوط الجوية وعن أسوئها، وتحدثنا عن بعض الرحلات الصعبة التي مرت بنا، سألني محمد مغيراً للموضوع: فلنترك عنك هذا الموضوع وأخبرنا، أنباركُ لك؟

قلت باقتضاب: لا.

- أوف! ماذا حدث؟

- تراجعتُ عن الزواج، رفضتني.

صاح محمد: لا بد من أنك تمزح!

كان زياد يتأملني صامتاً واضعاً يده على فمه مفكراً، وكأنه يجبر فمه على الصمت وعلى أن لا يفلت منه حرف، قلت: هذا ما حدث، أظن بأنها خافت.

- لم أتخيل لثانية واحدة أن يحدث هذا، جميعنا نعرف كم أنّ جمانة تحبّك.

- ربما في الأمر خيرة لي ولها.

قال زياد وهو يقرب كوب القهوة من فمه: الخيرة فيما يختاره الله دوماً، كيف كانت إجازتك يا محمد؟

أنهى زياد الحديث عن الموضوع بسرعة، لا أعرف إن كان قد أنهاه لعدم رغبته بمعرفة التفاصيل، أم أن الموضوع بمجمله لا يعنيه حقاً.

أخذت أفكر في السبب الحقيقي الذي جعلني أدّعي أنكِ من تراجعَ عن الزواج، أهو محاولة لاشعورية مني للحفاظ على كرامتكِ، أم هي رغبة شديدة في أن لا أتلقى لوم أحد!

كنت أتأمل زياد وهو يحدّث محمد عن إجازته بدوره، وأنا أفكر أتراه سيخذلني من جديد محاولاً الوصول إليكِ؟! وهل سيدفعكِ ما حدث بيننا إلى زياد هذه المرة؟!

كنت أعرف أنكِ أصبحتِ حرة الآن وبشكل رسمي لا يقبل الشك أو التحفظ، ما حدث بيننا كان طلاقاً بائناً من دون زواج، لذا لن يلومكِ أحد لو فكرتِ في الخوض بعلاقة حب جديدة، لكنكِ جمانة التي لا تقبل الخوض في مجازفات عاطفية ولا تجرؤ على التجريب فيها، فهل ستتخلين عن حذرك وحرصك لتجرّبي علاقة جديدة، وتسمحي لنفسكِ بالتعرف إلى شخص قد تفضي معه الأمور إلى حب جديد؟!

أزعجتني الفكرة كثيراً، احتمالية الأمر أرعبتني، شعرت بأن المكان يضيق بي، تسارعت نبضاتي بقوة وبدأت أنفاسي تثقل حتى بت غير قادر على

التنفّس، شعرت بأطرافي تتشنج وأنا أحاول أن أشهق الهواء، التفت محمد وزياد اللذان كانا يتحدثان عن إجازتهما إلي، قاما من مكانهما بسرعة، أخذ محمد يهزني: عبد العزيز، عبد العزيز، ماذا بك؟

لم تستطع الحروف أن تتجاوز حلقي، علقت الكلمات في حنجرتي، لا هي خرجت ولا هي سمحت للهواء بالمرور، شعرت بجسدي يزداد تشنجاً وأنا أمسك رقبتي بيدي بِقوة ليفهما أنني لا أقدر على التنفس، كان محمد يصرخ فيَّ وهو يهزني بقوة، ضارباً بيده على ظهري ظناً منه بأنني قد غصصت بشيء، قال له زياد: نوبة هلع، ليست إلا نوبة هلع، عبد العزيز، أنت تعرف أنها مجرد نوبة خوف، تعرف أنك بخير وأنك لن تموت، أنظر إلينا نحن حولك.

صاح به محمد: ما الأمر؟، ما به؟

قال زياد: لا تقلق، امنحه بعض الوقت ليهدأ.

أمسك زياد بيدي اليسرى بينما جلس محمد على يد الأريكة التي أجلس عليها واضعاً يديه على كتفي، قال لي زياد: عبد العزيز تنفس ببطء، أنت بخير، أنت تتنفس، أنا أراك تتنفس، فكر في شيء جميل وبعيد، تخيّل أنك في المالديف الآن، أنظر إلى البحر الفيروزي، وإلى الرمال البيضاء وإلى الخضرة التي تطاول السماء.

أغمضت عينيَّ بقوة محاولاً استحضار الصورة البعيدة، بدأت أرى الأشجار والرمال وأسمع موج البحر في أذني، شعرت بالهواء يتدفق إلى رئتي وبنبضاتي تهدأ، لانت أطرافي وتمددت وبرد العرق الذي تصبب مني حاراً وفزعاً.

قلت لهما وأنا أتنهد : أنا بخير، أصبحت بخير، لا تقلقا.

قال زياد: لم نقلق عليك، نعرف أنك بخير.

- أنا آسف إن كنت قد أفزعتكما.

قال محمد ممازحاً: أعرف بأنك ارتحت حينما تخيلت عري النساء في المالديف!

ابتسمت وأنا أمسح بيدي جبيني الذي كان ينز عرقاً بارداً: أنا آسف جداً، لم تباغتني هذه الحالة منذ فترة طويلة.

جلس زياد في مكانه: لا بد من أنك تمر ببعض الضغوط، هدّىء من روعك، كلنا نمر بظروف بين الحين والآخر، المهم أن تنفس عنها حتى لا تتكابد الضغوط عليك.

سألني محمد: منذ متى تأتيك هذه النوبات؟

- منذ سنوات، تختفي لفترات طويلة، وتزورني لفترات.

- ألم تستشر أحداً فيها؟

- بلى، مثلما قلت لك، هي نوبات تذهب وتعود.

سألني محاولاً تلطيف الأجواء: أعلاجُها دوماً فتياتُ المالديف؟ أخبرني حتى أنقذك إن عاودتك بوجودي.

قلت ساخراً: فلتبتكر فكرة جديدة مع كل نوبة، فلتكن خلّاقاً يا محمد.

ضحك محمد وزياد وحاولا تغيير الموضوع بعيداً عمّا حصل... شعرت بالحرج الشديد وبالخوف أيضاً، كانت معاودة نوبات الهلع لي آخر ما أتمناه وما أنتظره، عودتها إليّ في هذه الليلة تعني أنها ستزورني كثيراً في الفترة القادمة.

كانت نوبات الهلع آخر ما أتمناه الآن، بئساً لعودتها، وبئساً لمن أعادها إلي، بئساً لزياد وبئساً لكِ يا جمان!

****

كنت حازمة تجاه انفصالنا هذه المرة.

اكتشفت حينما تركت الرياض أنني كنت مقتنعاً في لاوعيي أن الأمور ستعود بيننا مثلما كانت! ربما لأننا لطالما تشاجرنا، وربما لأن ما حدث بيننا خلال العام الماضي وعودتكِ إلي قد جعلتني أشعر بأن مصائرنا مرتبطة مهما حدث بيننا.

الحق أنني لا أزال أشعر بذلك، لا أزال أشعر أن دروبنا ستلتقي في نقطة ما، في يوم ما وفي حياة ما.

لن أكذب عليك، ولن أخفيكِ، فبالرغم من كل ما حدث، وبالرغم من حرارة الاشتياق، إلا أن رسولاً خفياً في داخلي ينبئني بأن ما يجمعنا أكبر بكثير من أن يدمره ما حدث.

رأيتك اليومَ في الجامعة، كانت بداية العام الدراسي، وكان معظم الطلبة قد عادوا بعد إجازة شبه طويلة قضوها في أوطانهم، رأيتكِ من بعيد، تمشين مبتسمة، تسلمين على من تصادفينهم في طريقكِ ممن تعرفين، كنتِ مضيئة ملونة وباسمة على الرغم من بقايا الحزن المرتسمة على ملامحك.

اقتربت منكِ، كنت مقابلة لي تماماً، ابتسمتِ حينما رأيتني ابتسامة صغيرة، ناعمة وشامخة، ضممتِ الكتب التي معكِ إلى صدركِ بيديكِ، وقلتِ وأنتِ تضمينها إليك: صباح الخير!

مددت يدي إليك، فصافحتني وأنتِ ما زلتِ تضمين كتبكِ إلى صدركِ بيسارك، قلت: صباح النور جمان، كيف حالك؟

أجبتني وأنتِ تنظرين إلى ياقة قميصي: أنا بخير، الحمدلله، كيف حالك أنت؟

قلت: سأكون بخير!

تجاهلتِ ما قلته وسألتني وأنتِ تنظرين حولنا: كيف حال روبرت وباتي؟

- إنهما بخير، يسألان عنكِ دوماً.

- أحبائي!، فلتبلغهما السلام.

هممت بقول شيء، لكنكِ نظرتِ إلى ساعتك في إشارة إلى تأخركِ أو ربما شعوركِ بالملل!، ابتسمتِ: بداية عام ناجح وسعيد عبد العزيز.

جرحني أنكِ ناديتني باسمي كاملاً، قلت لك: ولكِ أيضاً يا جمانة!

هززتِ رأسكِ بامتنان وتركتني، التفتُّ إليكِ أرقبكِ وأنتِ تبتعدين بخطوات خفيفة، شعرت بأنكِ أخذت قلبي معك، رأيتكِ تبتعدين، وقفت أتأملك من دون أن أبرح مكاني بخطوة واحدة، رأيتك تصعدين الدرج الجانبي ومن ثم التفتِّ، التقت عينانا، فأشحتِ بعينيكِ مبتعدة.

في حوارنا لم تنظري في عيني قطّ، كنت تنظرين بعيداً، بعيداً عني على الرغم من وقوفي أمامكِ، كان جلياً أن في قلبكِ عليّ ما هو أكثر من العتب، أرسلت إليك برسالة: «أنتِ زعلانة مني»؟!

أجبتني: عادي!

حاولتِ تسخيف ما كان بيننا، حاولتِ أن تشعريني بلامبالاتكِ لدرجة أن يكون لقاؤنا عادياً، وأن يكون ما حدث بيننا عادياً، أرسلت إليك معاتباً «عادي!، يا كبر شرهتك علي»!

لم تردّي عليّ!، تركتني أتجرع علقم انتظارك بقسوة لا تليق بك، اتصلت بكِ بعد لقائنا ذاك أكثر من مرة، ليصدمني عدم ردك، وليدب الخوف في قلبي أكثر فأكثر.

كنت أعرف أنكِ تعاقبينني، لكن استمرار تجاهلكِ بات بالنسبة إليّ أكثر

من مجرد عقاب، بات يخيفني هذا الغياب وهذا التجاهل، أصبحت أشعر بأنك بدأت تنغمسين في حياة جديدة لست فيها، وهذا ما أرعبني كثيراً، وما بدأ يفقدني توازني.

اتصلت بي ياسمين قبل أيام، دعتني لزيارتها، شعرت بأنني غير مهيأ نفسياً ولا عاطفياً لتلك الزيارة، أحسست بأنني متشنج القوى، غير قادر على الحركة، على الانتاج، على الاستمتاع، وعلى ممارسة الحياة، لذا اعتذرت منها واعداً إياها بزيارة قريبة حالما تتحسن أموري التي لم تكن ولن تصبح يوماً إلا أنتِ.

صادفتكِ في الجامعة أكثر من مرة، كنت تشيرين إلي من بعيد أحياناً وكنت تقفين للسلام علي أحياناً أخرى، لم يكن في أحاديثنا أي حب! كانت أحاديث زمالة سريعة باردة ومجاملة، حاولت أن أطيل معكِ الحديث أكثر من مرة لتقابلي رغبتي بالصد الحاد، ومع ذلك أصبحت الجامعة أحب الأماكن إلي بعدما كان مقهانا هو مكاننا الأثير الذي أحببنا وتعارفنا على بعضنا فيه، لكنكِ لم تعاودي زيارة المقهى.

أنتِ لم تهجريني فحسب، بل هجرتِ المقهى الذي لطالما جمعنا لسنوات طوال، فبات كل من يعمل فيه يسألني عنكِ في كل مرة أذهب إليه، أنا الذي كنت أذهب إليه في كل يوم وفي التوقيت ذاته حيث كنا نلتقي، على أمل أن تظهري فيه يوماً!

كان صدودكِ يزداد ثباتاً، وكانت محاولاتي تزداد تضرعاً، صدكِ لي كاد أن يزعزع ثقتي بالحب الذي كان يربط بيننا، بتّ أشك في إمكانية أن نسترجع الحكاية يوماً.

وعلى الرغم من كل ما كنت أصارعه في داخلي، إلا أنني حاولت أن أبعد أصدقائي عنه، قطعت عليهم كل دروب الأسئلة، وتجنبت أي حديث قد يفضي إليكِ، أدركوا هم بدورهم ما كنت أحتاجه، فلم يجرؤ أحد منهم على أن يتطرق إليكِ أو إلى ما كان ولا يزال بيننا.

دعاني محمد إلى بيته، أخبرني أنه سيسهر هو وزياد ليتابعا التصفيات المؤهلة لكأس العالم، عرّجت على أحد المقاهي، ابتعت كعكاً طازجاً وقهوة لكل منا وتوجهت إلى بيت محمد.

كان زياد في المطبخ، يستعد لإعداد «كبسة» لنتناولها قبل المباراة، كان محمد يحدثني عن بحث طُلب منه إعداده حينما ارتفع صوت هاتف زياد الذي كان على الطاولة، صاح محمد منادياً زياد ليرد على هاتفه، قائلاً بصوت عال إنه سيرد عليه لاحقاً.

كان رنين الهاتف مزعجاً بنغمته الكلاسيكية، وقد كان محمد متحمساً في حديثه، سحب هذا الأخير الهاتف ليضعه على وضعيته الصامتة وهو يقول: أزعجنا هذا!

عقد محمد حاجبيه حينما نظر في الشاشة، ومن ثم رفع عينيه إليه بحركة لا إرادية مندهشة، لا أعرف لماذا فهمت في أقل من الثانية أنكِ من يتصل! قفزت من مكاني لأسحب الهاتف، فأخذه مني محمد بقوة كي لا أرى اسمك على شاشته، سحبت الهاتف من يد محمد بكلتا يدي، لأجد اسمك في قائمة المكالمات الفائتة.

شعرت بأطنان من الثلج تهطل فوق جسدي، سمعت صوت محمد وهو يقول: لا يضحك عليك الشيطان، يمكن تبي تسأل عنك!

فتحت قائمة الرسائل لأجد آخر رسالة منكِ «اشتقت إليه»!... شعرت بأنني قد وجدت مخرجاً لكرامتي أمام محمد، رفعت الهاتف أمام وجهه ليقرأ الرسالة وكأنها الدليل الوحيد الذي سينقذ كرامتي أمامه!

قال محمد وهو يتنهد وكأن الموقف قد أحرجه أيضاً: أرأيت! مثلما قلت لك.

- محمد، أبيك توعدني بشيء.
- أفا عليك أنت تآمر.
- ما أبي زياد يعرف أني شفت جواله.
- أبشر، بس ليه؟
- مابيه يعرف وبس.

قال محمد متفهماً: أبشر أبشر.

قلت مؤكداً: وعد يا محمد؟

- أفا عليك، أكيد.

أكملت سهرتي معهما على مضض، حاولت أن أبدو طبيعياً، لكنني لم أقدر على ذلك، من حسن حظي أن المباراة بدأت بعدما أنهى زياد إعداد «كبسته»، متابعة المباراة جعلت حواراتنا قصيرة وتتعلق بما يجري في الملعب غالباً، استأذنت منهما حالما انتهت المباراة وغادرت البيت وقلبي يغلي من نار الغيرة والحقد والغضب!

****

دخل يونيو واقترب عيد ميلادك، لا قدرة لديّ على نسيان يوم مولدك، اليوم الذي جئتِ فيه إلى الحياة لتغيرّي مجرى حياتي، دائماً ما أتخيل اليوم الذي ولدتِ فيه، فيما كنت أفعله ساعة رأت عيناك النور...

أخبرتني أنكِ ولدتِ في العاشرة صباحاً من يوم الاثنين، أي أنه كان يوماً دراسياً بالنسبة إليّ، أفكر في اللحظة التي جئتِ فيها، هل خفق قلبي بسرعة؟ هل أنقبض؟ هل شعرت بأي تغير في الحياة أو في مشاعري؟!

لا أظن بأنه كان يوماً عادياً بالنسبة إليّ، من غير المعقول أن تولدي بينما كنت ألعب في ساحة المدرسة أو بينما كنت أتثاءب في حصة رياضيات، لابد أن مجيئكِ هزني بقدرة ما، ومسّني بيد ما وإن لم أكن أعرفكِ.

أربع وعشرون سنة مرّت على مجيئكِ إلى الدنيا، واقترب ربع قرنك، دائماً ما كنتِ تقولين لي إنك ستتزوجين في عامكِ الخامس والعشرين، وستنجبين أول أطفالكِ في السابع والعشرين، أنتِ تخططين لكل ما في الحياة، تحسبين الأرقام والتواريخ وتستعدين نفسياً ومعنوياً لها وكأنها حقيقة ثابتة.

هل تتزوجين فعلاً في عامكِ القادم يا جمانة؟ ومن ستتزوجين؟ أتكونين زوجتي أم زوجةً لرجل آخر لا يعرف تواريخكِ ولا استعداداتكِ للزواج وللأمومة وللحياة؟!

اليوم قرعت كل أجراس التنبيه! كل شيء ينبهني أن تاريخكِ قد اقترب! هاتفي الجوال، جهاز حاسبي، التقويم الورقي، كل الأشياء تصدح «جاء يونيو، جاءت جمان»!.

أنتِ تحبين يونيو كثيراً، تتباهين دوماً أنكِ تشتركين أنتِ وشهركِ في معظم الحروف، في كل مرة يجيء فيها ذكر يونيو، تشرحين لي بحماس الطفولة، «أنا خلقت في June واسمي Juman، نتشارك أنا وشهري في معظم الحروف ونتشابه في اللفظ بعض الشيء»، تخبرينني بذلك في كل مرة بحماس المرة الأولى، فأضحك من أعماقي على ذاكرة السمكة التي تحتل رأسك الصغير.

كنت دائماً ما أضع تنبيه تاريخ ميلادكِ قبل حلوله بأسبوع لأستعد لمفاجأتك، جاء التنبيه مبكراً كالعادة ليطيل فترة وجعي من بداية يونيو وحتى تاريخ مولدك.

لا قدرة لي على فرض نفسي عليكِ هذه المرة، كل إشاراتكِ توحي إلي بأن لا أقترب، لكن كيف أعيش يونيو بدون أن أعيشك وهو June وأنتِ Juman مثلما تخبرينني دوماً!

خرجت لأتجول في المدينة قبل مولدكِ بيومين، علّي أطردكِ وأطرد يونيو من رأسي، مررت بمتاجر عديدة حتى وصلت إلى محل لبيع الحيوانات الأليفة، دخلت إليه لأتفرج، كانت هناك قطة بيضاء صغيرة طليقة لم يتجاوز عمرها الأسبوعين، كان البائع يعرضها على طفل ووالده، تمسكت القطة بقدمي وكأنها تستنجد بي، نظرت إليها فأخذت تمسح بوجهها على قدمي متضرعة إلي أن آخذها.

حملت القطة بيدي، كانت صغيرة وناصعة لدرجة لا تعقل! وقعت في غرامها بسرعة، قال لي الرجل الذي يرافق الطفل: يبدو أنها أحبتك!

ابتسمت: لا بد من أنه الحب من أول نظرة، فأنا أيضاً أحببتها كثيراً.

قال وهو يضحك: لا نريد أن ندمر حبكما، خذها إن أردتها سنبتاع نحن قطة أخرى، يريد طفلي قطاً رمادياً على كل حال.

شكرته كثيراً وشكرت الطفل، ابتعت القطة وبعض حاجياتها وحملتها معي إلى البيتِ، أخذت أفكر طوال الليل في اسم لها، كنت محتاراً ما بين «June و Pure» ناديتها بـ June فلم تلتفت إلي، والغريب أنها نظرت إلي مباشرة حينما ناديتها بـ Pure ، وهكذا أصبحت القطة «نقية» باختياري واختيارها.

اعتنيت بالقطة ليومين كاملين، أخذتها إلى المحل الذي ابتعتها منه في اليوم الثالث والذي كان يصادف يوم مولدكِ من أجل تنظيفها، اشتريت قفصاً جميلاً وضعتها فيه، وبطاقة كتبت عليها قصيدة لكِ وتوجهت إلى بيتكِ.

كنت أفكر طوال الطريق، ماذا سأقول لكِ لو صادفتكِ خارجة من المنزل أو داخلة إليه، دعوت الله أن لا أصادفكِ هذه المرة، كنت حذراً وأنا داخل العمارة حينما وصلت، وضعت الصندوق أمام الباب ونزلت مسرعاً، كتبت لك رسالة هاتفية في طريق عودتي إلى البيت: «كل عام وأنتِ وجع قلبي، هديتكِ على الباب»!.

مضت دقائق طويلة لم تردّي عليّ فيها، تلقيت رسالتكِ وأنا أمام الإشارة، كتبتِ تسألينني: «ما اسم القطة»؟!

أجبتك: Pure، مثلك!

- أحببتها.

- كم أحسدها!

كتبتِ: لطالما أحببتك!

جاءت رسالتكِ تلك معاتبة، فكتبت مداعباً «لكنك بطلتِ».

- أفعلت حقاً؟

كتبت لك مبتسماً: أفعلتِ؟

جاءتني رسالتك الأخيرة بعد عدة دقائق متجاهلة سؤالي: شكراً على الهدية.

ارتحت كثيراً بعد رسائلك التي جاءت ناعمة على الرغم من العتاب،

شعرت بأنكِ قد فتحتِ لي الباب مجدداً من خلالها، فتحتِه باستحياء وبحذر، المهم أنكِ فتحته في نهاية المطاف، لم تكن تهمني الطريقة بل كانت تهمني النتيجة، النتيجة فقط ولا شيء غير النتيجة.

أخذت هاتفي واتصلت بكِ بعد دقائق من التفكير، لم أكن متأكداً من إجابتكِ عليّ لكن رسائلك أغرتني بأن أقدم على المحاولة، أجبتني بعد عدة نغمات، قلت لك إنني ترددت كثيراً بالاتصال لكن رسائلك منحتني الأمل في أن تقبلي دعوتي على العشاء الليلة.

قلتِ بتردد: لا أظن بأنها فكرة سديدة، لا داعي لأن نفتح باباً قد أغلقناه منذ فترة.

قلتُ برجاء: أرجوكِ جمان، الليلة فقط، فلننسَ جميع خلافاتنا.

سألتني: ولماذا نخدع أنفسنا؟

– لأنها ليلة عيد ميلادك، أرجوكِ يا جمان، فلنسهر معاً ونثرثر مثلما كنّا نفعل في الماضي، الليلة فقط يا جمانة.

سألتني بصوتٍ متردد: أين نلتقي؟

– أتريد أن نلتقي في المقهى؟

– لا لا، لا أريد المقهى، لا أريد أن يرانا أحد نعرفه.

– حسناً، سأمر عليكِ لآخذكِ إلى مطعم جميل، متى ستكونين جاهزة؟

– في السابعة.

– سأكون أمام البيت في السابعة تماماً.

أغلقت معكِ وأنا أتنهد، لكم هو كريم يونيو!

****

حضرتِ كما الماضي، برقتكِ ذاتها، وكذلك بنعومتكِ وتوهّجكِ المقهورين، جئتِ كما كنتِ تجيئين، بقلب كبير، محبّ وصاف.

ضحكنا كثيراً، مزحنا كثيراً وثرثرنا أكثر من دون أن نتطرق لصيف الرياض وما حدث فيه، كنتِ توّاقة إلى المغفرة مثلما كنت تواقاً إليها، كنتِ بحاجة لأن تغفري لأنك لا تجيدين غير المغفرة، وكنتُ محتاجاً لأن تسامحيني لأنني لا أقدر على أن أبقى قصياً عنكِ.

كانت عيناكِ تلمعان بالحب مثلما كانتا تلمعان طوال السنوات الماضية.. لقد عادت تلك اللمعة التي يرتجف أمامها قلبي، عادت إلى عينيكِ فأضاءت روحي من خلالها.

كنت أتأملكِ وأنتِ تتحدثين، أنتِ قدري! مهما هربتُ منكِ ستظلّي قدري، فأنتِ الفتاة الصغيرة التي أحبها وتحبني مهما كبرنا وشخنا، ومهما فعلت بنا الأيام والسنوات، أنتِ المحطة التي ستنتهي عندها حياتي مثلما كنتِ المحطة التي بدأت فيها الحياة الحقيقية.

جاءتني خمس رسائل على هاتفي أثناء عشائنا، كانت إحداهن من ريما وأخرى من ياسمين، وكأنهما يسعيان لإفساد عودتنا، كتبت ريما في رسالتها «عزوزي، أنا في حالة نفسية سيئة، تعقدت الأمور مع يوسف، لا أعرف ماذا أفعل، اتصل بي حالما تقدر»... مسحت رسالتها فظهرت رسالة ياسمين تحتها «زيزو، أين أنت»؟

مسحت الرسالة ورحتُ أتأملكِ، كنتِ تقرأين في لائحة الحلويات والمشروبات، رفعتِ رأسك وابتسمتِ: أيحق لفتاة عيد الميلاد بكعكة جزر وقرفة؟

ابتسمت وقلت: سأغير رقم هاتفي!

رفعتِ أحد حاجبيكِ باندهاش: حقاً؟، لماذا؟

- لأنني أريد هذا.

- وهل سيحل تغييرك لرقمك كل مشاكلك؟

- سيحل جزءاً منها.

- أرجو لك التوفيق!

قلتها وابتسمتِ ابتسامة ذات مغزى، كنت أعرف ما يجول في خاطركِ، أنتِ تخافين من المخاطرة معي من جديد، لكن على الرغم من أنكِ ما زلتِ تحبينني، ربما لم تعودي تحبينني بالقدر ذاته، لكنكِ ما زلتِ تُحبينني ولا تزالين.

كان عشاؤنا سريعاً على الرغم من الساعات الثلاث التي قضيناها، وددت لو قضينا الليل بأكمله معاً، تمنيت أن لا تنتهي الليلة التي كانت بالنسبة إليّ أجمل ليالي العمر وأغلاها ثمناً.

أظن أحياناً أن يوم العودة الأول بعد الانفصال غالباً ما يكون أكثر عذوبة من يوم التعارف الأول، لأن العودة بعد فراق تعني أن الحب قد وقع لا محالة، وأن الحياة من دون الطرف الآخر باتت مستحيلة.

غادرنا المطعم من دون أن أرغب في المغادرة، كان الطريق قصيراً إلى بيتك على الرغم من أن المطعم لم يكن قريباً منه، وقفت أمام العمارة وأنا أفكر كيف سأتركك هذه الليلة، لم تبرحي مكانك عندما توقفت ولم تلتفتي إلي، قلتِ بصوت خافت تملأه الحيرة: لماذا فعلت بي هذا؟!

كان سؤالكِ صعباً، صعباً للغاية، أنا نفسي لم أكن أملك إجابة واضحة عنه، لم أعرف بماذا أجيبكِ، ترددت كثيراً وقلت: لا أدري!، أظن بأنني قد جبنت.

سألتني: مِمَ جبنت؟

- لا أدري!

خيّمت علينا غيمة الصمت، أشعلت سيجارة وأخذت أتأمل الشارع الذي بدا موحشاً بصمته... قلتِ بصوتٍ أقرب إلى الهمس: أأحببتني يوماً؟

بدا لي تساؤلكِ صادقاً محتاراً، جرحني كثيراً أنكِ بتِّ تشكين بكل سنواتنا وأيامنا ومشاعرنا ومواقفنا وحكاياتنا، شعرت بدمعي ينهمر على وجنتي، كانت روحي تنتحب في داخلي، قلت: لو تدرين كم هو مؤلم سؤالكِ هذا؟!

- لماذا لا تجبني عليه؟

- ولد حبنا وولد وطننا في التاريخ ذاته، أنتِ وهو مقدّران لي وعليّ، ستبقيان قدري مهما حاولتُ أن أتنصل منكما، مهما كانت أقدارنا شقية، سنظل معاً، ستظلين حبيبتي وسيظل وطني، لذا أحتاج أن لا تتخلي عني يا جمانة، لا تتنصلي مني، لا تكفّي عن حبي، من يدري يا جمانة إلى أين ستفضي الحياة بنا! قد يجمعنا في نهاية المطاف بيت واحد، وطن واحد، أسرة واحدة ومستقبل واحد.

كنت تستمعين إليّ وأنتِ تنظرين إلى البعيد من خلال الشباك، وليس إلي، شعرت بأنني غير قادر على أن أتركك في هذا الوقت، كانت الكلمات تستعر في أعماقي، وفي داخلي أحاديث طويلة، قد تنفجر إن لم أحدثكِ عنها

وأخبركِ بها، قلت لك: لا يزال الوقت مبكراً، ما رأيكِ أن نكمل حديثنا في مقهى ما؟

لم تردّي عليّ، استرخيت في مقعدكِ وأمسكتِ بالدبلة المصنوعة من الذهب الأبيض، والتي تتدلّى على نحركِ الرقيق كنجمة مضيئة... أخذتِ تعبثين بها بشرود، وكأنكِ في أرضٍ بعيدة، أرضٍ أضعت طريقها، أرضٍ يخيفني أن لا أستدلّ دروبها بعد اليوم.

غارقةٌ أنتِ في خيبتكِ، وغارق أنا في معصيتي، لكنني أحبكِ يا جمانة، فاغفري!

**أثير عبدالله النشمي**

**أبريل/ نيسان 2011**